المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد.

إن الزمن ملتحم باللغة وجزء لا يتجزأ من مكوناتها، ولا توجد لغة نطق بها الإنسان لا تحمل سمات زمنية مؤثرة في المعنى.

إن ارتباط الزمن باللغة من أكثر القضايا اللغوية تشعباً، والتي تكون ما يمكن أن نطلق عليه شبكة معقدة من الأشكال والعلاقات، تبدأ من المورفيمات، فالصيغ فالمركبات، بوصفها بنى لغوية صرفية من جهة، ونحوية من جهة أخرى، وتنتهي إلى النظر في المعنى وعلاقته بالزمن سواء أكان ذلك المعنى على صعيد المعجم، أم على صعيد معنى الصيغة المفردة، أم على صعيد الدلالة النحوية[1].

منذ فجر الدراسات اللغوية اهتم علماء اللغة بدراسة المعنى، وركز النحويون كثيراً على الإعراب وقضاياه، الأمر الذي جعلهم يكثرون من تناول بعض المسائل التي لا تفيد المعنى كثيراً مثل البحث في العلل، كما نجد أن النحويين قد قسموا الفعل في العربية إلى ثلاثة أقسام هي: الماضي، والمضارع، والأمر. وربطوا هذا التقسيم وهذه التسمية بالأزمنة الثلاثة، الماضي والحال، والمستقبل، دون أن يفصلوا القول في علاقة الفعل بهذا التقسيم وهذه التسمية، ولا عن كيفية تعبير الفعل عن الزمن، كما لم يتناولوا دلالة الفعل الزمنية في دراسة منفصلة.

وهذا لايعني أن علماء اللغة القدماء، لم يفطنوا إلى حقيقة الزمن، ولم يلحظوا الفرق في المعنى بين الفعل الخالي عن القيود الزمنية، وبين الفعل المقيد بها كقولك: ذهب، وقد ذهب، وكان قد ذهب وغيرها، لابد أنهم فطنوا وأدركوا هذا الأمر ولكنهم عالجوه في مواطن متفرقة من مؤلفاتهم، ولم يجعلوا له أبواباً خاصة به، كما أن كثيراً من الأمثلة النحوية والشواهد عند القدماء،أمثلة تعليمية أكثر من كونها نصوصاً حية تصلح للتطبيق الكامل والمقارنة التامة، التي تجعل الدارس يقف على حقيقة الزمن النحوي داخل السياق ودوره في جلاء المعنى.

---

[1] د.مالك يوسف المطلبي، الزمن واللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط/2، 1986،ص29.

تركيز القدماء على الفعل، وعلى الزمن الصرفي المستفاد من الصيغة، جعل البعض يرى أن العربية لاتعبر عن الزمن إلا من خلال الصيغ الفعلية، وأنها تكاد تخلو من النسق الزمني الكامل والحق أن العربية قادرة على التعبير عن الزمن، من خلال الصيغ الفعلية، والمركبات الزمنية ومن خلال السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي، وما يملك من إمكانات وقرائن تعين في الكشف عن الزمن اللغوي في العربية، وهو زمن صرفي ونحوي.

وقد اتجهت بعض الدراسات اللغوية الحديثة، نحو الاهتمام بالنصوص كاملة والوقوف على العلاقة بين نحو الجملة، ونحو النص، ومعرفة الضوابط التي تتحكم في بناء النص زمنياً، ومن ثم التمكن من تحليل النصوص تحليلاً زمنياً، يجمع بين كل ما يساعد في تعيين الزمن، وتوجيهه ابتداءً من الصيغة الصرفية وانتهاءً بكل مقدرات السياق الزمنية.

أهمية البحث:

عالج البحث الصلة القوية بين المعنى والنحو، من خلال دراسة الزمن النحوي معالجة علمية مؤيدة بالأدلة القاطعة، ولعل هذه المعالجة إضافة جديدة إلى الدرس اللغوي تمثلت في الكشف عن أن الزمن اللغوي زمن نحوي سياقي، لا يمكن الوقوف على حقيقته خارج السياق، وأن اللغة العربية تعبر عن الزمن بدقة متناهية من خلال المركبات الزمنية وملابسات السياق بكل مفاهيمه. نسأل الله أن يجد طلاب اللغة العربية في إضافات هذا البحث ما يفيدهم ويفيد الدرس اللغوي عامة.

أهداف البحث:

يحاول البحث تحقيق الأهداف الآتية:

1- التعرف على مفهوم الزمن اللغوي، وكيفية التعبير عنه في اللغة العربية.

2- معرفة العلاقة بين النحو والدلالة الزمنية.

3-معرفة كيفية تحليل النصوص تحليلاً زمنياً.

4- الوقوف على النظام الزمني للغة العربية.

5-

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في التعبير عن الزمن اللغوي في اللغة العربية، وذلك لأهمية الزمن وارتباطه الوثيق باللغة، فالعربية تعبر عن الزمن بوسائل كثيرة يأتي في مقدمتها صيغ الأفعال والمركبات الزمنية إضافة إلى دور السياق البارز في الكشف عن الزمن.

أسئلة البحث:

1- ماهو الزمن اللغوي وكيف تعبر اللغة العربية عن الزمن؟

2- ما العلاقة بين النحو والدلالة في الكشف عن الزمن اللغوي؟

3-ماهي القواعد والقوانين التي يتم بموجبها تحليل النصوص زمنياً؟

4-تملك العربية نظاماً زمنياً ثرياً على التعبير عن الزمن تعبيراً واضحاً؟

فروض البحث:

1- تعبر اللغة العربية عن الزمن اللغوي بوسائل كثيرة ومتنوعة.

2- توجد علاقة قوية تربط بين النحو والدلالة وتسهم في توضيح الدلالة الزمنية.

3- تحلل النصوص اللغوية بموجب قواعد لغوية كثيرة تشارك في بيان الدلالة الزمنية في النص.

4- تتميز اللغة العربية بقدرتها على التعبير عن الزمن بكل وضوح وسهولة.

منهج البحث:

قامت الدراسة على المنهج الوصفي القائم على التحليل والوصف والاستقراء لمناسبته موضوع الدراسة، ويمكن توضيح المنهج الذي اتبعته في الآتي:

1- رصد كل الأقوال المتعلقة بموضوع الزمن النحوي، والمتعلقة كذلك بمفهوم النص ونحو النص.

2- إجراء المقارنة واستخلاص النتائج.

3- استخراج الأحاديث للتطبيق من كتاب صحيح البخاري، دون تخصيص جزء معين.

4-عند التطبيق أشرت إلى الأحاديث في متن البحث، ذاكراً الباب الذي ورد فيه الحديث، ورقمه ورقم الصفحة، مثلاً: (باب حلاوة الإيمان، ح15، ص27)، وذلك لتجنب التكرار في الهامش.

حدود البحث:

تهتم هذه الدراسة بقضية التعبير عن الزمن اللغوي في اللغة العربية، آخذة بأقوال القدماء المرتبطة بالزمن وكذلك متتبعة آراء المحدثين عن الزمن والتعبير عنه في العربية، بالتطبيق على أحاديث من كتاب صحيح البخاري، شرح أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،الطبعة الأولى، دار ابن الهيثم بالقاهرة.

تبويب البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة. وجاء التقسيم كالآتي:

الفصل الأول : اللغة وعلاقتها بالزمن، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: اللغة تعريفها وطبيعتها.

المبحث الثاني: اللغة والزمن.

الفصل الثاني: اللتحليل الزمني للنص، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: النص مفهومه وزمنه.

المبحث الثاني: الزمن والسياق.

الفصل الثالث: الدراسة التطبيقية، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الزمن الصرفي في الحديث النبوي.

المبحث الثاني: الزمن النحوي في الحديث النبوي.

أما الخاتمة فهي تلخص أهم نتائج البحث.

مصطلحات البحث:

1- الزمن اللغوي ويقصد بـه الـزمن المستفاد من الصـيغ الصـرفية للأفعـال، والقيـود الزمنية ومعاني الأسايب العربية، وكل القرائن السياقية التي تعين على تحديد الدلالـة الزمنية.

2- القسـم الزمنـي ويعنـي الدلالـة الزمنيـة لصـيغة الفعـل مجـردة، ويشـمل الماضـي والحاضر والمستقبل.

3- الجهة وهي ترتبط بالقسم الزمني لصيغة الفعل بعد دخولها في التركيب وإشارتها إلى دلالة زمنية جديدة إضافة إلى الدلالـة الرئيسـة للصـيغة، فقد تكون الجهـة القرب أوالبعد أو الاستمرار.

4- المركبات الزمنية، وهي ناتجة عن كل ما يدخل على صيغة الفعل ويؤثر في دلالة الصيغة الزمنية، مثل الحروف: قد، لم، لن، لا، وأفعال المقاربة، مثل: كاد، والأفعـال الناقصة مثل كان وأخواتها وغيرها.

الدراسات السابقة:

الدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع البحث، تمثلت في الآتي:

أولاً البحوث غير المنشورة:

أ- الزمن النحوي في قصص القرآن الكريم، قدمـه حبيـب مشـخول حسـن لنيـل درجـة الدكتوراة، والذي أجيز في 23 أغسطس 2003م في جامعة البصرة. اتبع البحـث فـي بحثه المنهج الوصفي، وكانت حدوده تناول مصطلح الزمن معجميا ونحويا، وكذلك تناول الزمن النحوي للصيغ الفعلية، موضحا أثر السياق والقرائن في توضيح الزمن النحوي، واستشهد بالكثير من الآيات القرآنية.

ومن أهم نتائجه:

1- يرتبط الزمن النحـوي بسياق القصـة وغرضـها لـذلك يتطلـب تبـادلاً فـي التراكيـب يناسب السياق و يوظف أدواته لذلك الغرض.

2- صيغة (أفعل) صيغة فعلية توظف في السياق لأزمنة مختلفة تناسب سياق القصة.

3- ترد الأدوات النحوية كثيرا للتأكيد، أما الزمن فرهن بالسياق، ولا يمكن ربط أي أداة بزمن معين، فـ(لم مع يفعل) تدل على المستقبل كما تدل على الماضي أحيانا أخر.

هذا البحث يعد من أكثر البحوث التي استفدت منها وذلك لقربه من بحثي في نقاط كثيرة، مثل الحديث عن علاقة الصيغ الفعلية وذكر دلالات الأفعال الزمنية المختلفة معضدة بالشواهد القرآنية، ودور السياق في الكشف عن الزمن، كما اتفقت معه في أهم النتائج المذكورة آنفا، ولكنه مال إلى جانب السرد القصصي وأثره في الزمن كثيرا، فقد أفرد له فصلا كاملا، كما اعتمد في كثير من مراجعه على ما ألف في قصص القرآن وما كتب في التفسير. أما في في بحثي فقد تناولت علاقة الفعل بالزمن وكيفية إلحاق الزمن بالفعل، كما لم أتطرق لتأثير السرد القصصي في الزمن، وعند التحليل اتبعت نظام التشجير وهو أحد نقاط الافتراق المهمة بين بحثي وهذا البحث.

ب- الصيغ الفعلية في القرآن الكريم أصواتا وأبنية ودلالة، قدمته ثريا عبد الله عثمان إدريس، قدمته لدرجة الكتوراة وأجيز في العام 1989م بجامعة أم القرى. واتبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، متناولة الصيغ الفعلية في القرآن الكريم وما يعرض لأدائها في ضوء علم الأصوات والدلالة، مع الوقوف على ظاهرة تعدد الصيغ للفعل الواحد وعلاقة ذلك باختلاف اللهجات.

أظهر نتيجة خلصت إليها الباحثة هي: دل البحث على سعة العلاقة بين صيغ الإلحاق وصيغ التحول الداخلي المحض.

هذا البحث ركز على الجانب الصوتي كثيرا وكانت معظم نتائجه متعلقة بعلم الأصوات والقراءات القرآنية، ولكنه أفادني في حصر صيغ الأفعال وذكر دلالاتها المختلفة، فقد أوردت الباحثة كل صور الماضي والمضارع مع ذكر الدلالات، إلا إنه لم يتطرق إلى الدلالة الزمنية كما في بحثي، وكذلك لم يتناول التحليل الزمني للنص فقد اكتفى بدراسة الصيغ صوتيا وصرفيا، كما التقى مع بحثي في بعض الجوانب الصوتية مثل تقسيم الأصوات إلى صوائت وصوامت وذكر خصائص كل قسم.

ج- بناء الجملة في رسائل النبي صلى الله عليه وسلم- دراسة نحوية، إعداد صالح بن حمد بن محمد الفراج، بحث دكتوراة تم إجازتها في 1423هـ بجامعة أم القرى، كان منهجه هو المنهج الوصفي، أما حدوده الموضوعية فإنه تحدث عن قضية الاستشهاد وبين موقف النحاة منها، ثم انتقل إلى بيان مفهوم الجملة عند النحاة العرب وبسط القول في أقسام الجملة من جملة فعلية واسمية وجملة مثبتة ومنفية وجملة شرطية ومؤكدة مثبتة، وغيرها من تقسيماته الكثيرة، وكذلك تطرق إلى طرق تحليل الجملة عند النحاة العرب.

ومن أبرز نتائجه والجدير بالذكر إنه لم يسمها نتائج ولكنه أطلق عليها ملحوظات كانت أهمها: أن التعبير بالجملة الاسمية أكثر من التعبير بالجملة الفعلية، وأن التعبير بالفعل الماضي أكثر من التعبير بالمضارع والأمر.

كان البحث مفيدا في الوقوف على مفهوم الجملة فقد أورد الباحث معظم تعريفات القدماء للجملة، ولكنه لم يشر إلى الجانب الدلالي ولا إلى صيغ الأفعال وتحولاتها وأثر السياق ودوره في بيان تلك التحولات، وقدَّم كذلك تحليلا بسيطا للجملة العربية إلى مكوناتها الأولية مركزا على الركنين الأساسين المسند والمسند إليه.

د- الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية، كتبها هادي أحمد فرحان الشجيري، بحث دكتوراة، أجيزت في العام 2004م بجامعة بغداد. سلك فيها الباحث المنهج الوصفي التحليلي، ومن أهم ما تناوله في بحثه الحديث عن الصوت والبنية وأثرهما في المعنى، وطرق دلالة اللفظ على المعنى. وأشهر ما وصل إليه من نتائج: العلاقة قوية ومتينة بين علم العربية وعلم الشريعة.

وقد التقيت معه في أهمية البنية الصرفية والنحوية وأثرهما بفي المعنى، ولكنه لم يتناول الزمن، كما ذكر كثيرا من القضايا اللغوية لم أشر إليها في بحثي مثل دلالة الخاص والعام والمترادف والمشترك وغيرها.

هـ النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها في النحو العربي، قدمه أحمد المهدي المنصوري، بحث دكتوراة أجيزت في العام 2002م بجامعة حلب، اتبع فيها الباحث

المنهج الوصفي. والنتيجة البارزة التي توصل إليها هي أن النظرية التوليدية التحويلية لا نستطيع أن نطبقها تطبيقاً كاملاً على النحو العربي. والجزء الذي يهم دراستي هو تناوله لنظرية تشومسكي ومحاولة تطبيقها في النحو العربي، ولكنه تناولها بعمق أكثر، وفي البحث أشرت إلى أنها يمكن أن تصلح لتحليل الجملة العربية خاصة في طورها الثالث. هذه هي رسائل الدكتوراة التي وقفت عليها ولها صلة بموضوع دراستي، أما رسائل الماجستير فمنها:

أ- أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن حجر العسقلاني قدمها أحمد مصطفي أحمد الأسطل، وأجيزت في العام 2002م بجامعة حلب، ومن أهم نتائجه أن للسياق أثر في توجيه الدلالة الزمنية، وهذه هي النقطة التي التقى فيها مع البحث.

ثانياً الكتب:

معظم الكتب القديمة تناولت موضوع الزمن اللغوي، من خلال علاقته بالفعل وأولها الكتاب لسيبويه، وشرح المفصل لابن يعيش، وكتاب الجمل في النحو، وكتاب مغني اللبيب وغيرها. وبالجملة فإن هذه الكتب اتفقت مع البحث في تقسيم الفعل وارتباط هذا التقسيم بأقسام الزمن الماضي، والحال، والمستقبل. كذلك اتفقت مع البحث في أن هناك فرقاً في المعنى بين زمن الفعل المجرد، وبين زمن الفعل المقيد بدخول: قد، كان، كاد، أدوات الشرط، ومنها: إن ودخول حرفي التنفيس السين وسوف على الفعل المضارع وتخليصه للمستقبل.أما مواضع الافتراق بين البحث وهذه الكتب، فهي كثيرة منها: البحث تناول موضوع الزمن بالدراسة المفصلة، وبيَّن العلاقة بين الفعل والزمن، وكيف يعبر الفعل عن الزمن، ولم يقف عند حد القول: بأن (السين)مثلاً تخلص زمن المضارع للمستقبل، ولكن البحث تابع هذه الملاحظات التي أبداها القدماء، من خلال الاستعمال اللغوي، بالتطبيق على الحديث النبوي، الذي وفر المادة الصالحة للدراسة، ووقف على العلاقة القوية بين الزمن اللغوي والسياق الأمر الذي لم تتناوله تلك الكتب بالدراسة المستقلة.

أما الدراسات الحديثة فمنها كتاب:

1- الـزمن واللغـة للـدكتور مالـك يوسـف المطلبـي، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب القـاهرة، 1986م. وتنـاول فيـه مفهـوم الـزمن، والـزمن الصـرفي والـزمن النحـوي والمركبات الزمنية المختلفة، واقترح فيه جدولاً زمنياً للغة العربية، واتفق مع البحث في مفهوم الـزمن، ومفهوم الـزمن الصـرفي والنحـوي، ولكـن البحـث ركـز علـى أن توضيح العلاقة بين الـزمن الصـرفي والنحـوي، وصـعوبة الفصـل بينهمـا، مـن خـلال تحليل مجموعة من الأحاديث النبوية، كذلك تناول البحث دور السياق في الكشف عن الزمن، كما تطرق البحث للعلاقة بين زمن الجملة وزمن النص.

2- اللغـة العربيـة معناهـا ومبناهـا للـدكتور تمـام حسـان، عـالم الكتـب، القـاهرة، ط/5 2006م. وتناول فيه الزمن اللغوي، وركز على الزمن النحوي، وذكر القرائن اللغوية التي تعين علـى تحديد الـزمن، واقتـرح جـدولاً لـزمن العربيـة. التقـى البحـث مـع هذا الكتـاب فـي أن الـزمن النحـوي وظيفـة فـي السـياق، ولكـن البحـث لـم يتنـاول القـرائن الكثيرة التي تناولها تمام حسان، كما أن البحث لم يضع جدولاً لـزمن العربيـة وتنـاول البحث أثر السياق فـي الدلالـة الزمنيـة، والمركبـات الزمنيـة ودلالتهـا، الأمـر الـذي لـم نجده مفصلاً في كتاب اللغة العربية معناها ومبناها.

3- الـنص والخطـاب والإجـراء لروبـرت دي بوجرانـد ترجمـة د.تمـام حسـان، عـالم الكتـب، القـاهرة، الطبعـة الأولـى 1998م. وتنـاول فيـه جوانـب كثيـرة تتعلـق بـالنص اللغوي ومفهوم النص وقارن فيـه بين الـنص والجملـة، وتحـدث عـن التـرابط النصـي بكل أشكاله، ويلتقي مع البحث في الاتفاق على ضرورة علم النص وأهميتـه، إلا أنـه فصَّل كثيراً في قضية النصية والترابط النصي كما لم يقر باستقلالية الجملة ولـو لحـد ما.

4- في النحو العربي نقد وتوجيـه للـدكتور مهـدي المخزومـي ومما تناولـه ولـه صـلة بموضوع البحث، أقسام الفعل، ودلالاته المختلفة، وكان يرى أن القدماء لم يوفقوا في ربـط أقسـام الفعـل بأقسـام الـزمن. واتفقت دراسـتي معـه فـي أن الفعـل لا يفصـح عـن الـزمن بصـيغته وحـدها، إذ لابـد مـن وسـائل أخـرى، ولكـن الدراسـة تـرى أن القـدماء

أصابوا عندما ربطوا أقسام الفعل بأقسام الزمن. ولم يشر المخزومي في كتابه إلى السياق ودوره في بيان الزمن، كما في البحث.

5- كتاب الفعل زمانه وأبنيته للدكتور إبراهيم السامرائي، تناول أقسام الفعل ودلالته الزمنية، وخلص إلى أن الأقدمين لم يطيلوا القول في زمن الفعل، وأن تقسيمات الفعل عندهم تشعر بهذا النقص في مؤلفاتهم، كما أشار إلى المركبات الزمنية إشارة خفيفة، اتفقت معه في ذكر المركبات الزمنية، ولكني تناولتها بتفصيل أكثر، وفي البحث حديث عن السياق، وعن العلاقة بين الزمن الصرفي والنحوي.

6- النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، ومن أهم نقاط الالتقاء بين الكتاب والبحث، الإشارة إلى العلاقة القوية بين النحو والدلالة.

7- اتجاهات التحليل الزمني في الدراسات اللغوية) للدكتور محمد عبد الرحمن الريحاني، واشار فيه إلى تقسيم الفعل عند القدماء، وإلى العلاقة بين الزمن والوقت كما تناول تقسيم الزمن في اللغة الإنجليزية، وقارن بين زمن العربية وزمن الإنجليزية. والتقى مع البحث في ذكر الدلالات الزمنية الصرفية لصيغتي (فعل ويفعل)، وذكر دلالات المركبات الزمنية ولكنه لم يتناول السياق والزمن، كما لم يشر إلى العلاقة القوية بين الزمن الصرفي والنحوي.

8- نسيج النص للدكتور الأزهر الزناد، ويعد دراسة حديثة في علم النص، تناول فيه مفهوم النص، وكيفية بناء النص زمنياُ، وفرق بين نحو النص ونحو الجملة ويلتقي الكتاب مع البحث في أن الزمن النحوي يمكن الوقوف عليه وقوفاً واضحاً داخل النصوص المختلفة، ولكنه في كتابه تجاهل تماماً الزمن الصرفي، كما لم يتحدث عن السياق، وركز على الروابط الزمنية بين الجمل داخل النصوص.

9- الدلالة الزمنية في الجملة العربية للدكتورعلي جابر المنصوري تناول فيه أنواع الزمن ومفهوم كل نوع مركزاً على الزمن اللغوي، وأكد فيه أن الفعل لا يعبر عن الزمن بصيغته فقط، كما تحدث عن (نحو الكلمة) و(نحو الجملة) وذكر أنواعاً كثيرة

للجملة من حيث الإعراب، اتفقت معه في أن الزمن في العربية لا يعبر عنه بالفعل فقط، ولكن البحث لم يتناول التقسيمات الكثيرة للجملة كما في الكتاب المذكور.

10- نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي لأحمد عفيفي، نادى فيه بأهمية نحو النص، وتكلم عن مفهوم النص وروابطه، وموضوعاته، والفرق بينه وبين نحو الجملة، التقي مع في نقاط كثيرة أبرزها تناول العلاقة بين نحو الجملة ونحو النص.

هذه هي أبرز الكتب التي وقفت عليها ولها صلة بموضوع البحث، ومعظمها تناول موضوعات كثيرة ولم يقتصر على الزمن اللغوي وحده، ونقطة الافتراق الجوهرية بينها وبين البحث أن معظمها لم يتناول النص والعلاقة بينه وبين الجملة، وكيفية تحليل النص الأمر الذي انفرد به البحث.

المبحث الأول

اللغة تعريفها وطبيعتها

اللغة من أخطر الظواهر الاجتماعية الإنسانية، وهي مرتبطة بكل نواحي الحياة الإنسانية فالتقدم الاجتماعي بكل ضروبه يتوقف على اللغة وكذلك التطور الاقتصادي من أبرز مقوماته اللغة التي تتجلى أهميتها في أنها تمثل لهذين الجانبين الاجتماعي والاقتصادي الأداة الأولى في تنسيق الجهود وتنظيم العلاقات الفردية والجماعية.

وتشكل اللغة جسراً تاريخياً متيناً يربط الأجيال ببعضها رغم اختلاف الأمكنة وتباعد الأزمنة لأنها الوعاء الذي يحفظ التجارب والعادات والتقاليد التي تتوارثها الأجيال.و تعد سلاحاً من أقوى الأسلحة النفسية في السيطرة على الآراء والأفكار وتوجيه الأتباع والمؤيدين[1]، وبث الدعاية والإعلان خاصة في هذا العصر، ولا يخفى علينا كذلك الدور السياسي الكبير الذي تؤديه اللغة في كل بلدان العالم، فاللغة باختصار هي الحياة. فإذا كانت اللغة بهذا الخطر وهذا التأثير في الإنسان فهي جديرة بالدراسة والوقوف على تعريفها وطبيعتها والمحافظة عليها.

وردت تعريفات كثيرة للغة، وذلك لكثرة العلماء الذين عرفوا اللغة ولاختلاف نظرتهم إليها بحسب التخصص، ولأن التعريفات الكثيرة تمدنا بمادة ثرة تمكننا من استخلاص طبيعة اللغة من تلك التعريفات.

قال ابن منظور في (اللسان) في مادة (لغا): "اللغو واللّغا السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يُحصل منه على فا ئدة"[2]. وقال ابن فارس في (المقاييس) في مادة (لغو): "اللام والغين والحرف المعتل أصلان صحيحان أحدهما يدل على الشيء لا يعتد به والآخر على اللهج بالشيء، فالأول اللغو: ما لا يعتد به من أولاد الإبل في الدية يقال:منه لغا يلغو لغواً وذلك في لغو الأيمان، واللغا هو اللغو بعينه والثاني

---

[1] د. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990م، ص1.

[2] جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/1، 1990م، مادة (لغو)، ج15،ص250.

قولهم: لغى بالأمر إذا لهج به ويقال: إن اشتقاق اللغة منه أي يلهج صاحبها بها"[1].

والذي يمكن قوله من التعريفين أن مادة (لغا) أو (لغو) تعني تكلم بكلام غير مفيد.

ووردت كلمة (اللغو) في القرآن الكريم بمعنى الساقط من الكلام في تفسير قوله تعالى: (الغوا فيه) قال الضحاك: عن ابن عباس (والغو فيه) عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه[2]. وورد مثل هذا في (الكشاف) إذ أشار الزمخشري إلى اللغو من الآية المذكورة بمعنى الساقط من الكلام[3].

وكذلك ذكرت كلمة (اللغو) في القرآن في سورة المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[4] قال ابن عباس: أي عن الباطل[5].

تفسير (اللغو) في القرآن الكريم يشير إلى ما لا فائدة فيه من القول والاعتقاد وواضح أن هناك اتفاقاً بين أصحاب المعاجم والمفسرين حول معنى كلمة (اللغو) التي هي أصل اللغة، وأن كلمة (لغة)لم تكن تعني قديماً ما تدل عليه الآن، والقرآن الكريم نفسه لم يذكر كلمة (لغة). ولكن وجدت بجانب كلمة (اللغو) كلمة (اللسان) بمعنى اللغة، قال ابن منظور: "... واللغة اللسن"[6]. وقال الجوهري:"اللسن بكسر اللام اللغة"[7]

وجاءت كلمة (اللسان)في القرآن كثيراً منه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[8].

ذكر الزمخشري: "بلسان قومه أي بلغة قومه"[9]، وكذلك في تفسير القرطبي:" بلسان بلغة"[10].أورد القرآن كلمة (اللسان) بمعنى اللغة والصلة بين اللغة المنطوقة واللسان عضو النطق الرئيس صلة قوية وواضحة.

---

[1] أبو الحسين أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/2، 2008م، مادة (لغو)،ج6 ص193.

[2] أبو الفداء اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة المختار، القاهرة، ط/3، ج4، ص764.

[3] أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله، الكشاف، ج9،ص 435.

[4] سورة المؤمنون الآية 3.

[5] ابن كثير، مرجع سابق ج6، ص678.

[6] ابن منظور، مرجع سابق ج15، ص250.

[7] اسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، القاهرة، ط/1، 1956م، ج6، ص1295.

[8] سورة إبراهيم الآية 4.

[9] الزمخشري، مرجع سابق ج2، ص420.

[10] أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط/2، 1935م،ج7، ص623.

كما جاءت كلمة (اللغة) بمعنى اللهجة في الكتب القديمة ومنها (كتاب سيبويه) جاء فيه: " وتقول إذا كان غدٌ فإنني، وإذا كان يوم الجمعة فالقني،... وإن شئت قلت إذا كان غداً فإنني، وهي لغة بني تميم"[1]والظاهر من كلامه أنه يعني باللغة اللهجة. وأشار ابن السِّكِيت:" ويقال الصُرع لغة قيس والصَرع لغة تميم"[2]. واستمرت كلمة (اللغة) بمعنى اللهجة مدة من الزمن عند القدماء، يقول ابن دريد: " واشتقاق مسطح من شيئين أما من عمود الخباء الذي يلي السطاح والجمع مساطح أو من السطح وهو مربد التمر بلغة أهل نجد"[3].

تشير النصوص المنقولة إلى أن كلمة (اللغة) كانت تستخدم بمعنى القول الساقط أو اللسان أو اللهجة، ولا يوجد في تلك النصوص ما يومئ إلى حد اللغة كما هو اليوم.

ولا يظنن ظان أن القدماء لم تكن لهم مباحث لغوية تتناول تعريف اللغة بل لهم مجهودات كبيرة في الدرس اللغوي، نذكر بعض تعريفاتهم للغة من ذلك، قال الإسنوي في شرح منهاج الأصول: "حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى"[4]. وقال ابن الحاجب:" اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني"[5]. اللغة عند الإسنوي وابن الحاجب ألفاظ وضعت للمعنى، وأحسب أن هذا التعريف لا يبين حقيقة اللغة لأنه قصرها في الألفاظ كما لم يوضح كيفية دلالة اللفظ على المعنى، ولكن التعريف أشار من بعيد إلى وظيفة اللغة المتمثلة في التعبير عن المعاني.

ومن التعريفات القديمة الجديدة والمفيدة في الدرس اللغوي تعريف ابن جني في الخصائص في باب (القول على اللغة وماهي): " أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم هذا حدها، وأما اختلافها فلما سنذكره في باب القول عليها أمواضعة هي أم إلهام وأما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها (فُعْلة) من لغوت أي

---

(1) أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، الكتاب، المطبعة الأميرية، بولاق، ط/1، 1881م،ج1، ص114.
(2) أبو يوسف يعقوب بن اسحق السكيت، إصلاح المنطق، تحقيق عبد السلام محمد هرون، دار المعارف، القاهرة، ط/4، ص34.
(3) أبوبكر محمد بن الحسين بن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير، دار العلم للملايين، ط/1، 1997م، ج6، ص567.
(4) د.التهامي الراجي الهاشمي، توطئة لدراسة علم اللغة التعاريف، دار آفاق عربية، بغداد، ط/1، 1976م، ص25.
(5) نفسه، ص57.

تكلمت. وأصلها لغوة ككرة وقلة وثبة كلها لاماتها واوات. لقولهم كروت بالكرة وقلوت بالقلة... "[1].

علّق حجازي على تعريف ابن جني ذاكراً: " هذا التعريف يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة، ويتفق مع كثير من التعريفات الحديثة للغة، فهو يوضح الطبيعة الصوتية للغة،... وهو بهذا يستبعد الخطأ الشائع الذي يتوهم أن اللغة في جوهرها ظاهرة مكتوبة، ويوضح تعريق ابن جني طبيعة اللغة من جانب ووظيفتها من الجانب الآخر"[2]. في هذا التعريف بيان لمادة اللغة ووظيفتها وارتباطها بالمجتمع.

وفي العصر الحديث وجدت اللغة اهتماماً كبيراً بسبب التطور العلمي والمنهجي لذلك كثرت تعريفاتها، يقول همبولت الألماني: "إن اللغة جهاز عضوي، ويجب أن يعالج على هذا الأساس ولذا فإن اللغة اعتماداً على هذا التعريف نظام عضوي وبنية وصورة باطنية مخالفة للصورة الظاهرية للكلام"[3].هذا التعريف شبه اللغة بالكائن الحي أو بعضو منه يقوم على نظام دقيق، كما أومأ إلى علاقة اللغة بالفكر.

وعرفها أنطوان مييه: " إن اللغة حدث اجتماعي بالدرجة الأولى"[4]. كأنه قال: إن اللغة ليس لها وجود خارج المجتمع الذي يتكلمها. ويقول وتني:" إنها ليست قوة من قوة النفس ولا هي من فعل الفكر بل هي أثر غير مباشر لهذا الفكر"[5]. التعريف يربط بين اللغة والفكر محاولاً تحديد تلك العلاقة. وصرح دي سوسير: " إن اللغة وهي ما هي فمن أين نظرنا إليها لن نجد فيها بسيطاً، إذ دائماً وفي كل مكان ترى هذا التوازن المعقد للألفاظ المتحاكمة، فاللغة صيغة وليست جوهر"[6]. يشير سوسير إلى أن اللغة نظام معقد، وأنها دائماً في حركة وتطور.

---

(1) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 2001م،ج1، ص15.
(2) د.محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، ط/2، 1978، ص10.
(3) نقلاً عن: د. التهامي الراجي الهاشمي، توطئة لدراسة علم اللغة التعاريف، ص43.
(4) نفسه، ص46.
(5) نفسه، ص49.
(6) نفسه ص49.

ورأى مولر:"إنها استعمال رموز مقطعية يعبر بمقتضاها عن الفكر"[1].في هذا التعريف ذكر مولر جانباً يتعلق بمادة اللغة نفسها وهي رموز مقطعية، وجانباً وظيفياً مربوطاً بالتعبير. وقال كارول:"إنها ذلك النظام المتشكل من الأصوات اللفظية الاتفاقية وتتابعات هذه الأصوات التي تستخدم أو يمكن أن تستخدم في الاتصال المتبادل بين جماعات من الناس والتي تصف بشكل عام الأشياء والأصوات والعمليات في البيئة الإنسانية"[2]. حصركارول اللغة في الأصوات وأضاف الجزء المتعلق بالتعبير وأطلق عليه الاتصال.

وأورد مورس: "إن اللغة هي مجموعة من العلامات ذات دلالة جمعية مشتركة ممكنة النطق بين أفراد المجتمع المتكلم بها كافة، وهي ذات ثبات نسبي في كل موقف تظهر فيه ويكون نظاماً محدداً تتألف بموجبه حسب أصول معينة و تركيب معين وذلك التركيب علامات أكثر تعقيداً وهذه العلامات تستثير الشيء بالرمز له في العقل الذي يعلم دلالته"[3].

وقيل "إنها نظام من الرموز الاعتباطية يتم بواستطها التعارف بين أفراد المجتمع تخضع هذه الأصوات للوصف من حيث المخارج والحركات التي يقوم بها والنطق ومن حيث الصفات والظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الظاهرة النطقية"[4]. هذا التعريف جعل اللغة نظاما من الرموز والأصوات التي تحكمها قواعد محددة كما ذكر وظيفة اللغة وهي إقامة التعارف بين الناس.

وكذلك أشير إلى: "اللغة نظام من العلامات المتواضع عليها اعتباطاً والتي تتسم بقبولها للتجزئة ويتخذها الفرد عادة وسيلة للتعبير عن أغراضه ولتحقيق الاتصال بالآخرين ويتم ذلك بوساطة الكلام والكتابة"[5]. هذا التعريف أضاف إلى التعريف قبله أن هذا النظام من العلامات قابل للتجزئة.

من خلال المادة المعروضة يتضح أنه من العسير وضْع تعريفٍ شاملٍ للغة وذلك بسبب الصلة الوثيقة بين اللغة والعلوم الأخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها.

---

(1) نقلاً عن: محمود أحمد السيد، اللغة تدريساً وكتابة، دار الفيصل الثقافية، السعودية،ط/1، 1998م، ص11.
(2) محمود أحمد السيد، مرجع سابق، ص12.
(3) نفسه، ص14.
(4) د. خليل أحمد عمايرة، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، ط/1، 1987م، ص177.
(5) د. محمود أحمد يونس، تعريف اللغة وخصائصها، دار الشروق، القاهرة، ط/1، 1993م، ص21.

ولكننا نحاول أن نستخلص من تلك التعريفات وصفا دقيقا للغة ووظائفها، أجمعت تلك التعريفات على الآتي:

1- اللغة أصوات أو رموز وعلامات.

2- اللغة نظام تحكمه ضوابط صارمة.

3- اللغة مكتسبة وليست موروثة.

4- اللغة مرتبطة بالمجتمع الإنساني.

5- اللغة متطورة وليست جامدة.

6- اللغة لها صلة بالفكروالنفس.

7- وظيفة اللغة الأولى هي الاتصال.

وسنناقش هذه النقاط السبع لنكشف عن جزء من طبيعة اللغة:

أولاً: كلمة (أصوات) الواردة في تعريف اللغة المراد بها الأصوات اللغوية، ويعرف الصوت اللغوي بأنه أثر سمعي يصدر طواعية واختياراً من تلك الأعضاء المسماة تجاوزاً أعضاء النطق[1]. كما يعرف بأنه الأثر الواقع على الأذن من الحركات الذبذبية للهواء التي تحدث بوساطة الجهاز الصوتي للمتكلم[2].

يشير هذا التعريف إلى أن الحدث الكلامي له ثلاثة عناصر متصلة لايمكن فصلها عن بعض وهي مصدر الصوت، والوسيط الناقل للصوت، ومستقبِل الصوت. والصوت اللغوي يشمل الحرف، قال الرازي في تعريفه للحرف: " والحروف إنما هي أصوات تحدث في الحلقوم واللسان والشفتين عند خروج النفس من الرئة"[3]. ومما ورد في التفريق بين الصوت والحرف: الحرف يشتمل على معنى وهو وحدة بنائية في الكلام ورمز كتابي للصوت اللغوي، فصوت الراء في العربية مثلاً يعني حرف الراء[4].

---

(1) د. كمال محمد بشر، علم اللغة العام- الأصوات، دار المعارف، مصر، ط/2، 1971م، ص64.

(2) جوزيف فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية،1950م، ص43.

(3) د.محمد يحيى سالم الجبوري، مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 2006م، ص17.

(4) د. كمال بشر، مرجع سابق، ص59.

ونص ماريو باي على أن: " الأصوات الصادرة من جهاز النطق يجب أن تكون ذات معنى ليكون الصوت لغوياً وينقل رسالة محددة"[1]. قوله (يجب أن تكون ذات معنى) يحدد بدقة الأصوات المعنية بالدراسة وهي الأصوات اللغوية التي تحمل معاني محددة، وبالتالي فإن هذا الوصف للغة بأنها (أصوات) ينطبق على جميع اللغات البشرية، ويبين جانباً كبيراً من طبيعة اللغة، لأن هذه الأصوات المكونة للغات يمكن وصفها ومعرفة عددها ومخارجها وكيفية انتاجها في الجهاز الصوتي والقوانين الصوتية التي تحكمها، ولكننا سنتناول وصفاً عاماً للبنية الصوتية في اللغة بهدف الوقوف على جانب من طبيعة تلك البنية الصوتية، والتي تتكون في كل اللغات من الأصوات بقسميها الصوائت والصوامت مشتملة على المخارج والصفات التي تلازم هذه الأصوات، والمقاطع الصوتية والنبر والتنغيم.

قسم العلماء الأصوات اللغوية إلى قسمين هما: أصوات اللين وهي الحركات وتعرف بالصوائت وفي العربية سماها الخليل بن أحمد الفراهيدي بالأحرف الهوائية[2] وأطلق عليها ابن جني الحروف المصوتة[3]. والأصوات الساكنة وهي الحروف وتعرف بالصوامت، وهذا التقسيم يرجع إلى طبيعة الأصوات اللغوية وخواصها[4]. كما أن هناك عاملان ينبني عليهما هذا التقسيم هما: تذبذب الوترين الصوتيين عند النطق وعدمه، وكيفية مرور الهواء من الحلق والفم والأنف[5]. وقد أشار كمال بشر إلى وجود عامل ثالث للتفريق بين أنواع الحركات وهو وضع الشفاه وأشكالها المختلفة[6].

من هذا التقسيم يمكن القول بأن الصوائت هي الأصوات المجهورة التي يندفع فيها الهواء من الرئة إلى الفم خلال الحلق دون أن يعيقه عائق كلياً أو جزئياً، أما

---

(1) ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط/8، 2010م، ص 28.
(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الحرمين للطباعة،ج1،ص75 .
(3) ابن جني، مرجع سابق، ج/3، ص124.
(4) د.كمال بشر، مرجع سابق، ص73.
(5) عصام نور الدين،علم الأصوات اللغوية، السلسلة الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط/1992،1م، ص 195.
(6) د.كمال بشر، مرجع سابق ص73.

الصوامت فهي الأصوات المجهورة أو المهموسة التي يحدث لها اعتراض جزئي في مجرى الهواء يعمل على منع الهواء من الانطلاق دون احتكاك مسموع[1].

ويمكن القول كذلك أن هذا التقسيم ينطبق على معظم اللغات، ومن ثم فإن هذا التقسيم يكشف عن خصائص وصفات صوتية مشتركة بين معظم اللغات فالاحتكاك والانفجار صفتان تلازمان الكثير من الأصوات في كثير من اللغات، والصوائت تتميز عن الصوامت بميزات عامة تجعلها من الصعوبة بمكان على متعلم اللغة الأجنبية أن يجيدها[2].

ومن أهم مميزات الصوائت الوضوح التام عند النطق بحيث تسمع بكل صفاتها بخلاف الأصوات الصامتة التي تبدو خافتة وقد تثقل على السمع[3]، وشيوعها في اللغات المختلفة الأمر الذي يؤدي إلى تغيير نطقها أو الخطأ فيه، يقول أنيس: "إنه لا تكاد تشترك لغة من اللغات مع أخرى في كيفية النطق بأصوات اللين، ولهجات اللغة الواحدة تختلف فيها اختلافاً يميز كل لهجة من هذه اللهجات"[4]. ومما يميز الصوائت ترددها في الكلام بنسبة كبيرة وهذا يجعل الخطأ فيها بارزاً [5].

تؤكد هذه الميزات أن النظام الصوتي للغة نظام دقيق ومتناسق في كل اللغات وأن هناك نقاطا تشترك فيها اللغات وأخرى تختلف فيها الأمر الذي يؤدي إلى احتفاظ كل لغة بخصوصيتها وشخصيتها في نظامها الصوتي وبالتالي لا يحدث بين اللغات اقتراض أو تبادل صوتي بسهولة وسرعة كما يحدث في تبادل المفردات.

ومن غير شك أن للأصوات تأثيراً على المعاني وبالتالي دراسة الصوت ومعرفة طبيعته وصفته مهمة في الأداء اللغوي، وخير شاهد ننقله لبيان ارتباط الصوت بالمعنى ما جاء في كتاب (موسيقى الشعر) فقد ورد فيه:"الكلمات أنغام وشعور وارتباطات... وتأثيرها إنما يقوم على ما فيها من صوت ومعنى، فهي مبنية بناءاً

---

(1) د.محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقائ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط/2، 1997م، ص124.
(2) د.إبراهيم أنيس ،الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، ط/4، 1979م، ص 29.
(3) د.أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط/2، 1981م، ص88.
(4) إبراهيم أنيس، مرجع سابق ، ص29.
(5) نفسه، ص30.

مزدوجاً، إنها أصوات تعتبر رموزاً للمعاني وهي أيضاً رموزاً للمعاني تعتبر أصواتاً"[1].

لقد أدى الجانب الصوتي دوراً كبيراً في إضفاء الدلالة على الكلمات، حيث نظر النقاد المحدثون إلى بناء الكلمات كأصوات أكثر منها كمعاني، ورأوا أن التكثيف الذي يلمسه المتلقي في أي قصيدة أصيلة إنما هو حصيلة لبناء الأصوات، ومن هنا كان حكمهم بأن الشعر ينقل قبل أن يفهم[2]. يؤثرالاختيار الجيد للأصوات في الآذان وبالتالي وجَّه الأدباء عنايتهم إلى اختيار الأصوات التي تتلاءم وخطابهم الأدبي.

ومن مكونات البنية الصوتية للغات المقاطع الصوتية، وإذا كان الصوت اللغوي يمثل العنصر الأول في تشكيل اللغة، وذلك بضم الأصوات بعضها إلى بعض بشكل منتظم حتى تتألف الكلمات التي تشكل الوحدات الدلالية، ومن ثم ترتبط هذه الكلمات عبر نظام النحو لتكون اللغة ولكن تبقى هناك ثمة مرحلة بين الصوت والكلمة فإذا كان الصوت يمثل المرحلة الأولى في تكوين اللغة فإن المقطع يأتي في المرحلة الثانية متوسطاً بين الصوت والكلمة[3].

المقطع في اللغة هو الآخر أو الخاتمة، ومقطع كل شيء آخره حيث ينقطع كماقطع الرمل والأودية الحرة[4].

أما المعنى الاصطلاحي للمقطع فقد عرفه أحمد مختار عمر بأنه: "تتابع من الأصوات الكلامية له حد أعلى أو قيمة اسماع طبيعية – بغض النظر عن العوامل الأخرى مثل النبر والنغم الصوتي- تقع بين حدين أدنيين من الاسماع"[5].

أما رمضان عبد التواب فعرف المقطع بأنه كمية من الأصوات تحتوي على حركة واحدة يمكن الابتداء بها والوقوف عليها[6] وعرفه عباينة بقوله: مجموعة من الأصوات التي تمثل قواعد صوتية مكونة من أصوات صامتة تتلوها قمة مكونة من

---

(1) د.إبراهيم أنيس،موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط/7، 1997م، ص 43.

(2) عبد الخالق العف، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر، مطبوعات وزارة الثقافة، السلطة الفلسطينية، ط/1، 2000م، ص253.

(3) د.يحيى عباينة، دراسات في فقه اللغة، دار الشروق، عمان، ط/1، 2000م، ص 13.

(4) ابن منظور، مرجع سابق ج/8، ص278.

(5) د.أحمد مختار عمر، مرجع سابق ، ص 241

(6) د.رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/2، 1985م، ص 101.

أصوات العلة[1]، وقد قسم إبراهيم أنيس المقاطع الصوتية إلى قسمين أحدهما متحرك وهو الذي ينتهي بصائت والآخر ساكن وهو الذي ينتهي بصامت[2]. كما قسم أحمد مختار عمر الأصوات في المقاطع إلى قسمين: القسم الأول يشمل الأقسام المقطعية والتي تمثل مركز القمة في المقطع، والقسم الثاني الأصوات غير المقطعية وهي التي تكون مهمشة وتمثل مركز الحاشية في المقطع[3].

يتضح مما سبق أن الصوت لا يمكن وصفه بالمقطعي أو غير المقطعي إلا من خلال وضعه في سياق معين، ولذلك أن هذه الصفة لا تكون ملازمة للصوت وإنما تنشأ عن مقارنته بما يصاحبه من أصوات، وهذا القول ينطبق على معظم اللغات، ولكن اللغة العربية تختلف كما يرى أحمد مختار عمر إذ يمكن تحديد الصوت المقطعي وغير المقطعي دون السياق[4].

وتتكون الكلمة من مقطع واحد أو مقاطع عدة وثيقة الاتصال والانسجام حيث يصعب فصلها أثناء النطق بل تبقى مميزة في السمع، ويساعدها على هذا التمييز استقلالها في المعنى الذي تحمله في لغتها[5]. هذا يعني أنه لا توجد لغة بها كلمة تحوي أقل من مقطع واحد كما تختلف عدد المقاطع التي تتكون منها الكلمات تبعاً لاختلاف اللغة، فإن كل لغة من لغات العالم تتميز بنظام مقطعي خاص يتشكل وفقاً لقوانينها الصوتية.

وللمقطع الصوتي أهمية كبيرة في اللغة وذلك من خلال الحيوية التي يمنحها المقطع للفونيمات لأن نطق الفونيمات وصفاتها وخصائصها وكيفية انتظامها تعتمد على طبيعة المقطع وتشكيلاته كما أن للمقاطع الصوتية دوراً في تلوين الخطاب بألوان مختلفة باختلاف أنظمتها من حيث التكرار والتجانس والايقاع، وتحديد المقاطع الصوتية لكل لغة يتناسب وبنيتها الصوتية من حيث عدد أصواتها وصفاتها وخصائصها وطريقة أهلها في التلفظ بها.

---

(1) د.يحيى عباينة، مرجع سابق ، ص 15.
(2) د.إبراهيم أنيس، مرجع سابق ص 131.
(3) د.أحمد مختار عمر، مرجع سابق ، ص 248.
(4) المرجع السابق، ص250.
(5) د.إبراهيم أنيس، مرجع سابق، ص 123.

يقول أحمد مختار عمر:"إن المقطع لم يعد ظاهرة صوتية لا حدود لها وبات من المؤكد أن تجميع الفونيمات في مقاطع مجرد اصطلاح دون تحقيق موضوعي اعتقاد خاطئ لا أساس له من الصحة"[1].

وكذلك من مكونات البنية الصوتية للغة النبر، والنبر لغة هو الهمز ونبر الحرف همزه، والنبر هو ارتفاع الصوت[2].أما اصطلاحاً فهو الضغط على موضع معين من الكلمة ليصبح أوضح في النطق من غيره لدى السامع[3].

ويحدث النبر نتيجة لنشاط جميع أعضاء النطق في وقت واحد، إذ تنشط الرئتان نشاطاً كبيراً كما تقوى حركات الوترين الصوتيين إذ يقتربان من بعضهما ليتسرب بذلك أقل قدر ممكن من الهواء، فتعظم لذلك نسبة الذبذبات وبالتالي يصبح الصوت عالياً واضحاً ومميزاً عن باقي أصوات الكلمة، هذا في حالة الأصوات المجهورة أما في حالة الأصوات المهموسة فيبتعد الوتران بصورة أكبر من ابتعادهما مع الصوت المهموس غير المنبور، وذلك ليتسرب مقدار أكبر من الهواء، ولا يقتصر النشاط عند النبر على الرئتين وإنما يحدث النشاط في باقي أعضاء النطق كأقصى الحنك واللسان والشفتين[4].

لذلك عرَّف أحمد مختار عمر النبر قائلاً :" نشاط ذاتي للمتكلم ينتج عنه نوع من البروز لأحد الأصوات أو المقاطع بالنسبة لما يحيط به"[5]. إذن النبر هو ضغط المتكلم على حرف معين من الكلمة، أو هو وضوح نسبي للحرف إذا قورن بغيره من الحروف المجاورة، وعند الحديث عن النبر نتناول أثره في دلالة الكلمة. ففي العربية لا يؤثر النبر في الدلالة ولكن النبر الخاطئ قد يؤدي إلى تشويه اللفظ بما يخرجه من طبيعة العربية[6].

وبما أن اللغة العربية ليست لغة نبرية أي أنها لا تفرق بين معاني المفردات بالنبر، فإن أصحاب المعاجم القديمة لم يهتموا ببيان موضع النبر في الكلمة. يقول

---

(1) د.أحمد مختار عمر، مرجع سابق ، ص 238.
(2) ابن منظور، مرجع سابق ،ج/13، ص348.
(3) د.أحمد مختار عمر، مرجع سابق ، ص261.
(4) د.إبراهيم أنيس، مرجع سابق، ص138.
(5) د.أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص188.
(6) د.يوسف الخليفة أبوبكر، أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها، دار المركز الأفريقي الإسلامي للطباعة، ط/2، ص29.

أحمد مختار: "ولما كان النبر في اللغة الفصحى لا يؤدي انتقاله من مقطع إلى مقطع إلى تغير المعنى فإننا نجد المعجميين العرب يهملون بيان موقع النبر في الكلمة..."[1].

وفي بعض اللغات يؤدي النبر دوراً دلالياً كما في الإنجليزية، إذ تتغير دلالة الكلمة باختلاف موقع النبر، فكلمة (august) الإنجليزية تعني شهر أغسطس أو اسم شخص إذا نبر المقطع الأول منها، وتعني مهيب أو جليل إذا نبر المقطع الثاني منها[2].وأخيراً النبر سمة صوتية موجودة في معظم اللغات، ولكن الاختلاف يكون في أثره الدلالي وفي موضعه ففي اللغة التشيكية النبر له قاعدة ثابتة إذ ينبر أصحابها بداية كل كلمة، وكذلك في الفرنسية النبر ثابت ولكنه في آخر الكلمات[3].

ومن المكونات المهمة في البنية الصوتية التنغيم، وفي معنى التنغيم قال ابن منظور في اللسان: "إن النغمة جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة، والنغم الكلام الخفي والنغمة الكلام الحسن"[4].أما اصطلاحاً فهو ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام[5]، وعرَّفه محمود السعران بأنه المصطلح الدال على الارتفاع والانخفاض في درجة الجهر في الكلام[6]، وأسماه إبراهيم أنيس موسيقى الكلام[7]. ويحدث التنغيم نتيجة للتغيير في ذبذبة الوترين الصوتيين أثناء الكلام وهو موجود في معظم اللغات.

أما عن أهمية التنغيم فكل كتب الأصوات أجمعت على دوره الدلالي، يقول السعران:" إن التغيرات الموسيقية في الكلام التي ندعوها التنغيم تستعملها اللغات المختلفة استعمالات مختلفة فعن طريق هذه التغيرات يتوصل كثير من اللغات إلى التعبير عن الحالات النفسية المختلفة وعن المشاعر والانفعالات...))[8].

وعلى الرغم من إجماع علماء اللغة على وجود وظيفة دلالية للتنغيم إلا أنهم أيقنوا أن هذه الوظيفة تختلف من لغة إلى أخرى، ولعل الصينية هي أكثر اللغات تأثراً بالتنغيم

---

(1) د.أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط/2، 1988م، ص166.
(2) د.إبراهيم أنيس، مرجع سابق، ص144.
(3) د. نفسه، ص139.
(4) ابن منظور، مرجع سابق، ج/16، ص345.
(5) د.تمام حسان، مرجع سابق، ص 164.
(6) د.محمود السعران، مرجع سابق، ص159.
(7) د.إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط/5، 1985م ، ص47.
(8) د.محمود السعران، مرجع سابق، ص1260.

من حيث الدلالة إذ تعد درجة الصوتونغمته جزءاً متأصلاً من الكلمة وقيمته الفونيمية تعادل أصوات العلل أو أصوات السواكن[1].

هذا الوصف المختصر للبنية الصوتية للغة يوضح جانباً كبيراً من طبيعة اللغة متمثلاً في خواص مكونات البنية الصوتية للغة، تلك البنية التي تعد المكوِّن الأول للغة و تشكل لفظٌ صوتياً دقيقاً يعد جزءاً أصيلاً من نظام اللغة العام.

وكما ورد أن اللغة بجانب كونها أصوات هي رموز وعلامات وسنحاول أن نقف على العلاقة بين الرمز والعلامة والصوت.

ورد في المعاجم مادة (رمز) تدل على الحركة والاضطراب[2]. وفي الاصطلاح عُرِّف الرمز بأنه مثير بديل يستدعي لنفسه الاستجابة نفسها التي قد يستدعيها شيء آخر عند حضوره، ولذلك قيل إن الكلمات رموز لأنها تمثل شيئاً غير نفسها[3].

وفي الحديث عن موضوع علم الدلالة قال أحمد مختار:" موضوع علم الدلالة أي شيء يقوم بدور العلامة أو الرمز، وهذه العلامات أو الرموز قد تكون علامات على الطريق وقد تكون إشارة باليد أو إيماءة بالرأس كما قد تكون كلمات أو جملاً، ومن أمثلة الرمز حمرة الوجه الدالة على الخجل والتصفيق علامة الاستحسان وعلامات الترقيم..."[4]. نلاحظ على هذا القول الآتي:

أ- إنه جمع بين الرمز والعلامة.

ب- العلامات والرموز كثيرة منها اللغوي وغير اللغوي.

ج- العلامات والرموز لابد أن يكون لها معانٍ تدل عليها.

د- جعل الكلمات والجمل علامات ورموزاً.

وهناك رموز غير لغوية مثل صوت الجرس، ورموز لغوية مثل الأصوات اللغوية والجمل والكلمات وهي المعنية بالدراسة والكشف عن طبيعتها. ومن العلماء من جعل الرموز علماً قائماً بذاته وعرفه بأنه هو الدراسة العلمية للرموز اللغوية يقول دي

---

(1) ماريو باي، مرجع سابق، ص 92.

(2) أبو الحسين أحمد بن فارس، مرجع سابق، ج/2، ص323.

(3) د.أحمد مختار عمر،علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط/6، 1988م،، ص9.

(4) نفسه ص14.

سوسير:"وعلم الرموز هو العلم الذي يدرس الرموز بصفة عامة ويعد علم اللغة أحد فروعه"[1].

وهذا العلم يختص بدراسة كيفية استخدام الرموز والعلامات كوسائل اتصال في اللغة، ودراسة العلاقة بين الرمز ومايدل عليه، ودراسة العلاقة بين الرموز نفسها.

بناءً على ما تقدم فإن علم الرموز يضم فروعاً كثيرة من بينها الأصوات اللغوية والتي نميل إلى أنها رموز لها صفاتها وخصائصها وشروطها المتعارف عليها عند أهل اللغة المعنية وأن الانسان يتميز عن الحيوان بالقدرة على الرمز أي أن يجعل الشيء رمزاً دالاً على شيء آخر فليس هناك نشاط إنساني ليس فيه رمز، فالعلوم والفنون والدين وكافة الحياة الاجتماعية في ترابطها قائمة على الرموز.

أما العلامة في اللغة فهي أثر بالشيء تميز به عن غيره[2]. وعليه فاللغةنظاماً علامياً مميزاً من بين الأنظمة العلامية الأخرى، فهي تختلف عن لغات الحيوانات ولغات الإشارة الجسمية ولغة الصم والبكم ولغة المرور، وتختلف كذلك عن العلامات الأخرى مثل وجود الرماد علامة دالة على وجود نار سابقة.

اللغة علامات لها ميزات وشروط خاصة بها تميزها عن غيرها من العلامات وهذا لا يتعارض مع كونها رموزا وأصواتا.

ثانياً اللغة نظام: كلمة (نظام) في اللغة تعني تأليف شيء وتأنيقه، ونظمت الخرز نظماً ونظمت الشعر وغيره، والنظام الخيط يجمع الخرز[3].

إذن الشيء المنظم هو الذي تم وضعه بترتيب خاص وفق شروط خاصة ثابتة. والمقصود بالقول إن اللغة نظام أي أنها تخضع للتأليف المحكم الدقيق بين الأصوات وخواصها وكيفية تكوين الكلمات والجمل عبر القوانين الصرفية والنحوية وعلاقة كل هذا بالمعنى. فاللغة نظام غاية في التعقيد لكن الفرد يتكلم بلغته الأم ولا يفطن إلى

---

[1] فرديناند دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة د. بوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، ط/1، 1985م، ص 29.
[2] أبو الحسين أحمد بن فارس، مرجع سابق، ج/4، ص87.
[3] نفسه ج/4، ص366.

ذلك التعقيد فهي عنده عادة مثل قيادة السيارة أو الدراحة يقوم بها بشكل آلي فتؤدي الغرض منها بشكل طوعي وسريع[1].

ولكن عالم اللغة ما أن يبدأ في وصف اللغة حتى يجد نفسه أمام نظام غاية في التعقيد يتألف بطرق معينة من أنظمة أخرى كل منها لا يقل تعقيداً عن الآخر، وقد يجد نفسه محتاجاً إلى عون كثير أو قليل من العلماء منهم من يعمل في تحليل الأصوات البشرية، وآخر يختص بعلم النفس وثالث بعلم الاجتماع، ورابع بعلم الأجناس البشرية.

يبين القول أعلاه أن اللغة نظام عام يتكون من عدة أنظمة، هي النظام الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، وحين تسمى أفكارمرتبة ترتيباً معيناً نظاماً فلابد أن تكون بينها علاقات عضوية معينة، وكذلك أوجه خلاف بين كل واحدة منها وبين الأخرى بحيث تؤدي كل واحدة منها في النظام وظيفة تختلف عما تؤديه الأخرى، فالنظام إذن تكامل عضوي واكتمال وظيفي يجعله جامعاً مانعاً بحيث يصعب أن يستخرج منه شيء أو يضاف إليه شيء.

ولما كان طابع النظام اللغوي عضوياً أصبح من الصعب على اللغات أن تستعير الواحدة جزءاً من نظام الأخرى، ومن ثم لم نجد لغة تستعير من لغة أخرى أحد أصواتها أو ظاهرة سياقية من ظواهرها أو صيغة صرفية من صيغها أو علاقة من علاقاتها النحوية. ويتضح هذا الارتباط بين مكونات النظام اللغوي عند وصف أي حدث كلامي مهما كان بسيطاً تجده يمر بعدد من العمليات المختلفة أولها الجانب الصوتي.

يقول دي سوسير:"علم الصوت جزء من علم اللغة العام أما النظام الصوتي فهو علم مساعد يختص بالكلام"[2]، معنى هذا أن هناكجانباً عضوياً في اللغة تمثله تلك العلاقة بين أعضاء النطق ونظام اللغة.

---

[1] د.نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم العرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978م، ص 62.

[2] دي سوسير، مرجع سابق، ص51.

وتحتاج هذه العلاقة إلى توضيح وذلك لأن أعضاء النطق تقع خارج نظام اللغة وربما تؤثر في نطق بعض الأصوات وبالتالي قد تغير في نظام اللغة، ولكن الأمر ليس كذلك فالنظام اللغوي نفسه هو الذي ينسق هذه العلاقة لأنه يتضمن نظاماً داخلياً قوياً لا تغيره المؤثرات الخارجية. يقول دي سوسير:"اللغة نظام له ترتيب خاص ويمكن توضيح ذلك النظام اللغوي بالشطرنج فما هو خارجي في الشطرنج يمكن فصله بسهولة عما هو داخلي، فإذا استخدمنا أجزاء من الشطرنج مصنوعة من العاج بدلاً من الخشب فإن هذا التغيير لا أثر له في نظام الشطرنج، أما إذا قللنا من أجزاء الشطرنج أو أضفنا إليها فإن هذا التغيير له أثر كبير في اللعبة، ويستطيع المرء أن يحدد طبيعة الظاهرة باستخدام هذه القاعدة، فكل شيء يحدث تغييراً بأي أسلوب كان إنما هو داخلي ..."[1].

إذن النظام اللغوي نظام متين دقيق ينظم عمل المؤثرات الخارجية مثل الاختلاف في طريقة نطق بعض الأصوات أثناء الكلام ولهذا الاختلاف تأثير عميق على مستقبل اللغة وعلى المادة التي تتألف منها الكلمات ولكنها لا تؤثر في اللغة كنظام.
والأصوات التي تصدرها أعضاء النطق لتكون ذات معنى يجب أن توضع في شكل تتابعي محدد ومعين مكونة كلمات أو مجموعة من الكلمات هذه الكلمات يجب أن تكون محل اتفاق أعضاء المجموعة اللغوية باعتبارها قيماً رمزية تستحضر في أذهانهم أفكاراً معينة[2].

يشير سوسير إلى أن هناك قوانين تحكم تأليف الكلمات والجمل، نابعة من النظام اللغوي ومرتبطة بالمعنى، ولكن ليس من غرضنا أن نتكلم في العلاقة بين الصوت والمعنى أو في كيفية دلالة الصوت على المعنى، ولكننا نريد أن نؤكد على النظام الصوتي للغة، وأن هذا النظام إذا اختل تصبح الأصوات لا معنى لها أو عديمة الفائدة، لأن اللغة التي لا نفهمها تبقى مجموعة من الأصوات العشوائية، إلا إذا وجد اتفاق على هذه اللغة بأصواتها وصيغها النحوية ومفرداتها وجملها كعملة مشتركة وقابلة للتداول ولو بين اثنين على الأقل تصبح لغة بالمعنى الحقيقي للكلمة.

---

[1] دي سوسير، مرجع سابق، ص39.
[2] ماريو باي، مرجع سابق، ص64.

ومن أجزاء النظام اللغوي العام النظام الصرفي والنحوي، وهما مرتبطان بالنظام الصوتي في أي لغة من اللغات، فالنظام اللغوي وحدة واحدة مترابطة، والنظام الصرفي يبحث في هيكل الكلمات أو بناء الكلمة الداخلي، في حين يبحث النظام النحوي في علاقة المفردات بعضها مع بعض في الجمل، وكلا النظامين يرفد الآخر ويتصل به اتصالاً وثيقاً لأن البنية الداخلية للكلمة تؤثر على علاقاتها مع الكلمات الأخرى في الجملة.

ولتوضيح هذا التأثير نضرب المثال الآتي: إذا بُدِئت الجملة بكلمة (قاتل) يتوقع السامع اتباع ذلك بفاعل ومفعول مثلاً: قاتل الرجل عدوه، وهذه الجملة لها معنى محدد ولكن إذا طرأ على الفعل (قاتل) طارئ صرفي فأصبح (تقاتل) فإن تركيب الجملة يتغير تبعاً لذلك ويكون: تقاتل الرجلان أو تقاتل الرجال، وغيرها من الجمل التي تتناسب والفعل (تقاتل) هذا التغيير في التركيب ظاهرة نحوية وحتى المعنى أيضاً يتغير.

المثال المذكور كافٍ للكشف عن أن الصرف نظام له قوانينه وكذلك النحو وأن هناك واشجة قوية تربط بينهما وبين الصوت والمعنى.

ثالثاً اللغة مكتسبة وليست موروثة: قال ابن فارس في مادة (كسب): "الكاف والسين والباء أصل واحد يدل على ابتغاء وطلب وإصابة فالكسب من ذلك"[1].

إن قولهم اللغة مكتسبة، يعني أن الإنسان يتعلمها بعد أن يولد، كغيرها من أنواع السلوك والعادات المختلفة، وعند الحديث عن اكتساب اللغة نركز على اللغة الإنسانية المنطوقة والمكتوبة، ومن ثم يجب إبعاد القول بأن جميع الأعضاء والجوارح يمكن أن تخلق لغة، وبالتالي فالإيماء لغة والضحك لغة والرسم لغة والنحت لغة والموسيقى لغة وغناء الطيور لغة وصراخ القردة لغة ورقص النحل لغة وغيرها من أشكال الاتصال. وكذلك إبعاد القول بأن اللغة غريزة أصلية في الانسان، وأنه مميز بها عن الحيوان، وأيضاً إبعاد القول بأن المادة الأساسية لألفاظ اللغة هي الصوت الذي يحمل في جرسه ما يوحي بمدلول هذه الألفاظ، بمعنى أن الصوت المسموع يحاكي أصوات

---

[1] أبوالحسين أحمد بن فارس، مرجع سابق، ج/5، ص136.

الطبيعة، إبعاد هذا القول يجنب البحث الخوض في قضايا تتعلق بنشأة اللغة، لأن الخوض فيها لا يفيد البحث شيئاً.

من هذا المنطلق يمكن القول بأن اللغة مجموعة من العادات المكتسبة مثلها في ذلك مثل مظاهر السلوك الأخرى[1]، وبديهي أن الطفل يكتسب أسس لغته المنطوقة في سن مبكرة قبل أن يلتحق بالمدرسة ليتعلمها على نطاق أوسع، وتظل اللغة ملازمة له طوال حياته حتى وكأنه ولد وهي جزء منه، ولكن هناك سؤال مهم وهو كيف يكتسب الطفل اللغة؟

الإجابة عن هذا السؤال تكشف جانباً مهماً من طبيعة اللغة وتعالج عدداً من القضايا المتعلقة بتعليم اللغة.

ولكي يكتسب الإنسان اللغة لابد أن يكون مهيئاً ومعداً إعداداً خاصاً يمكنه من اكتسابها ونعني بهذا الإعداد أن الإنسان مزود بقدرة فطرية خاصة بالجنس البشري وبالسلوك اللغوي هذه القدرة لها ارتباط بالنواحي التشريحية في الإنسان، وهناك علاقة واضحة بين اللغة والجهاز النطقي والسمعي في الإنسان[2]. قال وافي: "اللغة الملكة هي مقدرة فطرية مزود بها كل مولود بشري وهي أهم السمات الفطرية التي تميز الإنسان عن الحيوان"[3]. سنحاول مناقشة المقدرة الفطرية عند الإنسان التي تعينه على اكتساب اللغة وعلاقتها بالجانب التشريحي للإنسان.

إذا سلمنا أن اللغة بمفهومها الحقيقي قدرة فطرية خاصة بالجنس البشري، هذا يعني أن هناك صفات بيولوجية محددة متوفرة في الإنسان، ولها علاقة مباشرة باكتساب اللغة، لابد من معرفة هذه الصفات وهي:

أ- وجود بعض العلاقات بين اللغة والنواحي الفسيولوجية والتشريحية للإنسان، فقد تزايد عدد الأدلة التي تشير إلى أن للسلوك اللغوي علاقة بالخصائص البيولوجية والوظيفية لجسم الإنسان منها العلاقة بين اللغة وتركيب جهاز السمع والنطق، ومنها العلاقة بين اللغة وبين مراكز التنسيق المتعلقة بحركة العضلات الخاصة بالنطق

---

(1) د.الغالي أحرشاو، الطفل واللغة تأطير نظري ومنهجي للتمثلات الدلالية عند الطفل،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط/1، 1993م ص 76.

(2) دي سوسير، مرجع سابق، ص50.

(3) د.علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة مصر، ط/1، 2004م، ص92.

والسيطرة على التنفس، ليتمكن الإنسان من الكلام مدة طويلة، ومنها العلاقة بين اللغة وبين الدماغ والتخصصات التي اكتشفت في أجزائه المختلفة وعلاقات أخرى تتعلق بالحس والإدراك اللغوي[3].

كل هذه العلاقات تؤكد أن الانسان مزود بأجهزة تؤدي وظائف أساسية أخرى ولكنها في الوقت نفسه تعينه على اكتساب اللغة.

ب ـ وجود جدول زمني ثابت للتطور اللغوي، من الواضح أن البدء بالنطق والسلوك اللغوي يأتي حسب جدول زمني دقيق، ويتطور بموجب ذلك الجدول عند جميع أطفال العالم مهما اختلفت لغاتهم وخصائصهم[2]. كما أن أول ما يتعلمه الطفل لا يتألف من مفردات اللغة بل من بعض المبادئ المتعلقة بتصنيف تلك المفردات إلى أسر، فالكلمات الأولى التي يكتسبها الطفل لا تشير إلى أشياء أو أحداث معينة، بل تشير إلى مجموعات أو أسر فكلمة (كرسي) مثلاً تشير بالنسبة للطفل إلى أسرة الكراسي جميعاً بغض النظر عن أشكالها وأحجامها وموادها المصنوعة منها واستخداماتهاالمختلفة[3].

هذه الملاحظة في اكتساب اللغة عامة عند جميع الأطفال ومنطبقة كذلك على كل اللغات مما يثبت أن اللغة مكتسبة وليست موروثة، فلا يعقل أن يرث جميع أطفال العالم صفات مشتركة وبنسب ثابتة.

ج ـ قوة القدرة اللغوية الكامنة عند الطفل، إن القدرة الكامنة عند الطفل والتي تمكنه من اكتساب اللغة قوية لدرجة أنها تتطور في وجه أصعب الظروف، فالأطفال المكفوفون يكتسبون اللغة كالأطفال الأسوياء، إلا بعض المفردات التي لا يمكن التعرف عليها إلا عن طريق اللمس، كما أن الأطفال الصم يكتسبون اللغة المكتوبة بسهولة، والأطفال الذين يولدون لآباء وأمهات صم بكم فإنهم أيضاً يكتسبون اللغة بشكل عادي[4].

---

(1) د.نايف خرما، مرجع سابق، ص135.
(2) د.الغالي أحرشاو، مرجع سابق، ص108.
(3) د.ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،ط/1، 1993م، ص 73.
(4) د.نايف خرما، مرجع سابق، ص138.

وهذا يؤكد أن اللغة هي المقدرة على فهم ما يقال وأنها أوسع وأشمل من الكلام، وأن الاستعداد والميل لاكتساب اللغة يبقى ثابتاً عند الإنسان على الرغم مما يصيبه من عاهات أو تطورات جينية، وكما يقول دي سوسير: "إن اللغة شيء متميز جداً فإذا فقد المرء القدرة على الكلام يبقى محتفظاً أو يفهم الإشارات"[1].

دـ إن اللغة البشرية لا يمكن تعليمها لغير البشر، لقد دلت المتابعة حتى الآن على أنه ليس لدى أي جنس غير بشري لغة بشرية، أو حتى وسيلة اتصال أخرى تصل في تنظيمها وتعقيدها إلى مستوى لغة الإنسان، كما أثبتت التجارب أنه لا يمكن تعليم هذه اللغة لأي جنس غير بشري إذ فشلت كل التجارب التي أجريت على قرد الشمبانزي لتعليمه لغة الإنسان[2].

هـ - وجود أسس مشتركة بين جميع اللغات، أقرّ معظم اللغويين على وجود أسس مشتركة بين جميع اللغات صوتية ونحوية ودلالية، بغض النظر عما إذا كانت بين بعضها علاقات تاريخية أو لم تكن[3].

ففي جميع لغات العالم مفردات تدل على الأشياء والمشاعر والصفات والأفعال والعلاقات المختلفة، فهناك أصوات وقواعد نحوية مشتركة بين اللغات وهناك المشترك اللفظي والترادف وغيرها من الظواهر اللغوية.

وثمة مؤشر يشير إلى وجود هذه الأسس المشتركة وهو أنه يمكن لأي طفل أن يتعلم أية لغة في العالم، وعلى هذا فالواضح أن المهارات الأساسية اللازمة لاكتساب اللغات المختلفة واحدة على الرغم من وجود الاختلافات بين الأجناس البشرية.

هذه الصفات مجتمعة ترجح أن الإنسان يولد وهو مزود بقدرة فطرية تمكنه من اكتساب اللغة، وأن هناك صلة بين تلك القدرة اللغوية والجهاز النطقي والسمعي للإنسان والذي يتصف بصفات تبدو غير عادية بالنسبة للحيوان وهذه الصفات تساعد في عملية النطق[4].

---

[1] دي سوسير، مرجع سابق، ص59.
[2] د.نايف خرما، مرجع سابق، ص142.
[3] دي سوسير، مرجع سابق، ص137.
[4] د.الغالي أحرشاو، مرجع سابق، ص 83.

ومن أبرزها اختلاف عملية التنفس بين الإنسان والحيوان، صحيح أن تركيب الرئتين لا يختلف كثيراً عند الإنسان وبعض الثديات، ولكن الاختلاف يأتي أثناء عملية التنفس ففي الانسان هذه العملية مكيفة تكيُّفاً خاصاً يتناسب والنطق، لأن التنفس عند الإنسان يتغير تغيراً واضحاً أثناء الكلام فيصبح الشهيق أسرع وأقصر بكثير مما هوعليه عادة، في حين تصبح عملية الزفير أبطأ وأطول وربما امتد هذا التغير لساعتين أو أكثر قبل أن يشعر الإنسان بالإجهاد، وبالمقابل فإن الإنسان لا يستطيع الامتناع عن التنفس تحت الماء لأكثر من دقيقتين إلا بعد التدريب والممارسة.

ومما يميز الجهاز الصوتي للإنسان ويجعلهقادراً على التكلم تركيب الحنجرة فحنجرة الإنسان تختلف عن حنجرة القردة مثلاً، فالأولى أبسط من حيث التركيب وهذا يساعد على مرور الهواء من الرئتين بدون عوائق إلى أن يصل الفم والأنف وبساطة التركيب في نظرعلماء الأحياء دليل التخصص في عضو معين[1].

وهناك اختلاف كذلك بين فم الإنسان وأفواه الحيوانات الأخرى، فأسنان الإنسان متقاربة في الارتفاع وتشكل حاجزاً كاملاً كما أنها ليست مائلة، والفكان يمكن انطباق أحدهما على الآخرانطباقاً كاملاً، وهذه الصفات ضرورية لنطق بعض الأصوات اللغوية في مختلف اللغات وأخيراً فإن الفم بمجمله صغيرنسبياً ويمكن أن يفتح ويغلق بسهولة وهذا يساعد على نطق الأصوات الانفجارية.

هذه الصفات التي يتصف بها الجهاز النطقي الإنساني تبدو مواتية لنطق الأصوات المختلفة المستعملة في لغات البشر، فإذا نظرنا إلى بدايات اللغة عند جميع أطفال العالم نجد أنها تتبع جدولاً زمنياً يكاد يكون ثابتاً بالنسبة لهؤلاء جميعاً مهما اختلفت لغاتهم وحضاراتهم، كما نجد أن تطور اللغة شبيه من وجوه عديدة جداً بأنماط السلوك الأخرى المحكومةبيولوجياً، فكثير من أنماط السلوك تظهر عند الطفل من غير أن تكون هناك حاجة إليها وكذلك اللغة تظهر عند الطفل من دون حاجة إليها فهو مازال تحت رعاية أمه التامة.

---

[1] د. نايف خرما، مرجع سابق، ص 142.

وأهم ما يميز هذه القدرة اللازمة لاكتساب اللغة أنها لا تحتاج إلى تدريب أو ليس للتدريب أثر كبير فيها، فقد أجريت تجارب حاول فيها بعض الآباء تعليم أبنائهم أنواعاً معينة من التراكيب النحوية ولكنهم فشلوا، بينما أتت فترة معينة من العمر استطاع هؤلاء الأسوياء أن يتقنوا تلك التراكيب بدون تدريب، وتبين أن التدريب لا يفيد إلا في جانب واحد هو زيادة المفردات اللغوية وهذا الجانب هو أقل الجوانب صعوبة في اكتساب اللغة[1].

إذن الطفل يولد ولديه القدرة على اكتساب اللغة والبيئة التي ينشأ فيها لا تستطيع أن تغير في هذه القدرة، ومع هذا فإن للمحيط أثر في التطور الطبيعي للغة وهذا واضح من النظر إلى الطفل الذي ينشأ في محيط غني من الناحيتين اللغوية والثقافية، وآخر ينشأ في محيط أفقر فإن المحيط الفقير يعيق تطور اللغة ويفقرها من حيث المفردات والقواعد، إلا أن هذا التأخير يمكن تلافيه بسرعة إذا انتقل الطفل إلى محيط أفضل، فتتغلب القدرة الكامنة مرة ثانية على التأثير السيئ للمحيط الفقير.

رابعاًاللغة مرتبطة بالمجتمع، دراسة اللغة دائماً تنصب على جانبين الأول يتعلق باللغة نفسها ومعرفة أنظمتها المختلفة ومن ثم كيفية التعبير عن المعاني، وهذا الجانب هو الذي ركز عليه القدامى، أما الجانب الثاني فهو الذي يدرس الوظائف التي تؤديها اللغة وعلاقتها بالمجتمع، ويرى أكثر المحدثين أن وظيفة اللغة الأولى هي الاتصال على الرغم من أن اللغة تؤدي وظائف كثيرة في غاية الأهمية تكشف عن علاقة اللغة بالمجتمع.

اللغة مرتبطة بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً وتعبر عن ثقافته وعاداته وتقاليده، ومستواه التعليمي وهي ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية، فتخلقها طبيعة الاجتماع وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من شئون[2].

يشير وافي إلى أن اللغة ليست من صنع فرد واحد أو أفراد، وإنما هي نتيجة حتمية للحياة في مجتمع، فلا يمكن أن تنشأ اللغة إلا في مجتمع، وكما أشار إلى أنها ظاهرة

---

[1] د. نايف خرما، مرجع سابق، ص144.

[2] د.علي عبد الواحد وافي اللغة والمجتمع، دار المعارف، القاهرة، 1946م، ص 703.

كغيرها من الظواهر الاجتماعية، ولكن للغة بعد اجتماعي يختلف عن غيره من الظواهر الاجتماعية.

فاللغة أهم مظهر دال على وجود الجماعة والمحافظة على كيانها، وهي عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع، وهي بوصفها هذا تشكل موضوعاً من موضوعات علم الاجتماع [1].

وهذا الاتصال الوثيق بين اللغة والمجتمع، هو الذي جعل علماء الاجتماع القدامى يميلون إلى تعريف اللغة بأنها الأصوات التي يعبر بها الناس عن أغراضهم، وهو التعريف الذي ساد عند الأقدمين من علماء اللغة، ولكن حصر وظيفة اللغة في التعبير عن الفكر والأغراض فيه شيء من التضييق، فاللغة مرتبطة بالجماعة الناطقة بها وعبر دراسة تاريخ اللغة وتطورها يمكن أن يُهتدى إلى خصائص الجماعات البشرية التي تتكلمها.

وفي اللغة جانب فردي هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع، وجانب اجتماعي خالص هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين المجتمع، بالنسبة للجانب الأول واضح أن طبيعة التخصص تتحكم فيه فلا يستطيع فرد واحد يكون طبيباً ونجاراً وصياداً ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد في أموره على الآخرين من أصحاب هذه المهن وأن يتصل بهم ولا سبيل إلى هذا الاتصال إلا بواسطة التفاهم ولابد للتفاهم من لغة وأما الجانب الثاني فإن اللغة أصل وجذر كل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع كالتاريخ المشترك، والدين المشترك، والأدب المشترك، إذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة.

يقول أحمد السايح: "كيف يمكن تصور تاريخ أو دين أو أدب أو فكر أو إحساس لا يترجم عنه بها إن الشركة في كل هذه العناصر هي الحياة الاجتماعية ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة"[2].

---

[1] د. نايف خرما، مرجع سابق، ص5.

[2] أحمد عبد الرحيم السايح، مقال بعنوان اللغة الإنسانية، مجلة اللسان العربي، العدد الأول، المجلد التاسع، 1972م، ص53.

إذن اللغة بجانب كونها أداة اتصال وتفاهم وتعاون هي عامل من عوامل الوحدة السياسية للجماعات فالجماعة مهما اختلفت في الدين أو الجنس أو البيئة فإن كانت لغتها واحدة تظل متماسكة متحدة[1].

واللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها ومجاراتها للحياة والأحداث، باختلاف الناطقين بها من الشعوب وليست هناك علاقة ضرورية بين الجنس واللغة، وبين قدرة الناس على التفكير أو على تعلم لغة من اللغات، وهناك لغات عديدة لأكثر من جنس واحد وهذه الأجناس على اختلافها تجيدها ولا تأنس مشقة في تعلمها كالإنجليزية والعربية[2].

يتضح أنه من الخطأ القول بأن وحدة اللغة الواحدة تعني قرابة الدم، وأن الأسرة اللغوية تتفق والأسرة الأنثروبولوجية، والوحدة الاجتماعية تستند على علاقات متنوعة من دين وحضارة ودفاع مشترك وغيرها، ويمكن أن توجد بين أجناس مختلفة ليس بينها آصرة دم أو قرابة، وهذه الاجتماعية بدورها يمكن أن تخلق وحدة لغوية.

ومما يدور عند البعض أن هناك لغات متخلفة وأخرى راقية، والذي يبدو أن هذا الحكم غير موضوعي، فاللغات التي تتسم بسمات بدائية يمكن أن تتحول إلى لغات راقية لو انفتح المجال أمامها، واتيحت لها ظروف التغيير تبعاً للتحولات الاجتماعية، وهذه نقطة مهمة تكشف عن مدى فاعلية التاثير والتأثر المتبادل بين اللغة والمجتمع.

ومن ناحية أخرى فإن للمكان أثره على اللغة فلغة سكان الصحراء تختلف عن لغة سكان المناطق السهلية والزراعية والصناعية، فلغة الصحراء خشنة الألفاظ غليظة الأصوات ربما بسبب المساحة الشاسعة التي تتطلب ارتفاع الصوت، و قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، دليل على ارتفاع صوت البدو، ولكن بعد أن سكنوا المدن وتحضروا تغيرت طرائق تعبيرهم في الأصوات ونظام القواعد وقلّت اللهجات وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب[4].

---

(1) سميح أبو مغلي، كتابات في اللغة، شركة الأصدقاء للطباعة، ص9.
(2) د.محمود السعران ، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، الاسكندرية، ط/2، 1963م ،ص67.
(3) سورة الحجرات، الآية 4.
(4) د.علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار النهضة، القاهرة، ط/2، 1973م، ص233.

وللزمان أيضاً تأثيره في اللغة، لأن انتقال اللغة من جيل إلى جيل يترك أثره في أصوات اللغة ومفرداتها ونظمها وتراكيبها، ففي لهجات العربية مثلاً أصبحت الذال قريبة من الزاي فضلاً عن فقدان الإعراب في العاميات، وتقصير الحركات الطويلة أو حذفها وخلق حركات غريبة[1].

أثر الزمان والمكان على اللغة واضح ولو أخذ زمناً طويلاً، ولا يخفى كذلك ما للمكان والزمان من أثر في المجتمع.

كما تتأثر اللغة بالنظم الاجتماعية فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية والاقتصادية والدينية، فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته، فالكلمات والتعبيرات تتفق مع شكل النظم السائدة، فلو درسنا ألفاظ عصر الإقطاع وعصر ما بعد الثورة في أوروبا لوجدنا أن مدلول كلمة (سيد) قد تغير[2].

ويملك المجتمع في ممارسة طقوسه الدينية وشعائره مسلكاً لغوياً ذا طابع خاص فلغة الدين لها ألفاظها وتراكيبها وأساليبها التعبيرية مثل: لغة الأذان والخطب والمدائح وغيرها، تستطيع أن تلمس فيها ميلاً إلى الإيقاع والفواصل وتتابع الأصوات وتنغيم الكلام[3].

وهناك علاقة بين اللغة وسن الفرد وجنسه ذكر أو أنثى، فاللغة عنصر مهم في تمييز شريحة اجتماعية عن أخرى، للأطفال لغتهم وللمراهقين لغتهم وللكبار لغتهم وللنساء لغتهن، والمجتمع يعرف تلك القواعد التي تحكم اللغة والسن والنوع، فإذا خرق الفرد تلك القواعد يكون ذلك واضحاً للمجتمع وعرضة للتعليق وربما السخرية ولكن هذا الالتزام يبدو أقوى في المجتمعات التقليدية المحافظة[4].

وكذلك ترتبط اللغة بالشرائح الاجتماعية المختلفة ولكل شريحة لغتها مثل شريحة المدرسين أو التجار أو الأطباء أو الجند أو الطوائف الدينية المختلفة وغيرها، ولكن لم يعد وجود هذا الاختلاف موضع اهتمام وإنما الاهتمام يجب أن ينصب على التغير

---

(1) د.عبد الغفار حامد هلال، مقال اللغة بين الفرد والمجتمع، مجلة اللسان العربي، العدد23، 1984م، ص 26.
(2) فندريس، مرجع سابق، ص314.
(3) د. محمود السعران، مرجع سابق، ص99.
(4) د.نايف خرما، مرجع سابق، ص231.

الذي يحدث في لغة الفرد في المناسبات والمقامات ونوع هذا التغير لأن الاهتمام به ربما يؤدي إلى الوصول إلى بعض الحقائق والقوانين التي تفيد الدرس اللغوي.

وثمة وشيجة قوية بين اللغة واللياقة والأدب، فكثيراً من المجتمعات تحرم كلمات وعبارات معينة متعلقة بموضوعات مختلفة، كالموت والأمراض الخبيثة وكوظائف بعض الأعضاء وتستبدل بها كلمات أخرى فيها شيء من اللطف والذكاء مثل: انتقل إلى جوار ربه، ودخل فلان بزوجه وغيرها من العبارات التي تقبلها النفس ويقبلها المجتمع.

إذن يمكن القول بأنه لا مجتمع من غير لغة، ولا لغة بلا مجتمع، وأن اللغة تتأثر بالمجتمع وبكل ما يدور فيه وتؤثر فيه، وليست وظيفة اللغة هي الاتصال فقط ولكن اللغة تقدم وظائف اجتماعية كثيرة يتوقف عليها وجود المجتمع نفسه.

خامساً اللغة متطورة وليست جامدة، اللغة كائن حي لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها وهم من الأحياء، وهي لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن، كما يتطور الكائن الحي ويتغير وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نموه وتطوره، وهي ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، كما أنها تتطور بتطور المجتمع، فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه.

يقول وافي:"ولما كان من المتعذر أن تظل لغة من لغات البشر بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد من هذا الطريق ... ويحدث بين اللغات ما يحدث بين الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعي وراء الغلبة والسيطرة..."[1].

ويرى العلماء إن هذا التطور يخضع لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج، واضحة المعالم محققة الآثار، وليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطور لغة ما أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي، فمهما أجادوا في وضع معاجمها وتحديد ألفاظها وضبط أصواتها وقواعدها، ومهما أجهدوا أنفسهم في اتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً ومهما بذلوا في محاربة ما يطرأ عليها من

---

[1] د.علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص252.

تحريف ولحن فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال وتفلت من هذه القيود وتسير في السبيل التي تريدها سنن التطور[1].

ويذكر ماريو باي:"إن الاتجاه الطبيعي للغة وبخاصة في صورتها الدارجة أو المتكلمة هو اتجاه يبعدها عن المركز، أو ما يمكنأن يسمى اتجاهاً (طرديمركزياً)* فاللغة تميل إلى التغيير سواء خلال الزمان أو عبر المكان، إلى الحد الذي لا يوقف تياره العوامل الجاذبة نحو المركز أو التي يمكن أن تسمى (بالجذبيمركزية)*، هذه الخاصية العالمية للغة مهمة لعالم اللغة التاريخي حيث أنها تشكل الأساس في كل تغير لغوي..."[2].

كما يقول أولمان:"اللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئاً في بعض الأحايين، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف ..."[3].

نستنتج من الأقوال أعلاه أن التطور اللغوي أمر ثابت أقره كل العلماء، وأن اللغة متحركة باستمرار وبالتالي فهي متطورة باستمرار، وأن هذا التطور له مفهوم محدد ومجالات معروفة وأسباب تؤدي إليه، وضوابط تحكمه. مفهوم التطور المعني هو التغير الذي يحدث في اللغة من غير تقييم لهذا التطور والحكم عليه بالحسن أو القبح لأن معالجة التطور هنا معالجة وصفية وليست معيارية.

من أبرز الضوابط التي تتحكم في التطور اللغوي أنه يحدث نتيجة لعوامل جبرية لا يستطيع الإنسان السيطرة عليها، والتطور لا يتم في كل أنظمة اللغة بسرعة واحدة، فالكلمات والعبارات لا تستقر على حال، أما النظام الصوتي فعلى النقيض إذ يتميز بالثبات والاستقرار وكذلك النظام الصرفي، ومن ضوابط التطور سعة انتشار

---

[1] المرجع السابق، ص229.

* الكلمتان (الطرديمركزية، والجزبيمركزية) منحوتتان وتعنيان: الطردي مركزي، والجذبي مركزي.

[2] د.علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص78.

[3] استيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ص 156.

اللغة وعدد المتكلمين بها، فإنه متى ما انتشرت لغة ما في مساحات واسعة وزاد عدد المتكلمين بها استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها[1].

وفي ذلك يقول فندريس:"إذ أن انتشارها في أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى يعرضها لأن تفقد خصائصها الموغلة في الذاتية، والتأثير الذي يقع عليها من الخارج يؤدي بها إلى التغير السريع... من ذلك أن الاختلاف بين (I shall) و (I will) لم يعد له وجود في الإنجليزية المتكلمة في امريكا فلا يقال الآن إلا (I will)[2]. ولم الأمر في أمريكا وحدها بل طال معظم بلدان العالم.

ومما يضبط التطور ويوجهه العوامل الاجتماعية والنفسية مثل حضارة الأمة ونظمها وعاداتها وثقافتها واتجاهاتها الفكرية، هذه أهم الضوابط التي تتحكم في التطور اللغوي العام.

أما مجالاته فمنها النظام الصوتي للغة، للتطور الصوتي خصائص كثيرة أهمها إنه يسير ببطء وتدرج لأن اختلاف الأصوات بين الأجيال المختلفة أمر دقيق لا يتبين حقيقته إلا أهل الدراية، ولكنه يظهر عند مقارنة أصوات لغة ما في العصر الحديث بأصواتها في العصور الوسطى مثلاً. يظهر التغير عند تناول لغة ما في عصرين مختلفين، وفق قوانين ثابتة أطلق عليها العلماء القوانين الصوتية، وهي تعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة في وسط اجتماعي معين[3].

ومن خصائصه أنه يحدث من تلقاء نفسه فهو غير شعوري، لأن الطفل يعتقد أنه يقلد والديه ويقوم بالحركات نفسها ولكنه يخالفهما ولا يشعر بذلك لأنه إذا شعر به ربما حاول تصحيح خطئه[4]. وكذلك تحول صوت (الثاء)في العربية مثلاً إلى (تاء) في كلمة (تلاتة) والقاف إلى همزة في (ألت)بدلاً من (قلت)، كل هذا حدث تمشيا مع قانون التطور اللغوي.

---

(1) د.على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص78.
(2) فندريس، مرجع سابق، ص 427.
(3) د.رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/3، 1997م ، ص 18.
(4) د.تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط/2، 1984م، ص92.

ومن ميزاته أنه جبري وذلك لأنه يخضع لقوانين لا دخل للإنسان فيها، مثل قانون المخالفة الصوتية، وقانون المماثلة الصوتية، وقانون السهولة والتيسير، فلكل هذه القوانين تأثيراتها على الأصوات.

وكذلك التطور الصوتي مرتبطاً بالزمان والمكان، يقول فندريس: "فمعظم ظواهر التطور الصوتي يقتصر أثرها على بيئة معينة، ولا نكاد نحصل على تطور صوتي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة، فتحول صوت القاف مثلاً إلى همزة لم يظهر إلا في بعض المناطق التي تتكلم العربية، ومنذ عهد غير بعيد، وتحول صوت (a) الواقع في نهاية بعض الكلمات اللاتينية إلى صوت (e) لم يظهر إلا عند الفرنسيين، ولم يبد أثره لديهم إلا في أثناء المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل الرابع عشر[1].

والتطور الصوتي مطرد فالتغير الذي يصيب صوتاً من الأصوات في بيئة ما يظهرأثره في جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت، وعند جميع الأفراد في هذه البيئة، قال ماريو باي:"إذا حدث لأي تغير صوتي أن صار فعالاً في منطقة معينة وزمن معين، فإنه يتوقع له أن يكون تأثيره عاماً، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى مثل التأثيرات التعليمية أو الاقتراض الأجنبي ..."[2].

إن معرفة هذه الخصائص تعين على تفسير كثير من النظريات الخاصة باللغة وقوانينها وتعلمها فقد ثبت بطلان القول بأن تطور الأصوات يحدث نتيجة للعمل الفردي، كما ثبت عدم صحة القول بأن التطور الصوتي يتجه باللغة نحو التهذيب والكمال، ونحو التخفيف باسقاط بعض الأصوات الثقيلة وغير المرغوب فيها، لأن هذه الاتجاهات يمكن أن تقبل إذا كان التطور مقصوداً ومتحكماً فيه ولكن الأمر ليس كذلك، وهذا التطور أيضاً يؤكد عدم إمكانية وجود لغة واحدة مشتركة بين الناس.

أما المجال الثاني من مجالات التطور اللغوي فهو المجال الدلالي، وللتطور الدلالي عوامل تقود إليه وله مجالاته وخصائصه، ومن أكبر مجالاته الكلمات وذلك بسبب كثرة دورانها فهي في تغير مستمر، والتغيرات التي تطرأ على الكلمات قد

---

[1] دعلي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص 286.

[2] ماريو باي، مرجع سابق، ص 140.

تكون في تخصيص دلالة الكلمة أو تعميمها، أو في تغيير مجال استخدامها، أي أن معنى الكلمة يحدث فيه تضييق أو اتساع أو انتقال[1].

ومن أمثلة التخصيص في العربية تخصيص كلمة (الطهارة) لمعنى الختان، وكلمة (العيش) للخبز، أما التعميم فيحدث عند إطلاق اسم نوع خاص من الجنس على الجنس كله، مثل:إطلاق الورد على الزهر عموماً، فكلمة (Blume) تعني (زهرة) ولكنها اختفت من بعض اللهجات الألمانية وحل محلها كلمة (Rose) وتعني (وردة) ومن أمثلته في العربية إطلاق كلمة (البأس) على كل شدة وهي في الأصل تعني الحرب، ومن الانتقال في العربية إطلاق كلمة (الشجرة) على النخلة، والذباب على الطير[2].

ومن خواص التطور الدلالي إنه يحدث ببطء وبتدرج وأحياناً تبتعد الكلمة الأخيرة عن الأولى بعداً شاسعاً، فكلمة (bureau) الإنجليزية كانت تطلق على نوع خاص من الأقمشة، ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لأنها تتخذ من ذلك القماش، ثم أطلقت على مائدة المكتب، وأخيراً أطلقت على مقر العمل والإدارة لملازمة المكتب لهما[3].

ومن خصائصه إنه تطور جبري وتلقائي ومقيد بالزمان والمكان، ومطرد إذا حدث في بيئة ما ظهر أثره في كل البيئة، ومعرفة خصائص هذا التطور الدلالي واتجاهاته ومظاهره تساعد كذلك في تفسير بعض الظواهر اللغوية، وفي دراسة اللهجات وبعض الجوانب المتعلقة بتعليم اللغات.

سادساً علاقة اللغة بالفكر، لقد ذكرت تعريفات اللغة، أن اللغة وسيلة للتعبير عن الأغراض والمشاعر والأحاسيس وهذا يعني وجود المشاعر والأحاسيس أولاً ثم التعبير عنها بواسطة اللغة بعد ذلك، فهل يمكن أن نقول أن اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر؟ وهل هناك فكر مجرد لا يعتمد على اللغة أم أن اللغة والفكر شيء واحد؟ أم أن اللغة هي ترسم مسار الفكر وتحدد له حدوده؟

---

[1] د.حلمي خليل، مرجع سابق، ص 188.
[2] فندريس، مرجع سابق، ص260.
[3] د.علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص 215.

تكشف الإجابة عن هذه الأسئلة عن العلاقة بين اللغة والفكر، ولكن ليس من السهل الإجابة عن هذه الأسئلة وذلك بسبب تعدد الآراء، فلعلماء النفس رأيهم ولعلماء الاجتماع رأيهم ولعلماء اللغة رأيهم، ولا يهمنا كثيراً مناقشة تلك الآراء، ولكن الذي يبدو لنا أن هناك صلة قوية بين اللغة والفكر، من الواضح أن للغة تأثيراً كبيراً على طريقة تفكير الفرد الذي يتكلم لغة معينة إلا أننا لا نستطيع أن نقول أن الفكر يتكون أولاً ثم تتبعه اللغة المعبرة عنه أو بالعكس، وعليه من الأسلم القول بأن اللغة والفكر يعتمد كل منهما على الآخر إلى حد كبير، فنحن لا نستطيع أن نفكر أبعد من قدرتنا اللغوية، كما لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه[1].

سابعاً وظيفة اللغة الأولى هي الاتصال، اللغة تقوم بوظائف كثيرة ولكن هذه الوظيفة يراها العلماء بأنها الأهم، وفي هذا العصر ظهرت بحوث جديدة تضافرت فيها جهود علماء الاجتماع وعلماء الأجناس البشرية، وعلماء اللغة لمعرفة وظائف اللغة وعلاقتها بالمجتمع، لأنه في القديم يسود القول بأن اللغة وظيفتها التعبير عن الفكر، كما كانت الموضوعات المتعلقة باللغة تبحث متفرقة.

ولكن كلمة (الاتصال) التي يفضلها المحدثون فيها شيء من غموض الدلالة لأن الاتصال قد يتم بين البشر بطرق غير لغوية، ولكن يمكن أن ننظر إلى اللغة باعتبارها مظهر من مظاهر السلوك الإنساني له ارتباط وثيق بكل مظاهر السلوك الأخرى، واللغة هي التي تعبر عن غيرها من مظاهر السلوك البشري، لذلك كانت من أهم تلك المظاهر السلوكية وهذا هو السبب الذي وضع وظيفة الاتصال في المقدمة.

والوظائف الأخرى التي تؤديها اللغة لا تتم إلا عبر الاتصال، إذن لا مفر من جعل الاتصال الوظيفة الأهم والأولى بالنسبة للغة، مع تحديد مدلول كلمة الاتصال أوتقييدها إن تطلب المقام.

---

[1] د. نايف خرما، مرجع سابق، ص 178.

المبحث الثاني

اللغة والزمن

إن الزمن من الأمور التي شغلت تفكير الإنسان، وحاول تفسيره لأنه شيء غير مادي ولا ملموس، ولكن الإنسان يحس به ويستخدمه في تقدير أموره وتقييمها، يقول شريف مصباح:" وقد شغل بالزمن الفلاسفة والعلماء والمناطقة وغيرهم، ويرجع هذا الاهتمام إلى الطبيعة الخاصة للزمن إذ يتسم بلغموض والوضوح معاً، فالزمن يكاد يكون أوضح من كل بيان وفي الوقت نفسه هو في غاية الغموض إذا تأملناه وحاولنا الغوص في أعماقه ويالها من أعماق"[1].

والمفهوم العام للزمن هو تصور ينشأ لدى الإنسان من ملاحظته للتغيرات في الأشياء قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوْا عَدَدَالسِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ))[2]. فعلم عدد السنين لا يكون إلا بحركة القمر، هذه الحركة أعطت الإنسان مفهوم الزمن، لأن الزمن يتصور من التغيرات الطارئة على الأشياء، وله ارتباط بالذهن وهذا واضح إذا ما قارنت إحساسك بالزمن وأنت في امتحان أو أنت تنتظر أمراً مهماً بالنسبة لك.

المفهوم المعجمي للزمن:

تعرض المعجميون للكلمات (زمن، وزمان، ووقت)، على أساس أنها مفردات لغوية تخضع لمقاييسهم العامة في تصنيف الألفاظ ، وقد تسببت فكرة الترادف اللغوي في خلق مطابقة بين معاني الألفاظ، فجمعوا في الدلالة بين الزمن والزمان والوقت، ينص ابن منظور:" الزمن والزمان اسم لقليل الوقت وكثيره، وقال شمر: الدهر والزمان واحد،... وقال أبو الحسن: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة وعلى مادة الدنيا كلها، قال وسمعت غير واحد من العرب يقول: أقمنا بموضع كذا وعلى ماء كذا دهراً... والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى

---

[1] د. شريف مصباح محمود، الزمان في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009م، ص13.

[2] سورة يونس الآية 5.

مدة ولاية الرجل وما أشبهه..."[1]. ونقل عن ابن دريد قوله: "الزمن والزمان هما العصر"[2]. فلا فرق بين مدلول الزمن، والزمان، والعصر، والوقت، والدهر.

إن المستعرض لآراء المعجميين ليكاد يقطع بأن مصطلح (الزمن)لم يكن واضحاً لديهم أو على الأقل لم يكن هدفاً لهم إلا على الناحية المعجمية.

ولا تقف القضية بين يدي اللغويين عند حدود ظاهرة الترادف أو الفروق، بل تتعدى إلى مسألة المجاز والخاص والعام في اللغة، إذ الألفاظ الموضوعة للوقت كثيرة في اللغة، ومنها ما يترادف أو يعم، ومنها ما يقع مطابقاً لوقت محدد مألوف أو محدود، من ذلك: الدهر والعصر والزمن والزمان والوقت والحول والسنة والبرهة والمدة والساعة، وغيرها.

وللزمان في الفكر الإسلامي أهمية خاصة، على الرغم من أن كلمة (الزمن) لم ترد في كتاب الله، ولكن وردت ألفاظ كثيرة تدل عليه دلالة قاطعة، ذكر تلك الألفاظ العلماء الذين كتبوا في الزمن في القرآن الكريم، ولكنهم لم يذهبوا بعيداً عن المعنى المعجمي في فهمهم للزمن، فهو عندهم يعني تعاقب الليل والنهار، حركة الشمس والقمر، ومدة الحياة الدنيا...[3].

يظهر أن المفهوم المعجمي للزمن هو الوقت، أو الدهر، طال أو قصر لأن كلمة الزمن غير محددة بمفردها، والذي يفصح عنها ويحدد مداها هو التركيب، لذلك كانت اللغات الإنسانية تعمد إلى القرائن المختلفة في تحديد الزمن، ومن هذه الزاوية تظهر خصوصية الزمن اللغوي واختلافه عن الزمن بمفهومه العام سواء كان مفهوماً فلكياً أم فلسفياً أم غيره.

فرَّق اللغويون بين ثلاثة أنواع من الزمن هي: الزمن الفلسفي، والزمن الفلكي، والزمن اللغوي نوجز الحديث عنها فيما يلي:

أولاً الزمن الفلسفي: البحث في الزمن من أهم المسائل الفلسفية، ولكن مع ذلك يصعب الوقوف على حقيقة الزمن عند الفلاسفة، يقول في ذلك البيروني:" إنه بحث

---

[1] ابن منظور، مرجع سابق، 1867/1.

[2] ابن دريد، مرجع سابق،ج/4، ص233..

[3] عبد الفتاح أبو غدة، قيمة الزمن عند العلماء، مكتبة المطبوعات الإسلامية، الرياض، ط/10، ص 16.

يدق جداً ويغمض، ولولا إنه كذلك لما صار المختلفون فيه على غاية التباعد، حتى قل بعضهم إنه لا زمان أصلاً، وقال بعضهم إنه جوهر قائم بذاته" [1]. سنعرض أقوال بعض الفلاسفة باختصار شديد لنرى مدى الاختلاف بين الفلاسفة في تصورهم للزمن.

تحدث أفلاطون عن الزمان عند تصوره لبدايات الخلق فقال:"... إن النهار والليل والشهور والسنين لم تكن قبل حدوث السماء، ولكن الله استنبط حدوثها عندما كان يركّب الفلك ...فالزمن حدث مع السماء، فأصبح مرتبطاً بها وينحل بإنحلالها إن كان هذا الانحلال سيحدث يوماً ما" [2].لم يقدم أفلاطون تعريفاً للزمان ولكنه تحدث بطريقته الفلسفية عن بداية ونهاية الزمان حسب فهمه.

أما أرسطو فإنه ربط بين الحركة والزمان فقال:" إن الزمان هو الجانب المعدود من الحركة، فهو عدد بمعنى ما يعد أو يقبل العد من الحركة"[3]. الزمان عند أرسطو هو مقدار الحركة.

أما فلاسفة المسلمين فمنهم الكندي الذي عرَّف الزمان: " بأنه مدة تعدها الحركة غير ثابتة الأجزاء، وقال عن الوقت : إنه نهاية الزمن المفروض للعمل"[4]. اتفق الكندي مع أرسطو في ربط الزمان بالحركة، ولكنه أضاف مصطلحاً جديداً هو المدة.

أما فلاسفة العصر الحديث فقد تناولوا الزمان من حيث علاقته بالإنسان وتفكيره ومن ثم طرحوا عدداً من الأسئلة منها: ما هما الزمان والمكان؟ ألهما وجود حقيقي أم مجرد علاقات بين الأشياء؟ وغيرها من الأسئلة.

نذكر قولاً واحداً للفيلسوف (كانت):إن الزمان ليس شيئاً موضوعياً واقعياً، كما إنه ليس جوهراً أو عرضاً أو رابطة، بل هو الشرط الذاتي الذي يجعل في وسع العقل البشري أن يحقق الترابط بين جميع الموضوعات الحسية"[5].

التصور الفلسفي المعروض للزمن مع اختصاره يعج بالمصطلحات من جوهر وعرض وقدم وحدوث وغيرها، مما لا يعين الباحث في اللغة على تجلية مفهوم

---

[1] د. شريف مصباح، مرجع سابق، ص 126.
[2] نفسه، ص 127.
[3] د. حسام الألوسي، الزمان في الفكر الفلسفي والديني القديم،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط/1، 1980م، ص 129.
[4] عبد الفتاح أبو غدة، مرجع سابق، ص 130.
[5] د.مالك يوسف المطلبي، مرجع سابق، ص 12.

الزمن، وبالتالي فإن الزمن الفلسفي ليس في أصله زمناً ولكنه النظر إلى الزمن داخل الوجوالمادي أو خارجه وهو نظراً عقلياً، وما دام عقلياً فهو محل خلاف.

يقول المطلبي: "يجب أن نضع في اعتبارنا أن استخلاص مفهوم الزمن من مذهب الفلاسفة ليس أمراً هيناً"[1].

ثانياً الزمن الفلكي:

عرَّف ابن فارس الفلك قائلاً :"الفاء واللام والكاف أصل يدل على استدارة في شيء ... ومن هذا القياس فلك السماء"[2]، قال تعالى: ((لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ))[3] ورد في تفسير ابن كثير: يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون ويدورون في فلك السماء [4].

إذن الزمن الفلكي ناتج من دوران الشمس والقمر في فلك السماء، وهو بهذا يمثل الزمن القياسي أو الأداة التي يقيس بها الإنسان الأحداث، فهو زمن محسوس لأن الإنسان يحسب كل شيء بالساعة التي تقيس أبعاد الزمن الفلكي.

الزمن الفلسفي والفلكي كلاهما مستقل عن سيطرة وتحكم الإنسان، والفرق بينهما أن الزمن الفلكي هو الزمن الحقيقي الذي يمكن قياسه، أما الزمن الفلسفي فهو النظر العقلي في الزمن الفلكي، وكلاهما يختلفان عن الزمن اللغوي.

ثالثاً الزمن اللغوي:

إن العلاقة بين التراكيب والزمن، تعد من أهم موضوعات التحليل النحوي والدلالي في كل اللغات، وذلك لأن الزمن ملتحم باللغة وجزء لا يتجزأ من مكوناتها ولا توجد لغة نطق بها الإنسان لا تحمل سمات زمنية مؤثرة في المعنى، حتى الأسماء فيها دلالة زمنية على الرغم مما يبدو عليها من براءتها من الزمن .

يقول المطلبي: "ارتباط الزمن باللغة من أكثر القضايا اللغوية تشعباً، والتي تكون ما يمكن أن نطلق عليه شبكة معقدة من الأشكال والعلاقات، تبدأ من المورفيمات

---

[1] د. مالك المطلبي، مرجع سابق، ص 13.
[2] أبو الحسين أحمد بن فارس، مرجع سابق، ج2، ص428.
[3] سورة يس، الآية 48.
[4] ابن كثير، مرجع سابق، ج3 ص171.

فالصيغ فالمركبات بوصفها بنى لغوية صرفية من جهة، ونحوية من جهة أخرى وتنتهي إلى النظر في المعنى وعلاقته بالزمن، سواء أكان ذلك المعنى على صعيد المعجم، أم على صعيد معنى الصيغة المفردة، أم على صعيد الدلالة النحوية"[1].

يمكن أن نقف على بعض الاتجاهات التي اتبعها النحاة في التحليل الزمني، وأول ما نلحظه من ارتباط اللغة العربية بالزمن، هو قول النحاة في الفعل، إذ جعلوه مركباً في دلالته من الحدث والزمن، وهذا يعني أن اللغة ملتحمة بالزمن التحاماً كبيراً لأنه يندر أن يتكلم المرء أو يكتب دون أن يذكر عدداً من الجمل الفعلية في حديثه أو كتابته. وفيما وقفت عليه من كتب القدماء لم أجد عبارة (الزمن اللغوي)ولكنهم جميعاً أشاروا إلى هذا الزمن عندما عرفوا الفعل بأنه ما دل على اقتران حدث بزمن[2].

ذكر سيبويه:" أما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وماهو كائن لم ينقطع..."[3]، فما مضى مثاله عند سيبويه قولك: ذهب، ومالم يقع هو قولك آمراً: اذهب، وقولك مخبراً: يقتل ويذهب، وما هو كائن لم ينقطع أيضاً مثل له بقولك: يقتل ويذهب إذا بُني للحال.

هذه أول إشارة واضحة إلى علاقة اللغة بالزمن، متمثلة في دلالة الفعل الزمنية، إذ جعل سيبويه الفعل إما ماضياً دالاً على الماضي، وإما مضارعاً دالاً على الحال أو الاستقبال، والذي يفهم من كلامه أن أزمنة الفعل في اللغة ثلاثة: زمن مضى، وزمن حاضر، وزمن مستقبل، ولكن سيبويه لم يشر إلى الأساس الذي استند عليه في تقسيم الأفعال، وواضح إنه تأثر بشيء من المنطق المتعلق بالنظر في الزمن الفلسفي، كما يفهم من كلامه إنه جعل الزمان جزءاً من البناء الصرفي ومن ثم فإن الصيغة الصرفية تدخل الجملة بهذه الدلالة. ولكن سيبويه حينما نظر إلى الصيغة الصرفية خلال التركيب، نراه يحمل (فعل) التي جعل بناءها للماضي دلالة (يفعل) التي بنيت للحال، وكذلك دلالة (افعل) التي بنيت للدلالة على الاستقبال.

---

[1] د.مالك المطلبي، مرجع سابق، ص 29.
[2] ابن عقيل، مرجع سابق، ج/1، ص 10.
[3] سيبويه، مرجع سابق، ج/1، ص12.

يتبين أن سيبويه يقصد بالزمن الوقت المطلق إذا دل على الماضي، أوالحاضر، أو المستقبل ويستفاد الزمن عنده من المباني الصرفية، بالإضافة إلى الأدوات الحرفية مثل: قد والسين وسوف، والفعلية مثل: كان وأخواتها وأفعال المقاربة وغيرها وكذلك الظروف ومعاني بعض الأساليب اللغوية مثل: أسلوب الشرط.

هذا هو الزمن اللغوي عند إمام النحويين الذي رسم حدوده بأنه الزمن المستفاد من الصيغة الصرفية والقيود الزمنية المختلفة ومعاني الأساليب اللغوية.

ثم جاء النحاة من بعده وفهموا أن الفعل في العربية ثلاثة أقسام: ماضٍ، ومضارع وأمر مع اختلافهم في فعل الأمر، يقول ابن جني:" الأفعال ثلاثة أضرب وتنقسم بأقسام الزمان ماضٍوحاضر، ومستقبل، فالماضي ما قرن به الماضي من الأزمنة نحو قولك: قام أمس، وقعد أول من أمس، والحاضر ما قرن به الحاضر من الأزمنة نحو قولك:هو يقرأ الآن وهو يصلي الساعة، وهذا البحث أيضاً يصلح للاستقبال إلا أن الحال أولى به من الاستقبال، تقول: هو يقرأ ويصلي بعد غدٍ فإن أردت إخلاصه للاستقبال أدخلت فيه السين او سوف قلت:سيقرأ غداً وسوف يصلي بعد غدٍ والمستقبل ما قرن به المستقبل من الأزمنة، نحو قولك:سينطلق غداً وسوف يصلي بعد غدٍ، وكذلك جميع أفعال الأمر والنهي نحو قولك:قم غداً ولا تقعد غداً"[1].

وافق ابن جني سيبويه في أن الأفعال ثلاثة أقسام، وأنها منقسمة بأقسام الزمان، كما وافقه في ذكر القيود الزمنية مثل: السين وسوف والظروف الزمنية مثل:أمس وغداً والتي لها تأثير في زمن الفعل نذكره في موضعه.

وقال الزجاجي:" الفعل ما دل على حدث وزمان ماضٍ، أو مستقبل نحو: قام يقوم، وقعد يقعد وما أشبه ذلك"، وقال في موضع آخر:" الأفعال ثلاثة فعل ماضٍوفعل مستقبل وفعل في الحال يسمى الدائم"[2]. ذكر الزجاجي قسمين ثم استدرك فلحق بسيبويه، ذاكراً القسم الثالث فعل الحال الذي سماه الدائم، وهو عند سيبويه الكائن الذي لم ينقطع.

---

[1] ابن جني، مرجع سابق، ج2/ص231.

[2] أبو القاسم الزجاجي، الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، دار الأمل،الأردن، أربد، ط/2، 1985م، ص 27.

وفي شرح المفصل قال ابن يعيش:" لما كانت الأفعال مساوقة للزمان والزمان من مقومات الأفعال، توجد عند وجوده وتنعدم عند عدمه ... كانت الأفعال ماض وحاضر ومستقبل"[1]. وفي موضع آخر أشار ابن يعيش بوضوح أكثر إلى أن الأفعال منقسمة بأقسام الزمن فقال:" إن أصل الأفعال أن تكون متصرفة من حيث كانت منقسمة بأقسام الزمان"[2]، وهو يقصد بقوله:(أصل الأفعال ....) إن الذي جعل الأفعال ثلاثة هو الزمن، لأنه إما ماضٍ أو حاضر أو مستقبل والماضي عنده يقع الإخبار عنه بعد زمن وجوده، والمستقبل يقع الإخبار عنه قبل زمن وجوده والحاضر يخبر عنه زمان وجوده.

والذي نلحظه أن ابن يعيش ربط تقسيمه للأفعال بالزمن كما فعل السابقون، ولكنه حاول أن يحدد زمن الماضي وزمن الحاضر وزمن المستقبل بدقة أكثر، إلا إنه في موضع آخر ذكر فعل الأمر ولم يبين موقع الأمر من تقسيمه الزمني.

هذا هو الاتجاه العام للنحاة العرب فلا نجد خلافاً على مبدأ سيبويه، ولكن هذه النظرة إلى الصيغ الفعلية وعلاقتها بالزمن، تتحدث عن مطلق الزمن في الدلالة، فالماضي بالنسبة للمتكلم حدث وقع يخبر عنه المتكلم الآن، والحاضر حدث يوصف وقت كلام المتحدث، والمستقبل حدث يقع بعد كلام المتحدث، هذا هو معيار الزمن عند النحاة القدماء.

أما من حيث معيار المدى الحدثي والجهة الزمنية، فقد تفرق الحديث عنها في مباحث القدماء تارة تحت عنوان معاني الصيغ، وتارة أخرى عند الكلام عن الأدوات ووظائفها، وتأثير بعض الصيغ معجمياً في بيان الجهة الزمنية، وتارة ثالثة أثناء الكلام عن السياق ومقتضى الحال في توجيه الزمن، ولكن الجدير بالذكر أن النحاة القدماء لم يقسموا الزمن اللغوي إلى زمن صرفي وزمن نحوي، ولكنهم أشاروا إلى زمن مفاده الصيغة الصرفية وزمن مفاده الصيغة مضافاً إليها الأدوات، أو الظروف أو الأفعال المساعدة، أو قرائن الحال والمقال، إشارتهم هذه تقود إلى تقسيم الزمن اللغوي إلى زمن صرفي وزمن نحوي.

---

[1] أبو البقاء ابن يعيش، شرح المفصل، منشورات عالم الكتب، بيروت، ج/7، ص116.
[2] نفسه ص 117.

أ- الزمن الصرفي في اللغة العربية:

لم يقسم القدماء الزمن اللغوي إلى زمن صرفي وآخر نحوي كما فعل المحدثون ولكنهم أشاروا إلى دلالة الفعل الزمنية خارج لسياق، كما مثّل سيبويه لبناء ما مضي بقوله: (ذهب ومكث) كأنه أشار إلى زمن صرفي مفاده صيغة الفعل، وعندما تحدث عن القيود الزمنية ذكر تخليص السين المضارع للمستقبل، وفي حديثه عن الظرف الزمني أومأ إلى تآلف ال(أمس) صيغة الماضي[1] وهذه إشارة إلى الدلالة الزمنية داخل السياق، أو إلى ما سُمِي حديثاً بالزمن النحوي.

أجمع القدماء على أن الفعل العربي يدل بصيغته على الزمن، فسيبويه يرى أن أهم ميزة يختص بها الفعل ليست مادته، بل ميزته تكمن في أنه يعبر عن الزمن، فجوهر الفعل الزمن[2] ويرى ابن جني أن صيغة (فعل) تشير إلى الماضي، وصيغتي (يفعل وأفعل) تشيران إلى الحاضر والمستقبل بالبناء[3].

تعبر صيغة (فعل) عن قسم من الأقسام الزمنية الثلاثة وهو قسم الماضي، ولكنها لا تشير إلى زمن محدد أو إلى جهة زمنية بعينها، ورد في حاشية الصبان قوله:" إن هذه الصيغة تعبر عن الماضي الذي يحتمل القرب أو البعد"[4]. وقال السامرائي: "صيغة (فعل) تدل على حدث كان قد تم في زمن ماض لا نستطيع ضبطه وتعيينه"[5].

إذن صيغة (فعل) تدل على الحدث التام الفعلية، أي أن حدث (فعل) حدث متجدد مقطوع به في زمن انقضى غير محدد.

ويرى البعض أن صيغة فعل لا تدل على زمن ولكن تدل على شيء آخر هو الذي جلب إليها الزمن، هذا الشيء هو التأكيد كما في قولك:أقسمت، معناه أقسم قسماً جازماً هذا التأكيد هو الذي جلب إلى ذهن السامع الزمن، فالسامع يعرف أن قسمي قد نفذ وانتهى[6].

---

(1) سيبويه، مرجع سابق، ج/1، ص12.
(2) نفسه.
(3) ابن جني، مرجع سابق، ج/3، ص98.
(4) محمد بن علي الصبان،حاشية الصبان على شرح الأشموني، مطبعة عيسى البابلي، القاهرة،ج/1، ص59.
(5) د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط/3، 1983م، ص 53.
(6) د.مالك المطلبي، مرجع سابق، ص84.

والذي نراه أن النحاة قدامى ومحدثين متفقون على أن صيغة (فعل) تدل على مطلق الزمن الماضي، بغض النظر عن محاولة مالك المطلبي لتفسير كيفية إلحاق الزمن بهذه الصيغة، وهو نفسه يقول:"إن صيغة فعل تدل على انتهاء الحدث إذا فرغت عن الزمن، وتمام انتهاء الحدث في الزمن الماضي إذا دلت على زمن السياق"[1].

أما عن صيغة (يفعل) فقد جعل سيبويه صيغة (يفعل) دالة على الحاضر والمستقبل، حين قال:"وأما بناء ما لم يقع قولك:آمراً اذهب ومخبراً يقتل، وكذلك بناء ما هو كائن لم ينقطع إذا أخبرت"[2]، ولكنه عند التطبيق كثيراً ما يجعل (يفعل) دالة على الحاضر وأما دلالة المستقبل فمربوطة بتركبه مع أدوات الاستقبال[3].

وجاء في الأصول عن صيغة يفعل:" تصلح لما أنت فيه من الزمان ولما يستقبل"[4] وقال أيضاً:"فإذا قلت سيفعل أو سوف يفعل دل على أنك تريد المستقبل، وترك الحاضر على لفظه لأنه أولى به "[5]، يرى القائل أن صيغة (يفعل) إذا كانت مجردة أولى بالحاضر وإن دخلتها السين أو سوف فهي للمستقبل. وجاء في الجمل:" ولا دليل في لفظه على أي الزمانين تريد"[6] يقصد صيغة (يفعل) مجردة.

أما المعاصرون فلم يذهبوا بعيداً عن القدماء إذ جعلوا صيغة (يفعل) دالة على وقوع الحدث في زمن التكلم والتعبير عن المستقبل البسيط، وبناء (يفعل)مفرداً غير مركب له عدة دلالات منها: أن يدل على الحال ومنه قوله تعالى وقوله: ((لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوْا النَّجْوَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُوْنَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ))[7].الفعل (تبصر) زمنه غير محدد ولكنه أقرب إلى الحال لتجرده من أي أداة زمنية.

---

(1) د. مالك المطلبي، مرجع سابق، ص 86.
(2) سيبويه، مرجع سابق، ج/1، ص215.
(3) نفسه ج/1، ص22.
(4) أبوبكر بن السراج، الأصول في النحو، تحقيق عبد المحسن المفتلي،مطبعة النعمان، النجف، 1973م، ج/1، ص19.
(5) نفسه، ج/1، ص20.
(6) الزجاجي، مرجع سابق، ج/1،ص41.
(7) سورة الأنبياء، الآية 3.

وقد تدل صيغة (يفعل) على كثرة وقوع الحدث دون التقيد بزمن معين، ومنه قوله تعالى: ((لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ))[1]

الفعل (يسبح) يدل على كثرة وقوع الحدث وتجدده ولكنه لم يتركب معه ما يشير إلى تحديد زمنه بدقة.

وترد (يفعل) للدلالة على وقوع الحدث واستمراره، ومنه قوله تعالى: ((وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ))[2]، الفعل(يؤمن) يدل على الاستمرار في الإيمان. وتأتي (يفعل) دالة على أن الحدث من الحقائق الثابتة، نحو قوله تعالى: ((وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[3]، الفعل (تجري) يعبر عن دلالته المعنوية أكثر من التعبير عن الزمن وذلك لأن المراد النص على هذه الحقيقة الثابتة.

وتدل صيغة (يفعل) على حدث مضى وهو كثير في القرآن الكريم منه قوله تعالى: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ))[4]، الفعل: (تقتل) دال على الاستقبال ولكن المراد منه التعبير عن استحضار حدث مضى وكأنه مشاهد الآن، وذلك لأن التخيل في المضارع أقوى وأظهر منه في الماضي، وهذا التعبير كثير في القرآن لأنه أراد أن يستحضر صورا من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر. ولكن لابد من مراعاة السياق الذي يعطي دلالة زمنية إضافية إلى صيغة المضارع فيجعله يدل على الحاضر التاريخي كما أسماه بعض أهل اللغة.

وتأتي (يفعل)دالة على أن الحدث يكون مستقبلاً ولكنه مرتبط بحدث آخر وقع قبله في الماضي ومنه قوله تعالى:((فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي

---

[1] سورة يس،الآية 40.
[2] سورة البروج، الاية 8.
[3] سورة يس، الآية 38.
[4] سورة البقرة،الآية 87.

يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ))[1].

الأفعال (تمشي، ويدعو) تدل على المستقبل ولكن الذي يؤكد تلك الدلالة هو مجيئها بعد الفعل الماضي في سياق واحد.

وكذلك ترد صيغة (يفعل) دالة على حدث مسند إلى الله تعالى كما في قوله: ((إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ))[2]. في قوله تعالى: (ليحكم) صيغة يفعل تدل على المستقبل لأن هذه الحدث سيقع يوم القيامة.

نلاحظ أن صيغة (يفعل) لها دلالات كثيرة ولكن كل تلك الدلالات لا تنفصل عن السياق مع أن الصيغة وردت مفردة، إذ لم يتركب معها أي قيد من القيود الزمنية مثل (كان، أو السين، أو سوف...).

الدلالة الأساسية للمضارع هي الحاضر إلا أن صيغة (يفعل) بإمكاناتها الحدثية وبما يتركب معها من قيود زمنية وما يفرضه السياق من دلالات نحوية يجعل الزمن في الفعل المضارع في ضوء السياقات المتعددة مختلفا ومتنوعا.

ويقول المطلبي:" إن مجموع الدلالات الزمنية التي عبرت عنها صيغة (يفعل) تسع انصرفت ثلاثة من هذه الدلالات إلى الماضي، واثنتان إلى المطلق، وأربع تقاسمن زمن الحال والاستقبال"[3].

وتحدث النحاة عن صيغة فعل الأمر (أفعل)، هذه الصيغة التي وردت في عبارة سيبويه: ومالم يقع هو قولك آمراً: اذهب، وقولك مخبراً: يقتل ويذهب، وما هو كائن لم ينقطع أيضاً مثل له بقولك: يقتل ويذهب إذا بُني للحال.

لم يسم سيبويه صيغة (أفعل) بفعل الأمر، ولكنه قال:قولك آمراً وهذه إشارة إلى التسمية بفعل الأمر، كما أشار إلى زمن هذه الصيغة بقوله: (ما لم يقع) وقصد بذلك

---

[1] سورة القصص،لآية 26.
[2] سورة النحل، الآية 24.
[3] د.مالك المطلبي، مرجع سابق، ص 89.

المضارع والأمر وفرَّق بينهما من جهة الطلب والإخبار، فجعل الأمر للطلب والمضارع للإخبار.

فعل الأمر بصيغته لا يدل على زمن محدد، بل يشير إلى الحاضر، أو المستقبل، دون الماضي ولكن جاء في الهمع قول السيوطي:" وهو لازم الاستقبال"[1]، يقصد فعل الأمر، يرى السيوطي أن فعل الأمر يدل على الاستقبال. ووافقه في هذه الرؤية الشلوبين حين قال :" الأمر مستقبل بالوضع"[2].

ومن المعاصرين عباس حسن الذي قال:" زمان الأمر مستقبل في أكثر حالاته"[3]، وقال إبراهيم أنيس:"كما أننا نلمح فيه دائماً المستقبل"[4]، أما تمام حسان فجعل الأمر دالاً على الحاضر والمستقبل وقسمه إلى (افعل الآن، وافعل غداً)[5].

وهناك اتجاه نادى بخلو الصيغة من الزمن، جاء في الكافية:" الأمر صيغة يطلب بها الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة"[6]، وهذا الملمح نجده في (الجمل) عندما قسم الأفعال قائلاً:" المفتوح الآخر نحو ضرب وانطلق وهو للماضي خاصة... وما دخله إحدى الزوائد الأربع وهو يصلح للحال والاستقبال... والموقوف الآخر نحو:اخرج يكون أمراً للمخاطب"[7]. لم يسند الزجاجي للأمر دلالة زمنية كما فعل مع الماضي والمضارع.

وتابع هذا القول ريمون طحان الذي نادى بطرح صيغة الأمر من حقل الزمن[8] وأحمد عبد الستار قائلاً:"إن صيغة الأمر التي ترد في أسلوب الإنشاء لا تدل على معنى زمني"[9]. وذهب المخزومي أبعد من ذلك وجرد صيغة الأمر من الفعلية وجعلها للطلب فحسب[10].

---

(1) جلال الدين السيوطي، همع الهوامع، تحقيق محمد بدر الدين النمساني،دار المعرفة، بيروت، ج/1، ص817.
(2) أبو علي الشلوبين، التوطئة، تحقيق يوسف أحمد المطوع، دار التراث العربي، القاهرة، 1973م، ص132.
(3) عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة ط/1، 1964م، ج/1، ص65.
(4) د.إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص175.
(5) د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط/5، 2006م، ص251.
(6) رضي الدين الاستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، دار الكتب العلمية، بيروت،ج/2،ص 276.
(7) الزجاجي، مرجع سابق، ، ص 5.
(8) د.ريمون طحان، الألسنية العربية،دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط/1، 1972م،ج/1، ص146.
(9) د.أحمد عبد الستار عبد الجواري، نحو الفعل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1973م، ص73.
(10) د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، ط/2، 1976م، ص45.

من خلال هذه الأقوال نميل إلى أن صيغة الأمر صيغة فعلية، وأنها لاتخلو من الزمن ولكنها لاتدل على زمن محدد والسياق يقوم بدور كبير في توجيه زمن هذه الصيغة.

الحديث عن الزمن الصرفي لا يعني أن النحاة القدماء لم يلحظوا تغير دلالة الفعل الزمنية داخل السياق، ولكنهم تمسكوا أكثر بالدلالة الصرفية الأمر الذي جعل بعض المحدثين يحمل عليهم بأنهم حمَّلوا اللغة فوق ما تحتمل اعتماداً على المنطق العقلي ومن ناحية أخرى فإن المحدثين يؤخذ عليهم الغلو في الفصل بين ما هو لغوي وما هو عقلي، فالنزعة المنطقية لا يمكن فصلها تماماً عن اللغة البشرية.

هذا هو منتهى الزمن الصرفي عند النحاة العرب، ولكن هناك سؤال نحاول الإجابة عنه وهو: هل هناك علاقة مباشرة بين صيغة الفعل والدلالة على الزمن؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نفحص بنية الفعل فحصاًدقيقاً لنقف على دلالته كاملة فالفعل صرفياً يتسم بثلاث سمات هي: مادة الحدث أي بناء الفعل، والإشارة إلى فاعل أي الفعل يحتاج إلى فاعل ببنيته، والتجدد الفعلي، فالصيغة لها سمات دلالية ثابتة في المستوى الصرفي ليس الزمن واحداً منها.

هذه هي سمات الفعل الأساسية، وعليه فالفعل لا يعبر بصيغته عن الزمن بطريقة مطلقة ويصح أن نقول أن الزمن أثر من آثار صيغة الفعل، وليس معنى صيغة الفعل لأن معنى صيغة الفعل هو حدثها المتجدد.

إذن الفعل يتضمن الزمن من جهة الصيغة ولكن ليس مطلقاً، ويتضمن أقساماً زمنية من جهة الشكل، وحدثاً من جهة الاشتقاق، وعليه فإن الزمن أُلحق بالفعل لحاقاً عقلياً وليس لغوياً باعتبار أن الأحداث لاتنفك عن الزمن أبداً، وهو إلحاق مقبول إذا لم يجر اللغة إلى مجاهل المنطق العقلي.

ب- الزمن النحوي في اللغة العربية:

وجَّه المحدثون نقداً شديداً للنحاة القدماء ووصفوهم بأنهم جعلوا زمن العربية زمناً صرفياً أي أن الصيغة تعبر عن زمن ما في مجالها الإفرادي وتستمر في التعبير عنه في مجالها التركيبي، وبالتالي شكل الصيغة يدل على الزمن وهي الأساس الذي يقيس الزمن اللغوي داخل السياق لا الملابسات والقرائن.

وهذا الملحظ القائم على عدم وجود دراسة متخصصة لزمن العربية عند القدماء، هو الذي جعل بعض المستشرقين يرمي العربية بعدم القدرة على التعبير عن الزمن إلا بالصيغ الفعلية قال فندريس:" إن السامية المشتركة ليس فيها أية وسيلة للتمييز عن أزمنة الفعل المختلفة، ولا يوجد بها إلا التام وغير التام"[1]. وهكذا يعتقد المستشرقون أن العربية لا تعبر عن الأزمنة إلا بالصيغ الفعلية البسيطة.

لا نريد أن نناقش أقوال المستشرقين- الذين أجمعوا على فقر العربية زمنياً- مناقشة مستفيضة ولكن الدراسة الوصفية لعلاقة صيغة الفعل بالزمن تشير بوضوح إلى عدم وجود ثبات في تلك العلاقة بل أن السياقات اللغوية هي التي تتحكم فيها، وعليه فإن للعربية زمناً نحوياً له سماته ووسائله التعبيرية، كما أن الزمن الصرفي لا يمكن فصله عن الزمن النحوي البتة. وقد رفض أغلب المعاصرين فكرة ربط الصيغة بالزمن، يقول السامرائي:" ونستدل من البحث في تاريخ النحو على أن الأقدمين فصلوا القول في هذا وأنهم استفادوا الاستدلال على الزمان من صيغ عدة"[2].

وهنا نبَّه السامرائي إلى أن الزمن في العربية مفاده صيغ كثيرة وليس الأفعال الثلاثة فقط ولكنه ذكر في مكان آخر قوله:"على أننا يجب أن نشير إشارة عامة إلى أن الفعل ثلاثة أقسام: ماض وحال، ومستقبل، وأننا نستطيع أن نقر أن صيغة (فعل) وإن دلت على دلالات عدة في الإعراب عن الزمن، فهي في أغلب الأحوال تدل على حدث أنجز وتم في زمن ماض، وأن صيغة (يفعل) تتردد بين الحال والاستقبال وإن ذهبت في الاستعمال مذاهب أخري، وذلك بفضل الأدوات والزيادات التي أشرنا إليها"[3].علَّق مالك المطلبي على قولي السامرائي ووصفه بالاضطراب لأنه أنكر الزمن الصرفي ثم رجع وأقره[4].

والذي يبدو أن قول السامرائي مقبول فهو دمج وربط بين الزمن الصرفي والنحوي أكثرمن كونه رفض أو إنكار للزمن الصرفي، والقول بأن الفعل في العربية ثلاثة أقسام ليس مردوداً، كما أن السامرائي لم يقل أن صيغة (فعل) و(يفعل) تدلان

---

(1) فندريس، مرجع سابق، ص135.
(2) د. إبراهيم السامرائي، مرجع سابق، ص23.
(3) نفسه، ص24.
(4) د.مالك المطلبي، مرجع سابق، ص37.

على الماضي والحال مطلقاً ولا تخرجان عنهما فإنه ذكر القيود الزمنية التي تندرج تحت الزمن النحوي.

أما تمام حسَّان فقد أقر وجود زمن صرفي إلى جانب زمن نحوي، وحاول تحديد سمات كل منهما، فالزمن الصرفي عنده يبدأ بالصيغة وينتهي بها، والنحوي عنده هو زمن السياق[1].

يرسم تمام بهذه المحاولة حداً فاصلاً بين الزمنين الصرفي والنحوي، بالنظر إلى الزمن الصرفي من جهة طبيعته ووظيفته، ولكن هذه الصيغ الصرفية نفسها تعبر عن زمن آخر هو الزمن النحوي، الشيء الذي يجعلنا نحس بالتداخل الشديد بين الزمنين الصرفي واالنحوي، ولا نستطيع أن نفصل بينهما بكل سهولة كما فعل تمام حسان.

وتمام نفسه عندما فحص الزمن النحوي، أحس بعمق للزمن الصرفي ممتداً معه ولم ينته في نقطة ما خارج السياق، قال:" وأول ما يخطر ببالنا هنا أن الجملة المثبتة تحتفظ لصيغتي (فعل) و (يفعل) بزمنهما الذي أعطاه إياهما النظام الصرفي، فيظل (فعل)ماضياً ويظل (يفعل)حالاً أو استقبالاً، بحسب ما يضامه من الأدوات كالسين وسوف ..."[2].

والخلاصة أن الزمن اللغوي زمن صرفي يستفاد من إمكانات الصيغة الحدثية، وزمن نحوي يستفاد من تغير الصيغ في السياق، ومن ثم يمكن القول بأن الزمن الصرفي يمتد بعمق في التربة النحوية وأنه يشارك في الدلالة الزمنية داخل السياق.

على ضوء هذه الخلاصة وتأكيداً لها نعرض بعض الأقوال عن الزمن النحوي تبرهن أنه زمنمستفاد من صيغ الأفعال مضافاً إليه معاني القيود والأدوات الزمنية.

يقول برجشتراسر:" إن العربية تتميز عن سائر اللغات السامية، في تخصيص معاني أبنية الفعل وتنويعها وذلك بواسطتين: إحداهما اقترانها بالأدوات نحو: قد فعل وقد يفعل وسيفعل، والأخرى تقديم فعل (كان) على اختلاف صيغه نحو: كان قد فعل، وكان يفعل، وسيكون قد فعل، إلى آخر ذلك ..."[3].ويستمر مؤكداً أن هذا التميز

---

[1] د.تمام حسان، مرجع سابق، ص240.
[2] نفسه ص242.
[3] برجشتراسر، مرجع سابق، ص118.

ينوع معاني الفعل تنويعاً أكثر مما يوجد في أية لغة من سائر الساميات إلى قوله: فالعربية أكمل اللغات وأتمها في هذا الباب باب معاني الفعل الوقتية. هكذا أقر برجشتراسر أن العربية غنية زمنياً، ولها نسق زمني واضح تعبر عنه بتلك القيود الزمنية والتي اصطلح عليها باسم المركبات الزمنية، وقد وجدت تأييداً وموافقة من كل اللغويين.

وتحدث مهدي المخزومي عن تنوع دلالة الفعل الزمنية في العربية قائلاً:"... واستعانت ببعض الأفعال والأدوات، تلحقها بصيغتي فعل ويفعل لتدلا مع ما لحقهما على ما أرادت العربية التعبير عنه في بناء مركب اتصلت أجزاؤه وتعاونت على إبراز مثل هذه الدلالة الجديدة، ووجدت صيغ مركبة شاعت في الاستعمال وروتها ألسنة المتكلمين... أمثال: قد فعل، وكان قد فعل، وكان فعل"[1]. أكد المخزومي وجود المركبات الزمنية، كما أكد التحام الزمن الصرفي بالزمن النحوي.

اهتم المعاصرون بهذه المركبات لأنهم وجدوا فيها بغيتهم في التعبير عن الزمن اللغوي في العربية، ووضعوا لها ضوابط وشروطاً عديدة، من أهمها أن هذه المركبات تتحدد دلالتها وفق بنية الجملة، وأن دلالة الجملة الزمنية لا تتوقف على الدلالة الفعلية البسيطة مضافاً إليها دلالة المركب الزمني فقط، بل لابد من مراعاة صيغ أخرى غير فعلية من الأقسام الأخرى للكلم كالمصادر وغيرها من أقسام الكلمة.

يقول تمام حسان:" أما في السياق النحوي فنرى أن الزمن هو وظيفة في السياق يؤديها الفعل وغيره من أقسام الكلم التي تنقل إلى معناه مثل: زمان الاقتران الذي يكون بين حدثين وهذا الزمان يستفاد من الظروف الزمانية ... وزمان الأوقات وهو المستفاد من الأسماء التي تنقل إلى معنى الظروف .."[2].

من خلال هذا العرض يمكن أن نتلمس بعض خصائص الزمن النحوي، ومنها:

1- استمرار الصيغ الفعلية البسيطة فيه في التعبير عن زمنها الذي تحمله من الصرف في جمل معينة وانحرافها عنه في جمل أخرى.

---

[1] د.مهدي المخزومي، مرجع سابق، ص142.

[2] د.تمام حسان، مرجع سابق، ص241.

2-يعبر عن الزمن النحوي بالصيغ الزمنية المركبة، وبالصيغ غير الفعلية أحياناً كالظروف.

3- يوجد في الزمن النحوي ما يسمى بالجهة مثل، القرب والبعد والاستمرار وغيره، وفيه تتحول الظروف عن معناها المعجمي إلى وظائفها النحوية الزمنية.

المبحث الأول

النص مفهومه وزمنه

لقد اهتم النحاة الأوائل بتقعيد القواعد النحوية وتعليمها، انطلاقاً من الاهتمام بحفظ القرآن الكريم من اللحن، ومن ثم حفظ اللسان العربي، وكان استشهادهم بآياته واضحاً جلياً، وتعد آيات القرآن الكريم والحديث النبوي عند من جوَّز الاحتجاج به أساساً لبناء القواعد النحوية والصرفية، والمتأمل في التراث العربي يجد أن النحاة هم الذين حملوا على عاتقهم دراسة الجملة من الناحية الوضعية، فصاغوا قواعدها، واستقصوا أنماطها، ولكنهم وقفوا عند حدود الجمل في دراستهم وتحليلاتهم ولم يتجاوزوها، في الوقت الذي اشتغل فيه المفسرون والأصوليون بالبحث في الكيفية التي بها يتماسك النص القرآني ويتآخذ، مشكلاً بذلك نصاً متكاملاً ومتسقاً لفظاً ومعنى.

ركز بعض اللغويين في العصر الحديث على دراسة النص لعدم كفاية الجملة في وصف الظواهر التي تتجاوز حدودها، ويمثل النص قطب رحى اللسانيات المعاصرة، بدليل اختصاص الدراسات المتعلقة بالنص بأسماء كثيرة، مثل: علم النص، ولسانيات النص، ولسانيات الخطاب ونحو النص، وكلها تلتقي في ضرورة مجاوزة الجملة في التحليل اللغوي إلى فضاء أرحب اصطلح عليه بفضاء النص[1].

ويرى بعض المحدثين أن التوجه إلى دراسة النص يعد فتحاً جديداً للدراسات اللغوية، قالت خولة طالب: "التحول الأساسي الذي حدث في السنوات الأخيرة هو الفتح الجديد في اللسانيات، لأنه أخرجها من مأزق الدراسات البنيوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية: البنيوي، والدلالي والتداولي"[2].

إن قضايا علم النص كثيرة ومتنوعة، وعلاقته بالعلوم الأخرى متشابكة، مثل علاقته بعلم النفس المعرفي، واعتماده على النتائج التجريبية لبعض الدراسات

---

[1] ملفوف صالح الدين، مفهوم النص في المدونة النقدية العربية، المركز الجامعي، الجزائر، ص130.

[2] خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، الجزائر، 2000م، ص167.

اللغوية، وانطلاقاً من هذا الجانب جاء اهتمامنا بالتركيز على مفهوم النص وعلاقته بالزمن، وذلك نظراً لأن النص يوفر البيئة اللغوية الواسعة للتحليل اللغوي.

مفهوم النص:

إن الذين حاولوا تحديد مفهوم النص انطلقوا جميعهم من المعنى اللغوي، والنص في المعاجم العربية يدورعلى عدة معانٍ هي: الرفع، والإظهار، وجعل بعض الشيء فوق بعضه وبلوغ الشيء أقصاه ومنتهاه، والتحريك، والاستقصاء، والمناقشة والتعيين، والتوقيف[1].

قال الزناد: " وهذه المعاني كلها تعود إلى جامع واحد هو الارتفاع، أو هو أظهر مكونات الشيء، أو أقصاها، ويمكن أن نتوسل بما سبق في إجراء (النص) في الإصطلاح فهو يطلق على ما به يظهر المعنى، أي الشكل الصوتي المسموع من الكلام، أو الشكل المرئي عندما يترجم إلى المكتوب"[2]. ربط الزناد بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي لكلمة (النص)، ولكنه حاول أن يقرب بين معنى (النص) في اللغة العربية ومعناها في بعض اللغات الأخرى، فقال: "ويتوفر في مصطلح (نص) في العربية وكذلك في مقابله في اللغات الأعجمية (text) معنى النسيج، فالنص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض"[3].

قارن الزناد بين (نص) العربية و(text) الإنجليزية، وهذه الكلمة الإنجليزية يعود أصلها إلى (النسج أو النسيج)[4]، أما (نص) العربية فليس في معانيها اللغوية ما يشير إلى (النسج)، مع العلم بأن كل المعاجم اللغوية اتفقت على المعاني المذكورة للكلمة في العربية، ولكن إدخال النسيج في النص يمكن أن يكون من باب أن النص نسيج متماسك من الجمل وهذا أمر بديهي لا يرجع إلى أصل الكلمة، وعليه فإن المقارنة بين معنى (نص)في العربية ومعناها في اللغات الأخرى قد لا يفيد كثيراً في تحديد المعنى الاصطلاحي لأن لكل لغة طريقتها في توليد معانيها.

---

(1) انظر: لسان العرب، ج/7،ص97، وأساس البلاغة، ص635، وتاج العروس ج/4،ص 444..
(2) الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط/1، 1993م، ص12.
(3) نفسه، ص12.
(4) Oxford Advanced Dictionary, Oxford University Press, seventh Edition, 2007, Page 1530.

وترى رقية حسن أن النص يستخدم "للدلالة على أي مقطع لغوي، مكتوباً كان أو منطوقاً ومهما كان طوله على أن يشكل كلاً موحداً، فهو وحدة دلالية لا من حيث الشكل بل من حيث المعنى"[1]. اعتمدت رقية حسن معيار المعنى في تحديد مفهوم النص، ولم تهتم بشكل أو بحجم النص.

ومن أبرز تعريفات النص: "كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة، مرتبطة بعدد من العلاقات"[2]؛هذا التعريف جعل النص عدداً من الجمل السليمة، ولكنه لم يحدد عدد تلك الجمل. ومن التعريفات: 'النص حدث تواصلي، يلزم لكونه نصاً أن تتوفر له سبعة معايير، إذا تخلف واحد منها تنتزع منه صفة النصية، وهذه المعايير هي: السبك أو الربط النحوي، والتماسك الدلالي، والقصد وهو الهدف من إنشاء النص، والقبول أو المقبولية وتتعلق بموقف المتلقي من النص، ومجموع توقعاته للمعلومات الواردة في النص، والمقامية المتعلقة بمناسبة النص للموقف والظروف المحيطة به، والتناص"[3]؛ هذا القول لم يقدم حدوداً واضحة للنص، واكتفى ببيان شروط صحة النص.

ومن المعاصرين من رأى أن النص: "لا ينبغي أن يحدد بمفهوم الجملة، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصاً قائماً بذاته مستقلاً بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الأدبية كالأمثال الشعبية والألغاز والحكم السائرة، والأحاديث النبوية..."[4]. ومنهم من رأى أن القارئ هو الذي يستطيع أن يميز بين النص وغير النص من الكلام، فقال: "إن القارئ والسياق ووسائل الاتساق أركان جوهرية وحاسمة في تمميز النص عن غير النص، وهو وحده القادر على أن يحكم بنصية ما تلقاه، أما أنه يشكل كلاً موحداً، وإما هو جزر من الجمل لا يربطها رابط..."[5].

وعند إطلاق كلمة (النص) اليوم يتبادر إلى الأذهان أنه الصيغة الأصلية من الكلام المنسوبة إلى صاحبها دون نقص أو زيادة، تراهم يقولون: هذا هو الكلام نصه، أو

---

(1) نقلاً عن: شريفة بلحوت، طبيعة النص، المركز العربي، الجزائر، 2009م، ص1.
(2) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط/2، 2000م، ص35.
(3) محمد مفتاح، مسائل في مفهوم النص، منشورات كلية الآداب والعلوم، جامعة محمد الخامس، جدة، 1997م، ص23.
(4) نور الدين السيد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 1997م، 66.
(5) نفسه، ص69.

هذا ما قاله بالنص، أو هذا نص حديثه، وهذا له اتصال بالمعنى اللغوي، كما جاء في المعاجم نص الحديث رفعه إلى قائله، ولكن رفع الكلام إلى قائله دون تحريف لا يضع أمامنا تعريفاً للكلام المرفوع نفسه، لأنه هو المقصود بالتعريف وليس نسبته إلى قائله.

تعريفات النص كثيرة، منها ما اعتمد على البنية، ومنها ما اعتمد على الدلالة ومنها ما نظر إلى أهمية النص، وغيرها من المنطلقات المختلفة وفق تخصصات أصحابها واتجاهاتهم، الناظر إلى تعريفات النص الكثيرة يجد صعوبة في تحديد مفهوم النص بدقة واضحة، يميل الباحث إلى تبني هذا المفهوم:

"النص وحدة كلامية مكونة من جملتين فأكثر، منطوقة أو مكتوبة، مرتبطة بقائلها أو كاتبها وموجهة إلى مخاطب معين، وتحمل معنى سليماً، ويتوفر فيها الترابط الكامل بين الجمل ويمكن أن تتأثر هذه الوحدة الكلامية بالإحالة الخارجية غير اللغوية"[1].

هذا التعريف نحسب أنه شامل، فهو يجمع بين المكتوب والملفوظ، ويرد النص إلى قائله ويهتم بحجم النص فالجملة الواحدة لا تكون نصاً لأنها يمكن أن تُفسر بكلمة واحدة، ويراعي هذا التعريف ضرورة التماسك بين الجمل في النص وسلامتها تركيباً ومعنى، كما يراعي أهمية السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي في التأثير على معنى النص، ويبتعد عن المزج بين معنى كلمة (النص) في العربية ومعناها في اللغات الأخرى، فهو يعطي لكل لغة خصوصيتها في بناء نصوصها. ليكتمل مفهوم النص لابد من الحديث عن سماته وخصائصه التركيبية، وإذا توافر في نص ما جملتان فأكثر لابد أن ترتبط الواحدة بالأخرى بوسيلة من وسائل الربط، هذه الروابط أطلق عليها الزناد اسم (نحو الروابط التركيبية) وقال: "إنها علامات على علاقات تكون بين الجمل"[2].

يعد الترابط بين جمل النص من أبرز سمات النص الجيد، وهذا الترابط يتم بعدة أدوات يأتي في مقدمتها الإحالة، التي تقوم بدور أساسي في ربط أجزاء الجملة

---

(1) Description And Contrastive Analysis Of Tense And Time In English And Arabic By DEDUR-ALkhafall.University Of Glasgo U.K.1972

(2) الأزهر الزناد، مرجع سابق، ص25.

الواحدة من ناحية، وربط عدة جمل مع بعضها بحيث يتكون نص كامل، والإحالة كما جاء في لسان العرب: تعني نقل الشيء من حال إلى حال أخرى، وتعني توجيه شيء أو شخص على شيء أو شخص آخر لجامع يجمع بينهما[1].

والإحالة في الاصطلاح: "يقصد بها وجود عناصر لغوية لا تكتفي بذاتها، وإنما تحيل على عنصر آخر، لذا تسمى عناصر محيلة مثل أسماء الإشارة والضمائر والأسماء الموصولة..."[2] وهناك من يرى: "الإحالة علاقة دلالية لا تخضع لقيود نحوية، بل تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحيل عليه"[3].

وعُرفت الإحالة: بأنها تركيب لغوي يشير إلى جزء ما ذُكر صراحة، أو ضمناً في النص[4] أو هي: أي تعبير لغوي يتعلق بتعبير لغوي آخر في النص[5]، وعرَّفها تمام حسان بقوله: "هي أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر سابق في سياق النص، أو إشارة الدال إلى المدلول بصورة ما من صور اللفظ"[6]، والجدير بالذكر أن الزناد تناول في كتابه (نسيج النص)الإحالة تناولاً موسعاً ولكنه لم يشر إلى مفهومها.

يمكن القول إن الإحالة عملية معنوية يوجدها الكاتب أو المتكلم، في ذهن السامع أو القارئ عن طريق إيراد ألفاظ مبهمة يشير بها إلى ألفاظ، أو عبارات، أو أشخاص، أوأشياء أومواقف داخل النص أو خارجه، سابقة عليها أو لاحقة في سياق لغوي أو غير لغوي، بقصد الاستمرارية والاختصار والربط .

تؤدي الإحالة وظائف كثيرة أهمها أنها تساهم إسهاماً كبيرا في عملية اتساق المعنى داخل النص، وتساعد كذلك في استمرارية المعنى، من خلال سماح الإحالة لمستخدمي اللفظ بحفظ معناه دون التصريح به مرة أخرى، لأن الكاتب أو المتكلم يشير إلى أن جزءاً ما أو شيئاً ما ارتبط بشيء آخر تقدم ذكره، ومن أجلَّ وظائف الإحالة أنها تعمل علىتركيب النص وبنائه بناءً سليماً لفظياً وزمنياً.

---

(1) ابن منظور، مرجع سابق، ج/9،ص1550.
(2) محمد خطابي، مرجع سابق، ص16.
(3) نفسه، ص17.
(4) شريفة بلحوت، مرجع سابق، ص9.
(5) نفسه، ص10.
(6) د. تمام حسان، مرجع سابق، ص 73.

وقد ذكر الباحثون أدوات الإحالة وهي: الضمير، واسم الإشارة، واسم الموصول وألفاظ المقارنة، وسماها الزناد المعوضات[1]، كما ذكروا أنواع الإحالة فقد تكون داخلية (نصية) أو خارجية (مقامية)، أو تكون إحالة سابقة (قبلية) أو لاحقة (بعدية)[2].

نخلص إلى أن الإحالة تعد أهم العلاقات التي تربط العناصر اللغوية داخل النص وتعمل على تماسكه، وعلى خلق سمة النصية، لذلك تناولناها بشيء من الإيجاز دون سائر سمات النص الأخرى، مثل: جودة السبك، والتتابع، والقصد، والقبول والتناص، وغيرها.

ويرى علماء لسانيات النص أنه وإلى عهد قريب، كان ينظر إلى الجملة بأنها الوحدة اللغوية الأساسية في علم اللغة، وهي أكبر وحدة يمكن تعيينها ووصفها، وهي تشكل أساس التحليل اللغوي، يقول الزناد: "وقف منذ القديم الدرس اللساني عند حدود الجملة، فبيَّن مكوناتها والقواعد التي تحكمها، وعلى ذلك قامت النظريات النحوية والاتجاهات اللسانية المختلفة والمتعاقبة فالجملة بنية قارة في الكلام، وقرارها هذا جعل النظريات اشتغلت بوصفها وتقنينها..."[3].

وبناءً على هذه الرؤية فرَّق المهتمون بعلم النص بين (نحو النص) و(نحو الجملة) من عدة وجوه، وانطلقوا من أن الجملة تكتفي بذكر أركانها وهذا ما لا نجده في النص، وعليه فإن (نحو الجملة) يقوم بدراسة الجملة معزولة عن سياقها، فهو يعترف باستقلالية الجملة، أما (نحو النص) فيدرس العلاقات بين الجمل، فالنصية تستمد من علاقة التماسك بين الجمل، و(نحو الجملة) يهتم بالقاعدة ومعياريتها، أما نحو النص أبعد ما يكون عن المعيارية، فهو ينشأ بعد أن يكتمل النص[4]، وعلم (نحو الجملة) لا يبحث عن البلاغة وأثرها في السامع، ويبحث (نحو النص) في الجوانب البلاغية لذلك فإن (نحو النص) ظهر عند القدماء وخاصة في التفسير، و(نحو النص) يهتم

---

(1) د.الأزهر الزناد، مرجع سابق، ص115.
(2) نفسه ص125.
(3) نفسه، ص14.
(4) د.أحمد عفيفي، مرجع سابق، ص74.

بالمكتوب ويبحث عن مناسبة النص وعن دلالة المقام، وهذا ما لا نجده في (نحو الجملة)[1].

وينظر الزناد إلى الفرق بين النحْوين من ثلاثة جوانب، الجانب الأول الموضوع، يرى أن موضوع (نحو الجملة) هو دراسة الجملة وضبطها، وموضوع (نحو النص) هو دراسة النصوص، وذلك لأن (نحو الجملة) يقتصر على ضبط مكونات الجملة، ولا يكشف عن علاقات الجمل في النص. والجانب الثاني المنهج ويختص (نحو الجملة) بتصنيف الجمل إلى اسمية وفعلية وبسيطة ومركبة، بالرجوع إلى الفكرة الصرفية، أما (نحو النص) فإنه يصنف النصوص وفق المضمون إلى نص أدبي وسياسي وقانوني. الجانب الثالث الغاية، ويقصد بها هدف النحوي أن يضبط الجملة والنص، ولكنه يرى أن الجمل تخضع لقواعد معيارية ويسهل ضبطها، أما النصوص لا تخضع لتلك القواعد وبالتالي تفلت من الضبط بسبب اختلاف المعايير الضابطة له عن ضوابط الجملة[2].

تلك هي رؤية علماء لسانيات النص في الفرق بين (نحو النص)، و(نحو الجملة) والتي جاءت من حيث الموضوع، والمنهج، والغاية. صحيح أن نحو الجملة يدرس الجملة، ولكن الجملة عندما تدخل في نص ما لا تتخلى عن كل خصائصها التركيبية واللفظية، ويحكمها العلاقة التي تنشأ عن ارتباطها مع غيرها من الجمل، هذه العلاقة يمكن أن تؤثر فيها ولكنها لا تغير كل القواعد التي تضبطها، أما من حيث المعايير التي تضبط النص فالجمل نفسها تساهم في هذه المعايير، وإن كانت هناك صعوبة في وصف أو ضبط النص فمردها إلى الاختلاف في مفهوم النص. والحق أن هناك تداخلاً بين النحوين (نحو الجملة) و(نحو النص) في وجوه كثيرة، هذا التداخل لا يفضي إلى الفصل بينهما على الإطلاق، وإنما يقود إلى بحث نقاط التلاقي، وبالتالي يتسع مفهوم النحو وهو أمر ممكن تسمح به مرونة اللغة.

اهتم المحدثون بتحليل البنية الزمنية في الجمل والنصوص، ويعد الزمن أحد الروابط المهمة بين الجمل في النصوص، يقول الزناد: "إن الملفوظ يصبح نصاً

---

[1] د. أحمد عفيفي، مرجع سابق، ص77.
[2] الأزهر الزناد، مرجع سابق، ص15.

عندما تترابط عناصره باعتماد عامل الزمن، أي عندما يتوفر فيه عنصر زماني ما يرتبط بزمان آخر معروف أو معطى عند السامع والمتكلم"[1]. جعل الزناد الزمن رابطا أساسيا من روابط الجمل في النصوص. قبل تحليل بنية النص الزمنية، لابد أن نقف على مفهوم الزمن النحوي، والفرق بينه والزمن الصرفي، من خلال تصور القدماء لزمن العربية، لأن ذلك التصور يقودنا إلى مفهوم الزمن اللغوي بشقيه الصرفي والنحوي، وهذا الأخير هو نفسه زمن النص.

اتفق النحاة القدماء على إسنادللزمن لصيغة الفعل، ويتبنى سيبويه تقسيماً ثلاثياً للأزمنة مع عدم الفصل بين الفعل وزمنه، فالفعل يفيد أحد ثلاثة أزمان المضي، أو الحضور، أو الاستقبال مع إرجاع هذا التناوب في الأزمنة إلى صيغ الفعل الثلاث: (فعل، يفعل، افعل)[2]، وبالتالي حد الفعل عند النحاة هو الحدث المقترن بزمان. وتابع سيبويه معظم النحاة، قال الزجاجي: " الأفعال ثلاثة فعل ماض وفعل مستقبل وفعل في الحال يسمى الدائم"[3].

ومنهم ابن يعيش الذي ربط بين زمن الفعل والزمن الفلكي، وقسم الأفعال إلى ثلاثة أقسام مستنداً إلى أقسام الزمان الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل[4]، أما ابن الأنباري فيحدد الزمن بوصفه محتوى دلالياً يعبرعن العلاقة بين زمن الوجود وزمن الإخبار، فالماضي يخبر عنه بعد زمن وجوده، والمستقبل يخبرعنه قبل زمن وجوده ويلتقي في الحاضر زمنا الوجود والإخبار[5].

هذه النظرة التي قال بها ابن يعيش يكاد يتفق عليها معظم القدماء، وكذلك ذهب ابن جني إلى أن الأفعال تعبر عن الزمن ببنائها[6].

يتبين من عرض رؤية النحاة القدماء، أنهم لم يقدموا نسقاً شاملاً يصف إمكانات العربية في التعبير عن الزمن، وأنهم لم يعالجوا قضايا الزمن التركيبية والدلالية في باب يخصه، وإنما توزعت ملاحظاتهم الزمنية على أبواب مختلفة، تلك الملاحظات

---

(1) الأزهر الزناد، مرجع سابق، ص173.
(2) سيبويه، مرجع سابق، ج/1، ص27.
(3) الزجاجي، مرجع سابق، ص27.
(4) ابن يعيش، مرجع سابق، ، ص116.
(5) ابن الأنباري، مرجع سابق، ج/2، ص224.
(6) ابن جني، مرجع سابق، ج/2، ص233.

تشير من جانب آخر إلى أن القدماء أدركوا أن الصيغ الفعلية (الثلاثية أو الثنائية) لا تقدم نسقاً شاملاً يستوعب تنوعات التعبيرات الزمنية في العربية، كما إنهم لاحظوا أن هذه الصيغ تتألف في بعض التراكيب مع أفعال أخرى وأدوات لتؤدي دلالات زمنية مركبة أكثر تعقيداً.

ركز القدماء على الأفعال باعتبار أنها أبنية تدل عل أقسام زمنية معينة، وإذا خرج الفعل عن دلالته الزمنية الصرفية في الجملة، ردوه إلى دلالته الزمنية مستندين على مبدأ (عارض يعرض)[1]، وهو مبدأ نحوي لأن الصيغة المفردة لا تتعرض لأي عارض وهي خارج السياق وهذا المبدأ متفرق في كتب القدماء، وعند تجميعه نجده يقوم على الآتي: نوع السياق والعامل مثل (إنْ) التي تحول الماضي إلى المستقبل والناظر إلى هذا المبدأ يجده لم يحسم قضية الإزدواجية الزمنية التي قال بها المحدثون، فعلى سبيل المثال زمن صيغة (فعل) في أسلوب الشرط عند القدماء هوالمستقبل، والسبب هو أداة الشرط [4]، ولكن مبدأ (عارض يعرض) من ناحية أخرى يكشف عن منهج زمني اتبعه القدماء، في الوقوف على الزمن النحوي للعربية.

سنعرض بعض آراء القدماء التي نرى أنها تنصب في البحث عن الزمن النحوي من خلال المعاني التي ذكروها للصيغتين (فعل) و(يفعل)، فقالوا إن بناء (فعل) يأتي للمضي وهو الغالب وللحال إذا قصد به الإنشاء، والاستقبال إذا اقتضى طلباً أو وعداً [3]، وكذلك ذكروا من معاني صيغة (فعل) الوقوع، أوالمشارفة، أوالإرادة أوالمقاربة وغيرها[4]. وعن صيغة (يفعل) قالوا يترجح فيه الحال إذا كان مجرداً ويتعين فيه الحال إذا اقترن بالآن أو ما في معناه، و يتعين فيه الاستقبال إذا اقترن بالسين أو بسوف، وأن ينصرف معناه إلى المضي، وأن يفيد الاستمرار وأن يدل على العادة، وأن يدل على الاستمرار في الماضي.

---

(1) أبو علي الشلوبين، مرجع سابق، ص114.
(2) أبوبكر بن السراج، مرجع سابق، ج/1، ص19.
(3) جلال الدين السيوطي، الهمع ج/1، ص22..
(4) جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر ج/1، ص213.

هذه المعاني التي ذكرت تشير بوضوح إلى أن القدماء بعد أن وضعوا الأقسام الزمنية الثلاثة ووزعوا الصيغ عليها، رجعوا وبحثوا في أمر الجهة الزمنية داخل السياق لكل صيغة، وقد بدأ ذلك سيبويه، وسار على دربه من تلاه من النحاة، فتكلموا عن الصيغة الفعلية في حال الإثبات وفي حال النفي، ذاكرين كل الأدوات التي تتوسل بها اللغة إلى معنى النفي، مثل الأداة (لم، ولما وما، ولا، ولن). ووضحوا الفروق الدقيقة بين هذه الأدوات في باب النفي الذي لم يخل منه مؤلف قديم[1]. وقد رد صاحب (الهمع) على من قال: "إن الماضي لا يقصد به إلا مطلق الماضي دون تعرض لقرب أو بعد فكذلك المستقبل، قال: رد عليه بقوله: "وهو ممنوع فإن الماضي فرقوا فيه"[2].

يمكن القول إن القدماء لهم نظر ورأي في الزمن المرتبط بالجملة، مبثوث في أبواب مؤلفاتهم تلك الآراء تؤكد أنهم أعادوا النظر في التوزيع الصرفي للصيغ على الأقسام الزمنية الرئيسة الماضي، والحاضر، والمستقبل، ووصلوا إلى أن تلك الصيغ تدل في السياق على أزمنة أخرى تعد تفريعات عن القسم الزمني الواحد.

إذن للنحاة القدماء منهج في تحليل الزمن، يرجع أساساً إلى الربط بين الصيغة والزمن ولما فعلوا ذلك عاملوا كل تحقق للصيغة دال على معنى يخالف زمنها المجرد بوصفه استعمالاً خاصاً، ومن الاستعمالات الخاصة أن صيغة (فعل) تفيد الحال، أو الاستقبال، كما تفيد (يفعل) تعيين الحال إذا اقترنت بـ(الآن)مثلاً، وتفيد ترجيح الحال عند تجردها، وتعين الاستقبال مع السين وسوف، والمضي مع (لم)، والنفي المستمر مع (لن)، والاستمرار في الماضي مع (كان) كما لاحظ النحاة تبدلات الزمن بين الأساليب اللغوية، مثل أسلوب النفي، والإثبات وأسلوب الشرط وردوا تلك التبدلات للأدوات.

يتضح من منهج القدماء في تحليل الزمن أنهمركزوا على الصيغة الصرفية أولاً ثم نظروا إلى تغيرات الصيغ الزمنية داخل التركيب وحددوا زمنها عن طريق الإحالة على الأفعال المساعدة أو الظروف والأدوات، وهذه خطوة مهمة في طريق التحليل الزمني للنصوص والذي يبدأ بالنظر إلى الجملة ثم إلى النص كاملاً.

---

[1] سيبويه، مرجع سابق، ج/3، ص117.
[2] جلال الدين السيوطي، الهمع، ج/2،ص72.

بعد الحديث عن تصور القدماء لزمن العربية، نتناول آراء المحدثين ورؤيتهم لزمن العربية والتي نعدها الخطوة الثانية في اتجاه التحليل الزمني للنصوص، لأنهم تبنوا مفهوم الزمن النحوي وهو نفسه المفهوم الذي يرتكز عليه التحليل الزمني للنص لأن زمن النص زمنٌ نحويٌ.

وجَّه المحدثون نقداً للنحاة القدماء، وقصدوا إلى بناء النحو بناءً جديداً يقوم على المنهج الوصفي، وخصوصاً في مسألة الزمن التي انبرى لدراستها عدد من المحدثين على اختلاف نظراتهم، ومن هؤلاء إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو) الذي نادى فيه بإلغاء العلل والعامل، ومن المؤلفات أيضاً (في النحو العربي نقد وتوجيه) لمهدي المخزومي و(الفعل زمانه وأبنيته) لإبراهيم السامرائي، وتمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) وغيرها. وكل هذه الدراسات أجمعت على أن القدماء ركزوا على الزمن الصرفي، وأهملوا الزمن النحوي.

نعرض ما أخذه المحدثون على القدماء في قضية زمن العربية وملاحظاتهم لتكون مدخلاً للحديث عن زمن النص، والباحث يميل دائماً إلى الكشف عن العلاقة بين الزمن الصرفي والزمن النحوي لأنهما معاً يشكلان زمن النص اللغوي.

قال كراوس بعد أن درس اللغات السامية دراسة تاريخية:" إن (يفعل) في الساميات موجود غير مقيد بزمن، ثم نشأ (فعل) بعد ذلك وبهذا انقسمت المادة اللغوية إلى قسمين، فوزن (فعل) يطرد وزن (يفعل) من الماضي حتى يصير استعماله - أي يفعل-شيئاً فشيئاً مستقبلاً فقط"[1]. وذكر برجشتراسر:" إن نفي الماضي القديم في العربية هو لم يفعل والحديث ما فعل"[2]. وهكذا يعتقد المستشرقون وجود صيغة فعلية واحدة هي صيغة المضارع التي كانت تعبر عن جميع الأزمنة.

ناقش النحاة المحدثون أقوال المستشرقين وردوا عليها ردوداً مختلفة، بعضها انطلق من أن هذه الأقول اتهام للعربية بالنقص فرد مدافعاً، وبعضها الآخر آثر التروي والدراسة فجاء رده موافقاً في بعض الجوانب. من ذلك قول إبراهيم

---

[1] برجشتراسر، مرجع سابق، ص113.

[2] نفسه، ص 114.

السامرائي:"إنه ليس صحيحاً ما يقوله جماعة من الباحثين الأعاجم من أن الزمان ليس شيئاً أصيلاً ، وإنَّ اقتران الفعل العربي به حديث النشأة"[1].

وأرى أن الرد على أن اقتران الفعل العربي بالزمن حديث النشأة، كان يجب أن ينطلق من الدراسة التاريخية للفعل في اللغة العربية، لأن من المستشرقين من درس اللغات السامية من وجهة التاريخ، وكذلك يكون الرد من نتاج الدراسة الوصفية لعلاقة صيغة الفعل بالزمن، والتي تشير بوضوح إلى عدم وجود ثبات في تلك العلاقة، بل إن السياقات اللغوية هي التي تتحكم فيها وعليه فإن للعربية زمناً نحوياً له سماته ووسائله التعبيرية، كما أن الزمن الصرفي لا يمكن فصله عن الزمن النحوي البتة. وهذا ما فعله إبراهيم السامرائي نفسه، بعد أن تابع الفعل في العربية متابعة دقيقة، وعلاقته بالزمن، عاد فقال: " ونستدل من البحث في تاريخ النحو على أن الأقدمين فصلوا القول في هذا وأنهم استفادوا الاستدلال على الزمان من صيغ عدة"[2].

وممن ردوا على المستشرقين إبراهيم أنيس، الذي قال: "إنَّ كل ما أخذه المستشرقون على العربية أن ثلاث صيغ أو صيغتين تعبران عن كل هذه الأزمنة والواقع أن الأساليب العربية تعبر عن كل هذه الأزمنة جميعاً"[3]. وقال في موضع آخر: "إنَّ الربط بين الصيغ والفكرة الزمنية غير وثيق في اللغات السامية، وإنَّ ربط الصيغة بزمن معين يحملنا في العربية على الكثير من التكلف والتعسف"[4].

يتضح من كلام إبراهيم أنيس أن زمنَ العربية مربوط بالأساليب المختلفة، ولكن الحديث ليس عن كيفية تعبير الأساليب عن الزمن، وإنما الحديث عن علاقة الصيغ الفعلية بالزمن، واللغة الزمنية كما يرى فندريس هي التي تنطوي على سلم من الأزمان المتنوعة يستند إلى الصيغ أو إلى نسق من الصيغ البسيطة أو المركبة[5].

يرى فندريس أن اللغة الزمنية لا تعتمد على الأساليب في الكشف عن الزمن، في حين يرى أنيس خلاف ذلك، وهذا يعني أن كليهما نظر من زاوية مختلفة، ولكننا لا

---

(1) د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص23.
(2) د.نفسه، ص24.
(3) د.إبراهيم أنيس، الزمن في اللغة مسائل، ص50.
(4) د.إبرهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص173.
(5) فندريس، مرجع سابق، ، ص130.

نميل إلى الحكم بأن لغة ما زمنية ولغة ما غير زمنية، فلا توجد لغة لا تحمل إشارات زمنية، ولكن ما نرمي إليه هو معرفة كيف تعبر العربية عن الزمن، بالصيغ فقط أم بوسائل أخرى، وهذه هي النقطة التي لم يقف عندها المستشرقون كثيراً.

وأورد العقاد:"من قبيل هذا النقص ما نسب إلى لغتنا من نقص الدلالة على الزمن"[1]. ولكن المستشرقين لم يرموا العربية بعدم القدرة على الإفصاح عن الزمن في كل أساليبها، ولكنهم قالوا بذلك في صيغ العربية فقط، وبعد دراستهم البنية الفعلية للغات السامية، أجمعوا على أن تعبير الفعل في هذه اللغات محدود جداً، وهذا يعني - إن صح أن هناك نقص- فالنقص الذي قصده المستشرقون نقص أشكال الفعل في الدلالة على الزمن، وليس نقص اللغة في التعبير عن الزمن. والذي نميل إليه أنه لا توجد لغة فيها نقص، أو لغة متفوقة ولكن الأمر كله يرجع إلى التنظيم اللغوي والقدرة على كشف دقائق اللغة.

ومن اللغويين من نظر إلى نقد المستشرقين من زاوية منهجية، ولم ير أنها عيب رميت به العربية كما فعل مهدي المخزومي عندما تناول آراء (وليم رايت) الذي يقول: "إنَّ الصيغَ الزمنية في العربية صيغتان اثنتان فقط، إحداهما تعبر عن حدث تم وكمل من حيث صلته بغيره من الأعمال والأخرى تعبر عن حدث لم يتم، حدث ابتدئ به واتصل أحداثه ولم ينته بعد"[2].

ويعني هذا أن العربية إذا أرادت التعبير عن الماضي المطلق، والماضي التام والماضي غير التام، لم تجد من الأبنية إلا بناء (فعل)، للتعبير عما لا يعبر عنه في الإنجليزية إلا بعدة صيغ وإذا أرادت التعبير عن المستقبل، باختلاف مجالاته الزمنية لم تجد إلا بناء (يفعل) للتعبير عن الحاضر والمستقبل، وعليه تكون العربية قد أهملت المجالات الزمنية التي يتضمنها الزمن الواحد كالماضي مثلاً، ولم يكن لديها من الأبنية ما تعبر به عن تلك المجالات.

وقد صرح (رايت) بهذا في قوله: "إن كلمتي (ماض) و(مستقبل)، وهما الكلمتان اللتان أطلقتهما كتب النحو القديمة على هاتين الصيغتين، لا تنطبقان انطباقاًدقيقاً على

---

[1] مجلة مجمع اللغة العربية، مقال: الزمن في اللغة العربية، ص44.

[2] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص145.

الأفكار التي تتضمنها، إن الماضي السامي أوالمضارع السامي، ليس له في حد ذاته أية صلة بالعلاقات الزمنية عند المتكلم أو المفكر ... ولم ينجح النحاة العرب في أن يثبتوا هذه النقطة المهمة في وضوح، ولكنهم علقوا أهمية لا ضرورة لها على فكرة الزمن في ذاتها وارتباطه بأشكال الفعل وذلك بتقسيم الزمن إلى الماضي والحاضر والمستقبل، ثم خصوا الفعل الماضي بفكرة الزمن الماضي والفعل المضارع بفكرتي الزمن الحاضر والمستقبل"[1].

ردَّ المخزومي على (رايت) بقوله: "ويبدو إن (رايت) كان ينظر إلى تقسيم سيبويه وتقسيم ابن يعيش، وإنه على حق في ملاحظته أن النحاة لم يعيروا دلالة الفعل على الزمن ما ينبغي أن تعار لأن النحاة لم يقسموا الفعل بحسب ما يدل هو عليه من مجالات زمنية مختلفة، ولم يجعلوه ثلاثة أقسام إلا لأن الزمان ثلاثة أقسام، حركة ماضية، وحركة آتية وحركة تفصل بين الماضية والآتية، على حد تعبير ابن يعيش"[2]. واستمر المخزومي إلى أن قال: "وإذ رأى (رايت) ما قصَّر فيه جهد النحاة في الاستعمالات ظن هذا هو واقع اللغة، وواقع استعمالات الفعل العربي وفاته ما فات النحاة القدماء أيضاً من نظر إلى تعبيرات مختلفة طواها إهمال النحاة وخلطهم فيها فقرر في عجل أن (فعل) و(يفعل) هما سبيل العربية الوحيدة في التعبيرعما يعبرعنه بعدة صيغ في غير العربية ومنها الانجليزية"[3].

يبدو أن مهدي المخزومي تناول الأمر بعد دراسة ومعرفة بالناحية التي درس منها (رايت) زمن العربية، وهي الناحية التاريخية، لذلك جاء رده منصفاً وأشار فيه إلى أن الفعل العربي الآن ليس هو الفعل العربي القديم، فقد حدث في الفعل تطور كبير وأصبح قادراً على التعبير عن الزمن بكل مراتبه، من خلال المركبات الزمنية، وهو بهذا الكلام يضع لبنة مهمة في التعريف بالزمن النحوي وصلته بالمعنى.

وخلاصة الأمر إن النحاة المحدثين يرون أن النحاة القدماء والمستشرقين نظروا إلى زمن العربية من الجانب الصرفي فقط، وبالتالي فإنها نظرة جزئية، ولكن من

---

[1] د. مهدي المخزومي، مرجع سابق، ص146.
[2] انفسه، ص147.
[3] نفسه، ص147

ينظر إلى كتابات المستشرقين يجد أنهم اهتموا بالسياق ولم يغفلوا أمره، فقد نص بروكلمان على" أن استعمالات زمن الماضي والمضارع تذكر بالتفصيل في علاقات الجملة"[1]. وواضح أن بروكلمان يعني بعلاقات الجملة السياق الذي ترد فيه الصيغ الفعلية، وهذا هو عين الزمن النحوي الذي ينادي بدراسته المحدثون.

وأشار (رايت) إلى ما أطلق عليه (العلاقات الزمنية) وإشارته هذه جاءت بعد دراسته للزمن النحوي في اللغات السامية، وأقر بأن هذه العلاقات الزمنية نفسها هي التي تحدد المجال الزمني الذي يقع فيه الفعل التام أو غير التام في اللغات السامية[2]. وهذا يعني أن (رايت) قام بفحص البنية الزمنية في اللغات السامية ووصل إلى أن هذه البنية تتألف من الأفعال وما يحيط بها من علاقات.

يرى الباحث أن المستشرقين أسقطوا على العربية قواعد لغاتهم، وما توظفه من مفاهيم وصفية مثل التمام وعدم التمام، وعدوا العربية لغة (جهية) لا زمنية، يفيد فيها التناوب الصيغي بين (فعل) ويسمونه التام، و(يفعل) ويسمونه غير التام الجهة الزمنية، أما الزمن فلا تتضمنه هذه الصيغ. ولكن المستشرقين درسوا اللغات السامية القديمة ثم عمموا النتائج على العربية بعد أن قطعت مراحل من التطور، ولم يطيلوا فحص الإشارات الزمنية التي تنبعث من الجمل والسياق.

نذكر كذلك النقاط التي أخذها نحاة العصر الحديث على القدماء، وأولها: التقسيم الثلاثي للفعل المنبني على أقسام الزمان، وهذا من وجهة نظرهم قاد القدماء إلى الخلط بين ما هو فلسفي وما هو لغوي. يقول المخزومي: "لقد وضع ابن يعيش أقسام الزمان الفلسفي أساساً لتقسيم الفعل ولكنه فشل في تطبيق ما أثبت وقرر"[2]. وخرج المخزومي بحكم عام مفاده أن النحاة لم ينجحوا -على حد تعبيره - في تصور أن الزمن النحوي ليس كالزمن الفلسفي[3]. وثانيها: أن خلاصات القدماء هي التي جعلت المستشرقين يصفون العربية بالفقر الزمني، وأن المنهج القديم اتسم بالإزدواجية الزمنية، وذلك لأنهم جعلوا للصيغ زمناً خاصاً بها خارج السياق. وثالثها: قولهم أن

---

(1) بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص113.
(2) نفسه ص33.
(3) د.مهدي المخزومي، مرجع سابق، ص113.
(4) نفسه ص167.

المنهج القديم يتصف بنقص المصطلحات الزمنية مثل: الماضي المستمر، والماضي المنقطع.

ولمناقشة ما وجهه المنهج الحديث من نقد للقدماء، نبدأ بالنقطة الأولى والتي تشير إلى أن القدماء مزجوا بين الفلسفي أوالمنطقي واللغوي عند تقسيمهم للفعل، في هذا الجانب أرى أن القدماء لم يخلطوا بين اللغوي والفلسفي، لأن العلاقة بين الزمن الفلسفي والزمن اللغوي في هذه النقطة قوية جداً والفصل بينهما أمرٌ عسير، أما عن أنهم تناولوا الدلالة الزمنية من خلال صيغة الفعل الصرفية، وألصقوا بالفعل دلالة زمنية قبل أن يدخل السياق، وبالتالي لو أنهم لم يفعلوا ذلك لتفادوا الاضطراب المنهجي الذي وقعوا فيه. هذه الملاحظة صحيحة ولكن ليس على إطلاقها فقد رأينا أن منهج القدماء الزمني اهتم بالزمن النحوي من خلال الإحالة على المركبات الزمنية والأدوات والظروف.

وفيما يخص المصطلحات الزمنية مثل الماضي المنقطع أو المستمر والذي يرى المنهج الحديث أن القدماء انشغلوا بنظرية العامل والإعراب، ولم يروا تلك الفروق الزمنية داخل السياق، نرى أن أقسام الزمن ثابتة والفروق تكمن في الجهات، وإلى ذلك أومأ تمام حسان بقوله: "الأزمنة ثلاثة والفروق فروق جهة"[1]. والمتصفح لكتب القدماء يجد أنهم لم يغفلوا أمر الفروق الزمنية بين الأقسام الأساسية، فذكروا مصطلح الاستمرار، والتام وغيره. والأمر كله يرجع إلى من يقوم بلملمة أجزاء الجدول الزمني من منهج القدماء وسيجد تلك المصطلحاات الزمنية.

إِنَّ نقد المحدثين للمستشرقين والقدماء يمثل الباب الذي ندخل منه إلى محاولة تحديد مفهوم الزمن النحوي، وتلمس سماته وخصائصه التي تميزه، وأول ملاحظة نبدأ بها في تجميع سمات الزمن النحوي هي: رؤية برجشتراسر والتي مفادها أن العربية من أغنى اللغات السامية في مجال التعبير عن الزمن، فقد أكد أن العربية لها نظام زمني دقيق، لا يستند إلى الصيغ الصرفية فحسب، ولكن يقوم على المركبات الزمنية، التي تتكون من الصيغ الفعلية البسيطة مضافاً إليها القيود الزمنية والأفعال

---

[1] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ملحق الكتاب، جدول رقم1.

المساعدة[1].تلك المركبات الزمنية أقرها وقال بها كل النحاة ونادوا بضرورة مراعاة أثر الاستعمال على التلازم بين (كان) والصيغة الفعلية، وعدم الفصل بينهما وجعلهما مركبا له دلالة واحدة يعبر جزآءه عن وقوع الحدث.

إن ما قصده المحدثون نقطة مهمة، لأن المركب الزمني له دلالة مختلفة عن دلالة الصيغة وهي مفردة، وإلا فلا حاجة تدعو إلى وجود هذه المركبات إن لم يكن لها تأثير في زمن الصيغة المفردة، وعليه فإن هذه الأفعال المساعدة أو القيود والأدوات التي تتركب مع الأفعال وتصبح جزءاً منها تؤثر في معنى الفعل الزمني إما بتحديده أو تخصيصه، أو بإضافة دلالة جديدة وربما تؤدي إلى تغيير القسم الزمني الذي تشير إليه الصيغة الفعلية.

قال الجرجاني نقلاً عن ابن الأنباري: "ركب الكندي الفيلسوف إلى أبي العباس وقال له:إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس في أي موضع وجدت ذلك؟ أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني"[2].

إذن المركبات الزمنية جاءت لتعبر عن الحدث تعبيراً يغاير تعبير الفعل المفرد وحده فقد ألحقت العربية (قد) ببناء (فعل) ليدل المركب على معنى زائد على ما يدل عليه البناء المطلق.

وتحدث السامرائي عن اختلاف الزمان باختلاف التراكيب التي جرت في العربية ومع نقده للقدماء بأنهم إذا أبصروا (كان) في كلام فلابد أن يتبينوا نقصها ويشيروا إلى اسمها وخبرها وعنايتهم بهذا جعلتهم لم يلمحوا هذه المركبات، التي حفلت بها العربية لتستعين على الإفصاح عن الزمان، رجع والتمس لهم العذر فقال: "وقد انتثرت في كتب النحو القديمة أجزاء من معلومات يتألف من مجموعها مادة مفيدة فقد

---

[1] برجشتراسر، مرجع سابق، ص57.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص67.

ذكروا أن قد تفيد التحقيق،...."[1].وذكر أقوالاً كثيرة لسيبويه ولابن هشام ولابن يعيش ولابن عصفور كلها تشير إلى أن للعربية زمناً آخر غير زمن الصيغ المفردة.

من خلال هذا العرض يمكن أن نصل إلى تعريف للزمن النحوي كما يراه المعاصرون وأشمل تعريف وقفت عليه هو تعريف تمام حسان: " الزمن النحوي وظيفة في السياق يؤديها الفعل، أو الصفة، أو ما نقل إلى الفعل من الأقسام الأخرى للكلم كالمصادر والخوالف"[2].

وافق معظم المحدثين على أن الزمن النحوي ينظر إليه من خلال السياق، بغض النظر عن الاختلاف في التفصيلات الدقيقة في تحديد الزمن، والتي سنتناولها في مكانها عند التطبيق. وعليه فإن الزمن النحوي يتميز بهذه الصفات:

1- وجود علاقة تربط بين الزمن الصرفي والزمن النحوي، وقد نادى المحدثون بأهمية التفريق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي، يقول تمام حسان: "يدل الفعل على اقتران أمرين أحدهما حدث تعبر عنه الحروف الأصلية ويلخصه مصدر الفعل والثاني زمن تدل عليه صيغة الفعل وهذا الزمن الذي تدل عليه الصيغة عند الإفراد زمن صرفي، لأن الصيغة بمفردها مفهوم صرفي بحت، أما عندما توضع هذه الصيغة في سياق الجملة فإن هذا الزمن الصرفي يجري تجاهله وينشأ في بيئته زمن آخر نحوي لا يتحتم أن يطابقه"[3].

ويظهر من هذا القول أن التفريق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي في الجملة يساعد على بيان الزمن النحوي، ويبدو أن تمام حسان وكل من نادى من المحدثين بالتفريق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي، لا يريدون التفريق ضد الاجتماع، وإنما المراد معرفة مفهوم وحدود كل من الزمنين الصرفي والنحوي داخل السياق. وعبارة (يتم تجاهله)ليس المراد منها إلغاء الزمن الصرفي، أو إبعاده تماماً من حقل الزمن اللغوي، لأن الزمن اللغوي فيه جانب صرفي وآخر نحوي لا يمكن الفصل بينهما، ومن المفيد هنا أن نذكر رؤية مالك المطلبي التي تنصب في إطار الصلة بين

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص26.
[2] د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص241.
[3] د.تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، القاهرة، ط/3، 2006م، ص61.

الزمن الصرفي والزمن النحوي، فهو يرى أن المحدثين نظروا إلى الزمن النحوي من خلال مفهوم الجملة، وليس من خلال شكل الصيغة، ولكن ربط الزمن ربطاً تاماً بالسياق دون النظر إلى الصيغة قد يوقع في بعض الأخطاء - على حد عبارة المطلبي- فالصيغة قد تأمر بحدث، أو تقرر حدث أو تتخيل حدث، والسياق بإمكاناته يوجه زمن الصيغة أو يحدده أو يغير القسم الزمني للصيغة[1].

إذن المراد بالتفريق بين الزمنين الصرفي والنحوي، معرفة عناصر كل زمن والعلاقة التي تربطهما وليس الفصل بينهما، والملاحظة تؤكد أن الصيغ الصرفية تستمر في التعبير عن زمنها الصرفي داخل السياق، في بعض الجمل وتنحرف عن هذا الزمن في جمل أخرى، ومن ثم ينظر إلى زمن الصيغة الصرفية بعين النحوي، الذي يتناول السياق كاملاً بما فيه من مركبات زمنية وظروف وأدوات، وحينها يصبح زمن الصيغة الصرفية البسيطة زمناً نحوياً.

2- الزمن النحوي زمن تعددي، المقصود بتعدد الزمن النحوي أن الفعل بصيغته يعبر عن قسم زمني واحد، قد يكون هذا القسم الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل ولكن هناك تفريع زمني لا تفصح عنه الصيغة المفردة، وبالتالي فهي في حاجة إلى ما يعينها في الكشف عن الزمن، هذا الكشف يتم بوسائل متعددة ومختلفة.

يقول السامرائي: "إن الفعل العربي لا يفصح عن الزمان بصيغتة، وإنما يتحصل الزمان من بناء الجملة، فقد تشتمل على زيادات تعين الفعل في تقرير الزمان في حدود واضحة"[2]، قول السامرائي (لا يفصح عن الزمان بصيغته) يشير إلى تعدد الزمن النحوي، وعند الرجوع إلى مؤلفات القدماء والمحدثين، نجد ما يؤكد هذه الصفة التي اتصف بها الزمن النحوي، فقد أشاروا جميعاً إلى تعدد معاني صيغتي (فعل ويفعل) كما أشاروا أيضاً إلى المركبات الزمنية، وإلى دور السياق في توجيه الدلالة الزمنية، ويمكن أن نذكر بعض الأمثلة التي تدلل على تعدد الزمن النحوي، دون تفصيل لأن ذلك سيكون في الدراسة التطبيقية.

---

[1] د.مالك المطلبي، الزمن واللغة، ص121.

[2] د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص24.

أولاً صيغة فعل: تدل صيغة فعل على وقوع الحدث في زمن غير محدد يحتمل أكثر من جهة وقد قال النحاة أن صيغة (فَعَلَ) قد تدل على جهة في الماضي، وقد تدل على قسم زمني آخر غير الماضي، ولكن هذا يكون داخل السياق الذي ترد فيه مرتبطاً بالقيود الزمنية التي تأتلف مع هذه الصيغة.

وخير مثال على تعدد الزمن النحوي، قوله تعالى:((أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ))[1]، جاء في البحر المحيط قوله: "أتى أمر الله هو يوم القيامة على قول الجمهور ... وأتى قيل: باق على معناه من المضي، والمعنى أتي أمر الله وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً وقيل:عبر بالماضي عن المضارع لقرب وقوعه وتحققه ... والظاهر عود الضمير في لا تستعجلوه على الأمر لأنه المحدث عنه"[2].

الفعل (أَتَى) بصيغته التي هي على زنة (فعل) يدل على الزمن الماضي التام المطلق ولكن وروده في هذا السياق يفرض عليه دلالة الاستقبال بالقرينة (فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ) لأنها تشير إلى المستقبل.

وهنا لايمكن تفريغ الفعل (أَتَى) من دلالته الصرفية، والاعتماد على السياق فقط، لأنها مقصودة لذاتها وإلا كان يمكن أن يقول الله (سيأتي)، كما لايمكن الاعتماد على الدلالة الصرفية فقط دون دلالة السياق، يبقى لا مفر من الجمع بين الدلالتين والمراد إذن توظيف صيغة الماضي في معنى الاستقبال متضمنة معنى الماضي. ويكثر مثل هذا في الأمور القطعية التي لا شك في وقوعها.

تؤكد الدلالة الزمنية لصيغة (فعل) في الآية السابقة أن دلالة السياق على الزمن النحوي لا تنفصل عن دلالة الصيغة الصرفية فهما متعالقتان، ولا تلغي إحداهما الأخرى أو تفرغها من محتواها الزمني.

ويتركب مع (فعل) عدة قيود زمنية تحدد الجهة مثل: قد، وكان، وغيرها، ومن أهم هذه المركبات: (كان فعل) و(قد فعل).تكلم النحاة القدامى والمحدثون كثيراً عن (كان)منفردة، منهم من صنفها فعلاً ومنهم من عدَّها اسماً، ومنهم من رأى أنها أداة زمنية فحسب، ولكن ما يهمنا هو علاقتها بالزمن، ألصق سيبويه بـ(كان) دلالة

---

[1] سورة النحل، الآية 1.

[2] أبو حيان، البحر المحيط، ج/7، ص213.

زمنية ماضية في قوله: "وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى"[1]. وجاء في الإنصاف: "على أننا لانقول إن (كان) بمنزلة (ضرب) فإن (ضرب) فعل حقيقي يدل على حدث وزمان، وأما (كان)فليس فعلاً حقيقياً بل يدل على الزمان المجرد من الحدث"[2]، كلام ابن الأنباري عن تصنيف (كان) إلا أنه أشار إلى الناحية الزمنية في (كان).

يدل الفعل (كان) في الغالب الأعم على الماضي أي أن الحدث حصل ووقع، ولكن التعدد الزمني لـ(كان)يأتي تبعاً للقرائن السياقية، فقد يراد بها الماضي المنقطع، وقد يكون الزمن متوقع الحدوث في الماضي وذلك لوجود قرينة في السياق، جاء في الخصائص: "كان زيد سيقوم أمس أي كان متوقعاً منه القيام فيما مضى"[3].

أما عن دلالة المركب (كان فعل) فقد يرد هذا المركب في أسلوب الشرط، وأسلوب الشرط عده سيبويه دالاً على المستقبل لأن الشرط عنده قرينة مستقبلية[4] أما الفراء فقال: "إن قولك إن كنت تعطيني سألتك كقولك: إن أعطيتني سألتك"[5]، لم يقدم الفراء تفسيراً واضحاً لزمن (كان) وجعلها مندرجة تحت القيم النحوية لأسلوب الشرط، أما المبرد قال: "(إن) تقلب الماضي إلى الاستقبال إلا (كان) وحدها فإن (إن) لا تقلب ماضيها إلى معنى الاستقبال ..."[6]. أدرج المبرد أسلوب الشرط تحت القيم النحوية (لكان) بخلاف الفراء، وكأنه يشير إلى أن زمن (كان) في هذا الأسلوب هو الماضي.

ويرى تمام حسان أن المركب (كان فعل) يشير إلى الماضي المنقطع البعيد[7]، وعند المخزومي يشير إلى الماضي البعيد[8].

وتتركب (كان) مع صيغة (يفعل) ويكون لها عدة دلالات زمنية، يقول إبراهيم السامرائي: "قد يأتي بناء يفعل مسبوقاً بكان، للدلالة على أن الحدث كان مستمراً في

---

(1) سيبويه، مرجع سابق، ج/4، ص45.
(2) كمال الدين بن الأنباري، مرجع سابق، ج/2، ص821.
(3) ابن جني، مرجع سابق، ج/3، ص332.
(4) سيبويه، مرجع سابق، ج/4، ص325.
(5) أبو زكريا الفراء، معاني القرآن ج/2، ص605.
(6) أبوبكر بن السراج، الأصول في النحو ج/2، ص129.
(7) د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 56.
(8) د.مهدي المخزومي، مرجع سابق، ، 56.

زمن ماض ومجيئ كان إلى جوار الفعل يؤلف مركباً يؤدي هذه الفائدة، نحو: كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بمعاملة الجار بالحسنى"[1].

ومن الأبواب النحوية التي تدلل على تعدد الزمن النحوي (باب النفي)، فقد نص النحاة على أن (لما) أداة نفي تدخل على الفعل المضارع، لتدل معه على معنى يختلف عن معناه حين تدخل عليه (لم)، فـ(لم) تدخل على الفعل المضارع لتبقي حصول مضمونه في الماضي، أما (لما) فتدخل عليه لتبقي حصوله في الماضي أيضاً ولكنها تشير إلى أن هذا النفي مستمربلا انقطاع إلى زمن التكلم وهو الحاضر.

يقول مصطفى الغلاييني: "لم ولما تسميان حرفي نفي وجزم وقلب لأنهما تنفيان المضارع وتجزمانه، وتقلبان زمانه من الحال أو الاستقبال إلى المضي، فإن قلت: لم أكتب أو لما أكتب كان المعنى انك ما كتبت فيما مضى"[2].

كذلك مما يوضح تعدد الزمن النحوي كلام النحاة في أفعال المقاربة أو الشروع، ولننظر في دلالة (كاد) الزمنية، أقر معظم النحاة أن (كاد) تدل على المقاربة أي قرب وقوع الحدث، إذا قلت: كاد زيد يقوم، فمعناه إنه قارب القيام ولكن لم يقم، إذا قلت: ما كاد زيد يقوم فالذي يقتضيه أصل الوضع أن يكون المعنى إن القيام لم يكن من أصله، ولا قارب أن يكون، ولكن دلالته بعرف الاستعمال ليست كذلك فقد جرى العرف أن يقال:ما كاد يفعل ولم يكد يفعل في فِعل قد ذُعِل على معنى أنه لم يُفعل إلا بعد الجهد وبعد أن كان بعيداً في الظن أن يفعله[3].

وقال ابن هشام متحدثاً عن (قد): "من معانيها أنها تقرب الماضي من الحال، تقول: قام زيد فيحتمل الماضي القريب والبعيد، فإن قلت: قد قام اختص بالقريب"[4].

إن الأقوال والأمثلة المذكورة عن صيغتي (فعل) و(يفعل) وعن (كان) وما يتركب معها وعن النفي بـ(لم ولما) و(قد) على قلتها تدلل على تعدد الزمن النحوي في اللغة العربية.

---

[1] د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص34.
[2] مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية ج/2، ص300.
[3] د.فاضل السامرائي، معاني النحو ج/3، ص123.
[4] ابن هشام، مغني اللبيب ج/1، ص137.

3-يتأثر الزمن النحوي أحياناً بالمادة المعجمية للصيغة، للمادة المعجمية للصيغة الفعلية أثر على الدلالة الزمنية ويتضح ذلك في بعض الصيغ الفعلية مثل الأفعال (استمر، وخلا، و بقِي) هذه الأفعال تندرج حسب صيغتها تحت قسم الزمن الماضي ولكنها تتحول بمادتها المعجمية إلى جهات في الماضي[1]. ففي قوله تعالى: ((سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً))[2]، المركب (قد خلت) يشعر بالبعد الناتج من مادة الفعل (خلا)مضافاً إليه الظرف (من قبل)، وأعتقد أن الفعل (خلا) دخل في هذا الدلالة الزمنية لهذه الآية بمادته المعجمية، وكأنه ينطوي على إشارتين إلى الزمن بصيغته الصرفية وبمادته المعجمية، ويتضح المعنى أكثر إذا وضعنا مكان الفعل (خلا) الفعل (مضى) الذي يقارب (خلا) في المعنى المعجمي وجدنا المعنى مختلف، فالمادة إذا تضمنت حدثاً ممتداً فإنها تفيد في تحديد الجهة في القسم المعني.

ويرى مالك المطلبي أن الأفعال (ما زال، وما دام، وما برح، وما انفك،وظل، وأصبح وأضحى) التي أطلق عليها النحاة الأفعال الناقصة هي قرائن زمنية وأنها تفيد في الجهة الزمنية بمادتها المعجمية بغض النظر عن أشكالها، ولا يوجد تعارض بين دلالة الصيغة على الحدث ودلالة مادة الصيغة نفسها على الجهة الزمنية[3].

4- يعبر عن الزمن النحوي بالصيغ الفعلية وبالصيغ غير الفعلية، نعني بالصيغ غير الفعلية المصدر وصيغة (فاعل)، هذه الصيغة اختلف النحاة في تسميتها ما بين الفعل الدائم أو اسم الفاعل أو صفة الفاعل.والمهم أنهم جميعاً اتفقوا على أن صيغة (فاعل) تحمل سمات اسمية وأخرى فعلية، وأنها تعمل عمل فعلها، وتدل على الزمن الماضي أو الحاضر أوالمستقبل.

قال الغلاييني معرفاً اسم الفاعل: "صيغة تؤخذ من الفعل المعلوم لتدل على معنى وقع من الموصوف بها، أو قام بها على وجه الحدوث لا الثبوت ككاتب ومجتهد وإنما قلنا على وجه الحدوث لتخرج الصفة المشبهة، فإنها قائمة بالموضوف بها على

---

[1] د.مالك المطلبي، الزمن واللغة، ص176.
[2] سورة الفتح الآية 23.
[3] د.مالك المطلبي، مرجع سابق، ص179.

وجه الثبوت فمعناها دائم ثابت كأنه من السجايا والطبائع اللازمة، والمراد بالحدوث أن يكون المعنى القائم بالموصوف متجدداً بتجدد الأزمنة والصفة المشبهة عارية من معنى الزمان"[1]. يقر الغلاييني دلالة اسم الفاعل على الزمن لأنه متجدد، ووافقه على ذلك عدد من النحاة موافقة تامة في التجدد والتغير في اسم الفاعل.

أما عن عمل اسم الفاعل فقد أكد عمله القدماء والمحدثون، ومنهم سيبويه الذي تناول عمل اسم الفاعل ورأى أن اسم الفاعل المجرد يعمل عمل فعله من الرفع أو النصب، إن كان مستقبلاً أو حالاً نحو:هذا ضاربٌ زيداً غداً، فمعناه وعمله هذا يضرب زيد، وإذاحدَّث عن فعل في حين وقوعه غير منقطع كان كذلك، وذلك قولك: هذا ضاربٌ عبد الله الساعة، فمعناه وعمله هذا يضرب عبد الله الساعة، فهذا كله أجري مجرى الفعل المضارع في العمل والمعنى، وأشار سيبويه بأنك إذا أردت في اسم الفاعل من المعنى ما أردت في (يفعل) كان منوناً نكرة[2].

وضع سيبويه قاعدة لعمل اسم الفاعل، تتلخص في أن اسم الفاعل العامل يوافق الفعل المضارع في الحركات والسكنات، وفي المعنى والعمل، فهو مشبه بالمضارع لفظاً ومعنى وعليه إن خرج اسم الفاعل عن شبهه للمضارع لا يعمل، فلا تقول: هذا ضاربٌ زيداً أمس، بل يجب إضافته: هذا ضاربُ زيدٍ أمس. وسار معظم النحاة على درب سيبويه كما في شرح ابن عقيل على الألفية[3] وفي شرح المفصل: "ويشترط في إعمال اسم الفاعل أن يكون في معنى الحال أو الاستقبال..."[4]

وجاء المحدثون وتكلموا عن زمن صيغة (فاعل) ومنهم المخزومي الذي عدّ صيغة (فاعل)فعلاً وأطلق عليه الفعل الدائم، ويرى أن تنوينه علم لزمن معين هو المستقبل، ولكنه يعتقد أن صيغة (فاعل) غير موصولة بما بعدها تستعمل لمجرد التعبير عن استمرار الحدث، مثل: زيد قائم وعمر ضاحك، وإذا كانت صيغة (فاعل) موصولة بما بعدها غير منونة تستعمل للتعبير عن زمان ماض، مثل: أنا صائمُ يوم الخميس أي صمت يوم الخميس، أما إذا كانت صيغة فاعل موصولة بما بعدها ومنونة فهي

---

[1] مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية ج/2، ص135.
[2] سيبويه، الكتاب ج/1، ص82.
[3] ابن عقيل ج/2، ص324.
[4] ابن يعيش شرح المفصل، ج/2، ص231.

للتعبير عن المستقبل، مثل: أنا كاتبٌ رسالة أي سأكتب رسالة وأنا صائمٌ يوم الخميس أي سأصوم يوم الخميس[1].

أرى أن المخزومي سار على ذات الدرب التي قال بها القدماء وخاصة الفراء، إلا أنه زاد مصطلح الاستمرار في دلالة اسم الفاعل غير المنون الذي لم يذكر بعده شيئاً والسبب في ذلك على الأرجح يرجع إلى أن المخزومي يعد صيغة (فاعل) من قسم الأفعال وليس الاسماء.

5-الزمن النحوي مرتبط بدلالة السياق العامة، إن الزمن في التركيب يتحصل من تضافر الصيغ وارتباط هذه الصيغ زمنياً، هذا الارتباط يتم عن طريق الأدوات والظروف الزمنية، ومن ثم يترشح الزمن عن الدلالات العامة في السياق. قال تمام حسان: "إن النحو علم العلاقات فلا يتناول المفردات إلا من حيث علاقتها بالمفردات الأخرى في الجملة، وتلك هي علاقات التضام، والرتبة والربط، وقرينة السياق، التي تكشف عن علاقات المعنى سواء في داخل الجملة الواحدة أو بين عناصر الجمل المختلفة..."[2].

إذن السياق العام الذي ترد فيه المفردة أو الجملة، يقوم بدور كبير في توجيه الدلالة الزمنية والزمن النحوي يرتبط في جوهره بالصيغ الفعلية، ويستخلص من مجموع إمكانات السياق وعناصره المختلفة، من تضافر الصيغ والمركبات الزمنية والأدوات والظروف، أي كل ما عيَّن زمناً لغوياً أو كان مصدراً لتعيين الزمن اللغوي في السياق يعد من باب الزمن النحوي.

وعليه ينطبق مفهوم الزمن النحويعلى مفهوم زمن النص تماماً، لأن النص يتكون من الجمل والعلاقات التي تربط بينها.

---

[1] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص139.

[2] د.تمام حسان، الخلاصة النحوية، ص23.

المبحث الثاني

الزمن والسياق

أولى العلماء على اختلاف توجهاتهم السياق عناية بالغة، لما يترتب عليه من توجيه للمعنى وقد ظهر ذلك جلياً في مصنفات اللغويين، والبلاغيين، والمفسرين والأصوليين، وشراح الحديث أما عند علماء اللغة فقد أصبح السياق نظرية قائمة بنفسها، بل أصبحت من أهم نظريات المعنى.

السياق في اللغة:

تحديد المفهوم اللغوي يعد ركناً أساسياً في تحديد المعنى الاصطلاحي، بل إنه لا يتضح إلا من خلاله، لذا كان من الضروري تتبع المعنى اللغوي للسياق كما ورد في المعاجم، قال ابن دريد: "السوق مصدر سقت البعيرأسوقه سوقاً"[1]، ونص ابن فارس: "السياق المهر يقال:سقت إلى امرأتي صداقها سياقاً، أي أعطيتها المهر"[2]. وذكر الجوهري: 'إن السياق نزع الروح يقال رأيت فلاناً يسوق أي ينزع عند الموت"[3]. وجاء في اللسان تحت مادة السوق: ساق سوقاً وسياقاً وهو سائق وسواق شدد الإبل وغيرها يسوقها"[4]، كما جاء في المعجم الوسيط : "السياق المهر، وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه والسياق النزع، يقال: هو في السياق الاحتضار"[5].

إذن المعنى الذي يمكن أن نأخذه من هذه النصوص هو دلالة كلمة السياق على التتابع، والتسلسل ولحوق شيء لشيء آخر واتصاله به، كما يعني الارتباط والانتظام في سلك واحد.

ذكر تمام حسان: "المقصود بالسياق التوالي، ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين: الأولى: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الزاوية

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (سقو)،ج/2، ص853.
(2) ابن فارس، مرجع سابق، ج/3، ص117.
(3) اسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط/4، 1987م ج/7، ص435.
(4) ابن منظور، مرجع سابق، ج/9، ص47
(5) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط/2004م، ص30.

يسمى سياق النص والثانية توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يسمى السياق سياق الموقف"[1]. أشار تمام حسان في تعريفه إلى نوعي السياق، وأطلق على السياق اللغوي سياق النص، وعلى سياق الحال سياق الموقف.

السياق في الاصطلاح:

السياق من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق في الدراسات اللغوية الحديثة وهذه الصعوبة هي التي جعلت من كتبوا في السياق يغضون الطرف عن تعريفه وينتقلون إلى تبيين أهميته في دراسة المعنى، وإظهار وظائفه وعناصره، يقول محمد حبلص: "إن مرجع الصعوبة في تجلية المقصود بالسياق في نظري، هي محاولة العثور على تعريف للمصطلح من ذلك النوع الجامع المانع كما يقول المناطقة فسوف أولي وجهتي شطر ناحية أخرى لعلها أجدى من تجلية المقصود بالسياق من محاولة البحث عن مثل هذا التعريف العصي، أعني بذلك صرف الجهد في التعرف على خصائص السياق، وفهم عناصره وبيان دوره في تحديد المعنى"[2].

ورغم تلك الصعوبة الظاهرة في تعريف المصطلح كما يرى محمد حبلص، فإن هناك من حاول أن يضع للسياق تعريفاً اصطلاحياً في ميدان علم اللغة الحديث قائلاً: "السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها، وتترابط وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ، ويضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق"[3].

وبملاحظة التعريف السابق نجده عرَّف السياق من جانبه اللغوي فقط، ولم يتطرق إلى السياق غير اللغوي، أو سياق الحال.

---

[1] د.تمام حسان، الخلاصة النحوية، ص23.
[2] د. محمد يوسف حبلص، البحث الدلالي عند الأصوليين، مكتبة عالم الكتب، القاهرة،ط/1، 1991م، ص28.
[3] د.عبد الرحمن بودرع، مقال :أثر السياق في فهم النص القرآني، مجلة الإحياء (المغرب)، العدد 25، 2007م، ص73.

ومن تعريفات السياق: "السياق مجموع الوحدات اللسانية التي تحيط بعنصر معين داخل سلسلة الخطاب وتؤثر فيه"[1]. ويترتب على هذا التعريف أن هناك سياقين يتحكمان في توجيه دلالة النصوص وهما: سياق لغوي، وسياق غير لغوي يضم جميع الظروف والوقائع غير اللغوية التي تحيط بالنص عند شرحه من أجل توجيه معناه.

وقد وجد السياق بشقيه اهتماماً كبيراً من النحاة، وعلماء اللغة الذين تركزت جهودهم على تعليم اللغة ودراسة المعنى، فاللغة عند سيبويه لم تنفك عن ملابسات استعمالها، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي، كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي الذي يكتنف الاستعمال اللغوي، ودليل ذلك أن الجملة الواحدة عنده قد تكون صواباً مرة وخطأً مرة أخرى، لاختلاف السياق الذي قيلت فيه، وبتعبير سيبويه يكون الكلام الواحد محالاً وحسناً بحسب ما يرد فيه. فهو يقول:"وذلك أن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال أنا عبد الله منطلقاً وهو زيد منطلقاً كان محالاً، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمر وإنما يضمر إذا علم أنك عرفت من يعني، إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فقلت من أنت؟ فقال:أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً"[2].

فقرينة المقام هي التي سوغت قبول الكلام واستحسانه عند سيبويه وإلا كان محالاً مرفوضاً.

كما تكلم سيبويه عن اختلاف العبارة في المقام على وفق حال المخاطب من الإقبال والانصراف فإذا قصدت إلى خطاب رجل وهو غير مقبل عليك وغير منتبه إليك، فقلت: يا فلان أنت تفعل، فتبدأ بالنداء حتى يقبل عليك، أما إذا كان مقبلاً عليك بوجهه منصتاً لك، فتترك يا فلان حين قلت: أنت تفعل استغناءً بإقباله عليك[3]. وتناول

---

[1] د.محمد الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، ط/1، 1982م، ص27.
[2] سيبويه، مرجع سابق، ج/2، ص80.
[3] نفسه ج/1، ص244.

سيبويه هذه الجملة:"رأيت زيداً الصالح"مراعياً حال المتكلم، فقال: "لا تستقيم هذه الجملة إذا كان المتكلم أعمى"[1].

لقد كانت نظرة سيبويه إلى اللغة نظرة واسعة شملت كل ما يحيط باللغة من سياق لغوي وغير لغوي.

وكان ابن جني رائداً في مجال التحليل السياقي من أجل كشف الدلالة اللغوية ونظراته قد جاءت متفرقة تفتقر إلى تنظيم يربطها في إطار جامع، تكلم ابن جني عن العلاقة بين الحذف وسياق الحال قائلاً: "وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب[2] من قولهم: سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم ما يقوم مقام قوله طويل أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ بـ(الله) ..أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك،... وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه فتفي ذلك عن قولك إنساناً لئيماً أو لَحِزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك"[3].

إن النص السابق يكشف عن التفات ابن جني إلى أهمية الدلالات الصوتية، من تنغيم وتفخيم ومد لبعض الأصوات في تعزيز المعنى، والتعويض عن الحذف الذي يطرأ على الجملة، مع ما يرافق ذلك من إيماءات في الوجه تقوم مقام الصفة المحذوفة، إن تتبع إشارات ابن جني في كتابه (الخصائص) يضع أمام الباحثين دليلا قويا على سعة فهمه لأهمية السياق في بيان المعنى.

أما ابن يعيش فقد أشار إلى أثر القرينة السياقية في جلاء المعنى، وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يذكر اللفظ فهو يقول: "واعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ

---

[1] سيبويه، مرجع سابق، ج/1، ص40.
[4] نفسه ج/1، 220.
[5] ابن جني، مرجع سابق، ج/2، ص370.

معتمد الفائدة والخبر محل الفائدة، فلابد منهما، إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو حالية قد تغني عن النطق بأحدهما فيحذف لدلالته عليه، لأن الألفاظ إنما جيئ بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز أن لا تأتي به، ويكون مراداً حكماً وتقديراً[1].

وقد اعتمد النحاة على سياق الحال في توضيح المعنى في كثير من الأبواب النحوية، نذكر مثالاً واحداً لذلك (باب النداء) يعد باب النداء وما حواه من قوانين " مثلاً لضرب من الخطاب الكلامي، الذي لا يؤدي دوره في التواصل إلا بوصفه عنصراً من عناصر مسرح اجتماعي يضم مرسلاً ومستقبلاً، أو مخاطباً ومتلقياً، وقد ألمح النحاة إلى هذا الربط بين أسلوب النداء والمقام، وتنويع الأحكام بتنويع ظروف هذا المقام ومقصد الكلام"[2].

ومن الأمثلة التي ذكرها النحاة تفريقهم بين النصب والبناء على الضم بين النكرة المقصودة وغير المقصودة على قصد المتكلم، فإن قصد واحداً بعينه وجب البناء على الضم وشابهه العلم، وإن لم يقصد لم يتعرف وبقي على إبهامه وأعرب على النصب[3].

في المثال السابق كان مقصد المتكلم - وهو عنصر مهم من عناصر سياق الحال- هو الأساس الذي تم من خلاله التفريق بين النصب والبناء على الضم، بين النكرة المقصودة وغير المقصودة كما إن توزيع أدوات النداء على المنادى يرجع إلى المقام، فالمنادى البعيد أو شبهه له أدوات والقريب له أدوات، والسر في تقسيم هذه الأدوات هو محاولة الربط بين أسلوب الخطاب وواقع الحال.

ويظهر كذلك اهتمام النحاة بالسياق من خلال مسألة "الرتبة والحذف"[4]، حيث يجب الإبقاء على أصل الرتبة عند زوال القرينة حتى لا يقع اللبس، فلذلك هم يفرقون بين "ضرب موسى عيسى" و"أكل الكمثرى عيسى" ففي الأولى أوجب النحاة مراعاة الترتيب وفي الثانية يجوز التقديم والتأخير بناءً على وجود القرينة. وفي

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل ج/1، ص239.
(2) د.كمال بشر،علم اللغة الاجتماعي (مدخل)، دارغريب، القاهرة، ط/3، 1977م، ص 99.
(3) جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر ج/1، ص84.
(4) د.محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ص 45.

القول على ترتيب الحروف في التركيب وأن بعضها يجب له الصدارة يقول الرضي: " كل ما يغير معنى الكلام ويؤثر في مضمونه، وكان حرفاً فمرتبته الصدر كحروف النفي، وحروف الاستفهام، والتنبيه، والتشبيه، والتحضيض والعرض وغير ذلك. وأما الأفعال كأفعال القلوب والأفعال الناقصة فإنها وإن أثرت في مضمون الجملة فلم تلزم الصدر إجراءً لها مجرى سائر الأفعال"[1].

نكتفي بما أوردنا من أمثلة تدلل على أهمية السياق عند النحاة، وخلاصة القول: هناك تواصل بين السياق والمعنى النحوي أشار إليه النحاة في جوانب متعددة.

ولم يقتصر الاهتمام بالسياق على النحاة فحسب، فقد اهتم به المعجميون والبلاغيون وسنتناول جانباً من اهتمام أصحاب المعاجم وأهل البلاغة بالسياق، حتى يكتمل للسياق خطره في الكشف عن المعنى.

وجه المعجميون عنايتهم إلى دلالة السياق منذ بداية التأليف المعجمي، سواء كان على مستوى السياق اللغوي أم على مستوى السياق المقامي، يقول هادي نهر: "يمكن عد صنيع المعجميين القدامى في أكثر أوجهه وصفاً للاستعمال الفعلي للغة، وهذا الوصف مفتقداً أساساً إلى ملاحظتهم للسياق أو للمقام الذي تجري فيه اللغة نشاطاً تواصلياً، حيث لا يمكن الوقوف على دلالة بعض نصوصه الإبداعية من غير الإحاطة بالظروف التاريخية، أو الاجتماعية، أو السياسية، أو الدينية أو الأعراف والتقاليد والأذواق التي أحاطت به، والحيز الزماني والمكاني الذي أنتج فيه أواكتنف لحظات إبداعه، وهو حيز مقامي حالي أساساً"[2]. كما تعددت وسائل المعجميين في شرح دلالات الألفاظ، من شرح بذكر المرادف والضد، وشرح بالتعريف، وشرح بذكر النظير، وشرح بذكر الشواهد والتحليل اعتماداً على السياق[3].

ومصداق ذلك ما نجده في معجم (العين) حيث كانت طريقة الفراهيدي في معجمه تقوم على: "البحث في تراكيب الكلمات من مواردها الأولية في الجذر البنيوي الحرفي، ومن ثم تقسيمه على ما يحتمله من ألفاظ مستعملة، وأخرى مهملة لدى تقلب

---

[1] رضي الدين الاستراباذي، شرح الكافية ج/4، ص336.
[2] د.هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، دار الأمل، الأردن، ط/1، 1987م، ص 248.
[3] د.عبد الله درويش، المعاجم العربية، الفيصلية، مكة المكرمة، ط/1، 1406هـ، ص102.

الحروف في التركيب، لتعود ألفاظاً بداية ونهاية طرداً وعكساً،... وجعل معول التفريق بين المهمل وغير المهمل ورودها في السياق"[1].

ويمكن الاستشهاد بمعجم (أساس البلاغة) للزمخشري، حيث يلاحظ فيه إدراكه للتطورات المجازية للكلمة، وأثر السياق الاجتماعي والثقافي والتاريخي في هذا التطور، وقد احتوى معجمه كما يقول هادي نهر على عنصرين أساسين في الدرس الدلالي هما: أثر الاستعمال في حياة الكلمة وتحديد معناها، والوقوف على جزء من إيحاء الكلمة في النفس[2].

ومن أبرز ما يميز معجم (أساس البلاغة) اعتماده على عناصر واضحة من سياق الحال في توجيه المعنى، وخاصة المجاز، وفي ذلك يقول غازي طليمات: "ولا يخفى أن المجاز يفتح أمام الأدباء أبواباً واسعة لابتكار أوجه جديدة من الاستعمال السياقي لكل كلمة، ولعل جارالله الزمخشري قد حرص على أن يسوق في معجمه (أساس البلاغة) عشرات العبارات المجازية لكل كلمة ..."[3].

وكذلك ظهر الاهتمام بالسياق- أيضاً- في أكثر من مؤلف من المؤلفات التي ظهرت في زمن مبكر، ومن بينها الكتب التي كتبت في (النوادر) و (غريب القرآن) و(غريب الحديث) وغير ذلك من صنوف التأليف التي تدلل على إدراك أصحابها أن العمل المعجمي إنما هو رصد للغة في حركتها الاجتماعية مع ملاحظة السياق الذي تجري فيه، فتنوع استعمالات الكلمة وتعدد أبنيتها قياساً إلى وظيفتها السياقية وطبيعة مستعمليها وحاجتهم ومقاصدهم كلها تستند إلى سياق محدد ومقام معين يحيط بها ويحدد استعمالها[4].

وتتضح عناية البلاغيين بالسياق من خلال عبارتهم المشهورة (لكل مقام مقال)، أو العبارة الأخرى (لكل كلمة مع صاحبتها مقام)[5]. إذن المقام لديهم له دور كبير في المعنى، لأنه ركن أساسي في الصحة الخارجية للنص، أي الانتقال به من الفصاحة إلى البلاغة المتمثلة في وجوب مطابقة النص لمقتضى الحال. فقد يكون النص

---

(1) د.محمد حسين علي الصغير، تطور البحث الدلالي دراسة في النقد البلاغي واللغوي، دار الكتب العلمية، بغداد، 1988م، ص34.
(2) د.هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي، الجامعة المستنصرية، ط/1، 1988م، ص84.
(3) د.غازي مختار طليمات، في علم اللغة، دار طلاس، سوريا، ط/2، 2000م، ض214.
(4) د.هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ص287.
(5) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 67.

فصيحاً أي صحيحاً صحة داخلية من حيث التركيب وقواعده الصوتية والصرفية والنحوية، ولكنه لا يكون بليغاً إلا إذا وافق مقتضى الحال.

قول البلاغيين (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) يشمل العناصر المكونة للسياق اللغوي وغير اللغوي وفي ذلك يقول كمال بشر: " وفي قولهم: (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) كلام عن الاهتمام بالصحة الداخلية للنص، ... التي تفيد وجوب مراعاة الربط والسبك بين وحدات النص، وهوما يشار إليه بالسياق اللغوي، بل إننا نقول إنه يحتوي على عناصر السياق كلها..."[1].

إن اهتمام البلاغيين بفكرة السياق وخاصة سياق الحال أو المقام بدا واضحاً في كل مؤلفاتهم وقد وجد هذا الاهتمام التأييد التام من اللغويين المحدثين، وخير ما نستدل قول تمام حسان: "وقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي المقام أو المقال بوصفهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعد الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في الدرس اللغوي"[2].

وقد اهتم بالسياق الأصوليون في مؤلفاتهم والمفسرون لكتاب الله، وشراح الحديث النبوي يقول الزركشي: "الرابع من الأمور التي تعين على المعنى عند الإشكال دلالة السياق، فإنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة فهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره ..."[3].

أما في العصر الحديث فقد تعددت النظريات التي تناولت المعنى بالشرح والتحليل ومن بينها النظرية السياقية، وعلى الرغم من أن فكرة السياق فكرة قديمة تناولها علماؤنا الأوائل فإن هذه النظرية وجدت في الدرس اللغوي الحديث عناية خاصة وفائقة، ورائد هذه النظرية العالم (فيرث)، والذي توسع في دراسة النظرية السياقية

---

(1) د.كمل بشر، علم اللغة الاجتماعي، ص97.

(2) د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص337.

(3) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/1،ج/2، ص234.

ومعالجة كل ما يتصل بالمعنى من خلالها حتى أثبت أن المعنى كله إنما هو وظيفة في السياق[1].

يرى (فرث) أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تستعمل بها وبالتالى فإن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الكلمة، أي وضعها في سياقات مختلفة، وعلى هذا فإن دراسة معنى الكلمة يتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي أي مقامي[2].

هذا يعني أن الأساس الذي انبنت عليه النظرية السياقية يقوم على رفض النظر إلى الكلمة وهي مفردة خارج التركيب (السياق اللغوي)، وعلى مراعاة الموقف الذي تقال فيه الكلمة (سياق الحال)، وبناءً على هذا الأساس فإن السياق ينقسم إلى سياق لغوي وسياق غير لغوي، وهذا التقسيم أجمع عليه كل العلماء قديماً وحديثاً، وسنتناول هذين النوعين من السياق بالتركيز على عناصرهما ودورهما في الكشف عن الزمن النحوي.

أ- السياق غير اللغوي:

أطلق العلماء أكثر من تسمية على السياق غير اللغوي، منها: "سياق الحال"[3] و"المقام أو المسرح اللغوي، أو مجريات الحال"[4]، و"ملابسات الحدث اللغوي"[5] ولكنهم يتفقون على عناصر هذا السياق اتفاقاً يكاد يكون كاملاً، كما يتفقون على أثره في بيان المعنى.

يقول كمال بشر: "كان (فيرث)منطقياً مع نفسه ومبادئه حين جعل فكرة (السياق) أو ما سميناه نحن بـ(المسرح اللغوي)أساساً لنظرته في التحليل اللغوي، فعنده أن الكلام ليس ضرباً من الضوضاء يلقى في فراغ، وإنما مدار فهم الكلام والقدرة على تحليله إنما يكون بالنظر إليه في إطار اجتماعي معين سماه السياق، وهو ذو عناصر معينة ومتكاملة، وهي ضرورية في عملية الفهم والإفهام"[6].

---

(1) د.أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص68.
(2) نفسه، ص69.
(3) د.محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص338.
(4) د.كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، ص96.
(5) د.محمد أيوب، التطور اللغوي، دار الطباعة القومية، القاهرة، ط/1، 1964م، ص83.
(6) د. كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، القاهرة، 1982م، ص131.

وعناصر سياق الحال هي: المتكلم، والسامع، والموجودون في الموقف الكلامي والأشياء والموضوعات المناسبة المتصلة بالكلام، وأثر الكلام الفعلي في المشتركين كالإقناع، أو الألم أو الضحك، والعوامل والظواهر الاجتماعية المتعلقة بالموقف الكلامي، كمكان الكلام وزمانه والظروف الخاصة الملابسة للحدث اللغوي[1].

يعتقد اللغويون أن هذه العناصر مجتمعة مهمة في تحديد المعنى، وأن دلالة سياق الحال تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة، بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة تختلف باختلاف الموقف الذي تقال فيه، مهما كانت بساطتها وسذاجتها، ولنأخذ هذه الجملة (ضرب محمدٌ علياً)، هذه الجملة ببساطتها تصلح أن تكون مثالاً مصنوعاً من أمثلة كتب النحو ولكنها إذا نُظر إليها على أنها جملة واقعية تختلف من قائل إلى آخر، ومن مستمع إلى آخر، ومن غرض إلى آخر، باختلاف ما يعرف عن كل من محمد (الفاعل) وعلي (المفعول به) في كل موقف وباختلاف علاقة قائل هذه الجملة أو المستمع لها بكل من محمد أوعلي، وما يكون لكل منهما من تجارب سابقة مع كل من محمد أو علي، وباختلاف الصفات الجسمية والشخصية والعقلية والخلقية لكل منهما، وما يعتقده المستمع أو المتكلم في كل منهما، ولك أن تتوقع ما تدل عليه هذه الجملة إذا كان الفاعل (محمد)شخصاً غليظاً وكان المفعول به (علي)على نقيض هذه الصفات أو إذا كان الفاعل طفلاً أو المفعول به رجلاً مسناً...[2].

هذا هو منتهى السياق غير اللغوي عند علماء اللغة، ومن غير شك أن كل ما قرروه له تأثير في المعنى العام للجملة وعلى النص اللغوي.

تمسكاً بموضوعية العرض وما يقتضيه من الإحاطة بجميع جوانب الموضوع حين العرض لابد من الإشارة إلى بعض مظاهر الجانب التطبيقي لوظيفة سياق الحال، وذلك بهدف الوصول إلى نتيجة مفادها وضوح الرؤية لأثر سياق الحال في بيان المعنى، ضرب السكاكي مثلاً بيَّن فيه أهمية سياق الحال في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ،

---

[1] د.محمود السعران، مدخل لدراسة علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص341.

[2] د.محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي،ص114.

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ))[1]. فهو يقول: "فمن لم يكن من الأعراب أو يعرف ما يتعلق بحياتهم، وما عليه معاشهم، فإنه سوف يستغرب لهذا الجمع بين الإبل والسماء، والجبال والأرض؛ وذلك لبعد البعيرعن خياله في مقام النظر، ثم لبعده عن خياله عن السماء وبعد خلقه عن فهمها، وكذا البواقي"[2].

ولكن بالتعرف على حياة العرب في مختلف نواحيها الاجتماعية، وبإدراك السياق الاجتماعي المصاحب للنص، يزول عجبه من الجمع بين هذه الأشياء، كما وضح السكاكي: "وذلك إذا نظر إلى أن أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم، من المواشي كانت عنايتهم مصروفة لا محالة على أكثرهانفعاً وهي: الإبل، ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر، وأهم مسارح النظر عندهم السماء، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يأويهم، وإلى حصن يتحصنون فيه، لا مأوى إلا الجبال...وإنما الحضري حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه، إذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ظن النسق بجهله معيباً للعيب فيه"[3].

ما ذكره السكاكي في حديثه عن سياق الحال، يعد مثالاً جامعاً لكل عناصر سياق الحال التي قالها أهل اللغة، وموضحاً لأثر هذا السياق في الكشف عن المعنى، لذلك سنكتفي بهذا المثال.

ب- السياق اللغوي:

يعتمد السياق اللغوي على ذكر العناصر اللغوية في النص، أي هو النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، الذي يشمل الكلمات والجمل السابقة واللاحقة. أو هو مجموعة العناصر المكونة للحدث اللغوي من فونيمات ومورفيمات وتراكيب نحوية كما يشمل مجموعة العلاقات التي تربط هذه العناصر بعضها ببعض، زيادة على طريقة الأداء التي تصاحب النطق بهذه العناصر مثل النبر، والتنغيم، والوقف

---

[1] سورة الغاشية، الآيات 17- 20.
[2] أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/2، 1987م، ص257.
[3] نفسه، ص258.

وبتعبير أعم فالسياق اللغوي يشمل مجموعة قرائن التعليق المقالية سواء كانت قرائن معنوية أم لفظية[1].

إذن السياق اللغوي يرتكز على الكلام المنطوق، وعلى كيفية تركيب الكلمات في جمل وكيفية نطقها، والعلاقة التي تربط بين هذه الجمل حتى تكون كلها مرتبة ترتيباً صحيحاً مرتبطة ارتباطاً متيناً في بيئة واحدة هي النص اللغوي.

يقوم السياق بدور كبير في تحديد الدلالة الوظيفية للوحدات التركيبية داخل السياق والدلالة التركيبية هي الدلالة الناشئة عن العلاقة بين وحدات التركيب، أو المستمدة من ترتيب وحداته على نحو ما. وهي دلالة مهمة ومتعددة ولا تضبط إلا بالسياق وفي ذلك يقول تمام حسان: "إذا صح أن يتعدد المعنى للحرف، والأداة، والصيغة والفظ المفرد، والوقف والابتداء فإن المعنى يتعدد أيضاً لتركيب الجملة في بعض الحالات. ولقد رأينا كيف يعتمد المفسرون والفقهاء في فهم معنى الأمر، ولكن له مظاهر أخرى في تراكيب العربية سجلها النحاة تحت عنوان (إشراب التركيب معنى غير معناه الأصلي)..."[2].

ومما لا شك فيه أن السياق اللغوي هو الذي يدرس البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة بوصفها وحدة نحوية في كل متسق، وأن الكلمات في الجمل تتوالى على نسق مرتب، وتخضع في ترتيبها إلى قواعد تركيبية مطردة، وإلى علاقات شكلية داخلية تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي وتضبط بالسياق، فالسياق هو المعنى الذي يؤديه النص، ولا ينكر "أن دلالات السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة – بمفرداتها نفسها- إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة الجملة، ولنأخذ جملة: "فازت مريم على سعاد" فإن أي تغيير في موقع كل كلمة من كلماتها يؤدي إلى معنى مغاير بحسب سياقها من التركيب"[3].

---

[1] د.عبد الرحمن أيوب، التطور اللغوي، ص68.

[2] د. تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، ط/1، 2007، ص222.

[3] د.محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ص113.

يقول تمام حسان: "إذا كان الزمن النحوي وظيفة في السياق فإن علينا أن ننظر في هذا السياق لنكشف عن الزمن، وإن الذي يمكننا أن ننظر إليه من أنواع السياق هو أنواع مباني الجملة العربية..."[1].

ومن هنا يؤكد اللغويون على أهمية التركيب "لأن التركيب تختبئ في خصائصه وأحواله إشارات ودلالات مختلفة، وأن السياق هو الذي يستخرج من هذه الخصائص ما تقتضيه، وكأن التركيب النفيس أشبه بقطعة من معدن نفيس، تعطي ألواناً كثيرة كلما أدرتها إدارة جديدة والسياق هو القوة التي تحرك هذه القطعة لتشع من ألوانه ما يراد إشعاعه، فالسياق النحوي شبكة من العلاقات النحوية تقوم كل علاقة فيها عند وضوحها على إضاءة المعنى، وقد يعول وضوح المعنى أو انتاج الدلالة على التآخي والتضافر بين قرائن السياق النحوي"[2].

يتضح مما سبق أن من أراد أن يقف على دلالة الزمن النحوي لابد له من دراسة التركيب وقواعده التي تحكمه، والعلاقات التي تنتظمه، وقد أشار مهدي المخزومي إلى أن هناك ثلاثة أسس تشترك في منح الجملة دلالتها الخاصة وهي: ارتباط الألفاظ بعلاقة نحوية تنتظم بها المعاني المراد التعبير عنها، في نص يقوم على قواعد نحوية صحيحة، وارتباط الألفاظ بعلاقات سياقية تنتظم بها مفرداته بعضها مع بعض، وتنتظم هي مع ما قبلها وما بعدها في تتابع فكري متناسق يخضع للمعنى العام للنص الكلي، والعدول أحياناً عن العلاقات النحوية المباشرة إلى أساليب بيانية أو بلاغية يرقى بموجبها المستوى الفني لكلامه[3].

وبناءً على هذه الأسس فإن الدلالة التركيبية للنص تضم ثلاثة أنواع من الدلالات المتآزرة والمرتبطة، ومنها الدلالة النحوية والدلالة البلاغية، والدلالة السياقية، وعليه فإن السياق يقوم بدور كبير في توجيه المعنى التركيبي ويتضح هذا من خلال دراسة أثر السياق في تركيب الجملة وبيان معناها. إذن السياق يعين على دراسة النص وتحليله، من خلال العلاقات بين جمله ، وما يترتب على تلك العلاقات من دلالات

---

[1] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناه، ص243.
[2] د.توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط/1، 1984م، ص73.
[3] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص31.

والأدوات المستعملة للربط بين هذه الجمل. ومن أبرز الأدوات السياقية التي تسهم في بناء النص زمنياً وتركيبياً الإحالة، ويعد رصد حركة الإحالة في النص، ومعرفة أدواتها من أهم مفاتيح التحليل اللغوي للنصوص، ومن ذلك حركة الضمائر في النص، وتنوعها وتحولها، واحتواء بعضها لبعض، وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، و(أل) التعريف، والتكرار بأنواعه، كما تعد الإحالة أكثر الظواهر اللغوية انتشاراً في النصوص، فهي من أهم معطيات النص التي تشارك في نصيته وصحته.

ومراعاة النصية تجعلنا نركز على دور السياق في تماسك النص، عبر أثر الإحالة في بناء النص باعتبارها العامل الرئيس في الترابط بين أجزاء النص، ووصل النص بالسياق، وفهمه استناداً على السياق اللغوي وغير اللغوي مثل دور القارئ وتحديد قصد صاحب النص، كل هذه الجوانب تتلاحم والإحالة.

وإذا أردنا أن نقف على تأثير السياق اللغوي في النصوص، فإنه يؤثر في توجيه دلالة الصيغة الصرفية، ودلالة حروف المعاني، ودلالة الحذف، ويؤثر في بيان مرجع الضمير، وفي توجيه الإعراب، وتوجيه دلالة النكرة، ويؤثر كذلك في توجيه دلالة بعض الصيغ الإنشائية والخبرية وفي توجيه دلالة التضمين، ودلالة المشترك اللفظي، والترادف، والتضاد، ودلالة الزمن، هذه الجوانب تشمل جميع مقتضيات التركيب اللغوي من الصيغة المفردة إلى النص كله ومن غير شك أن هذه الجوانب كلها متضافرة في تقديم المعنى النحوي، وسنتناول الجانب الذي يبين علاقة الزمن و السياق اللغوي في أي نص.

من الموضوعات ذات الصلة بالسياق وبالزمن، الحذف وقد تكلم النحاة في الحذف وكيفية تقدير المحذوف، وأثر الحذف على صحة التركيب، وغير ذلك مما يدخل تحت الحذف، وما يهمنا هو تأثير السياق في تقدير المحذوف وفي المعنى كله والحذف هو إسقاط جزء من الكلام قد يكون هذا الجزء كلمة، أو حرف، أو جملة كاملة طويلة أوقصيرة، أو فقرة كاملة، ولكن لا يكون الحذف إلا بدليل كما أقر علماء اللغة، وإلا فسد المعنى، وعليه فهو مظهر من مظاهر الاتساق النصي.

عقد ابن جني باباً في (الخصائص) أطلق عليه "بابٌ في شجاعة العربية"قائلاً في مستهل حديثه: "اعلم أَنَّ معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير والحمل على المعنى والتحريف"[1]، وقال عنه عبد القاهر الجرجاني: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، ..."[2].

وقد انطلق النحاة في الحديث عن الحذف من قاعدة أساسها أن التركيب اللغوي لابد له من طرفين أساسيين هما: المسند والمسند إليه، فإذا استغنى عن أحدهما قُدِّر محذوفاً لتتم به الفائدة أو الجملة فالحذف يرتبط كثيراً بالتركيب والمعنى ولا يمكن إقامة التركيب والمعنى دون تقدير المحذوف ورده على ضوء القواعد اللغوية[3].

من خلال ما قاله علماء اللغة يتضح أن الأصل في المحذوفات جميعها وعلى اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف نفسه، ويرى النحاة أنه لا يجوز الحذف من غير دليل قال ابن جني: "قد حذفت العرب الجملة، والمفرد والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته، فأما الجملة فنحو قولهم في القسم: والله لا فعلت، وتالله لقد فعلت، وأصله أقسم بالله فحذف الفعل والفاعل..."[4].ووضع ابن هشام شروطاً للحذف جعل أولها وجود دليل حالي أو مقالي، أو صناعي، ومثَّل لذلك بقوله: "الدليل الحالي كقولك لمن رفع سوطاً:زيداً بإضمار اضرب... أو مقالي كقولك لمن قال مَن ضرب؟ زيداً..."[5].

نذكر بعض الأمثلة التي تدلل على أثر السياق في تقدير المحذوف، جاء في الحديث: "أنْ تَصَّدق وأَنْت شَحِيحٌ، تخْشَى الفَقْرَ وتأَملَ الغِنَى، ولا تُمْهل حتَّى إذا بَلَغَتِ الحُلْقومَ... "[6]. قال ابن حجر: "قوله: إذا بلغت أي الروح... ولم يجر للروح ذكر

---

(1) ابن جني، الخصائص ج/2، ص360.
(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 146.
(3) د.سليمان ياقوت، قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين، دار المعارف، القاهرة، ط/1، 1985م، ص 209.
(4) ابن جني، الخصائص ج/2، ص360.
(5) ابن هشام، مغني اللبيب 1242/2.
(6) البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الهيثم، ط/1، د.ت، حديث رقم 1419، 987.

اعتناءً بدلالة السياق[1]. ومن حذف المفعول به ما جاء في الحديث: "سَمِعْتُ جابِراً يقُولُ: جاءَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسَلَّم يَعُودنِي وأَنا مريضٌ لا أَعْقِل"[2]، قال: ابن حجر قوله: "لا أعقل" أي لا أفهم وحذف مفعوله إشارة إلى عظم الحال، أي لا أعقل شيئاً[3]. واضح أن ابن حجر اعتمد على سياق الحال في شرحه.

وقد يحذف الموصوف وتبقى الصفة دالة عليه، وقال ابن هشام: "ويجوز بكثرة حذف المنعوت إن عُلم"[4]، وقال ابن مالك: "يقوم النعت مقام المنعوت كثيراً"[5]. وقد يحذف المبتدأ أو الخبر، أو المضاف أو المضاف إليه، أو جواب الشرط، أو خبر كان، أوقد تحذف جملة كاملة وغيره مما يحذف لدليل. والذي يساعد على تقدير المحذوف هو السياق، فلابد من النظر إلى الجمل السابقة واللاحقة، وإلى كل عناصر السياق حتى يكتمل المعنى.

ومن الجوانب اللغوية التي لها تأثير في تحليل زمن النص، بيان مرجع الضمير، لأن معرفة مرجع الضمير يعين على إدراك المراد من الكلام. ومعنى الضمير في اللغة يدور حول الضعف والهزال والستر والخفاء[6]، أما في الاصطلاح فالضمير ما يُكنى به عن متكلم، أو مخاطب، أو غائب، فهو قائم مقام ما يُكنى به عنه، مثل:(أنا، وأنت وهو)[7]. والأصل في الضمير أن يكون له مرجع متقدم ليفهم المعنى، ويزول اللبس ويتحقق الربط بين عناصر النص[8]، مثل قوله تعالى: ((وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ))[9].وذلك لأن المتكلم كثيراً ما يترك تكرار الاسماء ويلجأ إلى ذكر الضمائر لأسباب كالاختصار مثلاً، ومن هنا اقتضى النظام اللغوي للعربية ولسائر اللغات وجود مرجع للضمير يقوم بدور المفسِّر الذي يحدد متعلق الضمير، كما أن الاستعانة بمرجع الضمير تعمل على تجنب الغموض والإبهام ، يقول عباس حسن:"

---

(1) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار مصر للطباعة، ط/1، 2001م، ج/3، ص411..
(2) صحيح البخاري، مرجع سابق، حديث رقم 194.
(3) ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج/1،ص 438.
(4) أبو محمد عبد الله ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار الجيل، بيروت، ط/5، 1979م، ج/3، ص284.
(5) ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي، شرح التسهيل، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، ود.محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط/1، 1999م، ج/3، ص322.
(6) ابن منظور، مرجع سابق، ج/9، ص60.
(7) مصطفى الغلاييني، مرجع سابق، ص 87.
(8) د.فاضل السامرائي، معاني النحو، ص57.
(9) سورة الشعراء، الآية 224.

إنَّ الإضمار شبيه بالحذف في إفادة الاختصار وغايته الجمالية، إضافة إلى أنَّ الضمائر لا تخلو بأنواعها من إبهام وغموض، سواء كانت للمتكلم، أم المخاطب، أم للغائب، فكان لابد من شيء يزيل هذا الإبهام، ويفسر ذلك الغموض ..."[1]

يرتبط الإبهام الموجود في الضمير بغموض الدلالة، وخفاء المعنى، لذلك لابد للضمير من اسم ظاهر يعود إليه، وقدوضع النحاة شروطاً يجب توفرها بين الضمير ومفسِّره، كأن يكون المفسِّر اسماً ظاهراً متقدماً لفظاً ورتبة، أو لفظاً دون رتبة، أو رتبة دون لفظ، وأنْ يتطابقا في الإفراد والتثنية، والجمع، والتذكير، والتأنيث وغيرها.

ويؤثر السياق أيضاً في توجيه الإعراب، والإعراب معناه تحليل الجملة، أي أن الإعراب لا يتعامل مع الكلمة المفردة، والكلمة لا تكتسب حالة إعرابية معينة إلا حين تكون في جملة، وهذه الحالة الإعرابية هي صورة العلاقات التي تنشأ بين الكلمات حين تتركب في جمل[2].

قال مهدي المخزومي: "الإعراب بيان ما للكلمة أو الجملة من وظيفة لغوية، أو من قيمة نحوية ككونها مسنداً إليه، أو مضافاً إليه، أو فاعلاً، أو مفعولاً، أو حالاً، أو غير ذلك من الوظائف التي تؤديها الكلمات في ثنايا الجمل، وتؤديها الجمل في ثنايا الكلام أيضاً"[3].

وعليه فإن الإعراب هو فن تحليل الكلام، ووصفه وبيان تأثير بعضه في بعض وذكر وظيفة كل جزء من أجزائه.

وإذا رجعنا إلى أقوال العلماء في العلاقة بين الإعراب والمعنى، نجد الاتفاق الكامل على أن الإعراب هو فرع المعنى، يقول ابن جني: " الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى إنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيدا أبوه، علمت بنصب أحدهما ورفع الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرْجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه، ..."[4] ، كلام ابن جني يبين أن الإعراب هو الفيصل في بيان

---

[1] عباس حسن، النحو الوافي ج/1، ص255.
[2] د.عبده الراجحي، دروس في الإعراب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص7.
[3] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص67.
[4] ابن جني، الخصائص ج/2، ص88.

المعنى، وإذا خفِي الإعراب لا يستقيم المعنى، إلا بوجود قرينة لفظية أو معنوية تقوم مقامه، وتؤدي وظيفته، كما في مثاليه: "سأل يحيى بشرى"،و"أكل يحيى الكمثرى".

وأوفى خلاصة يمكن تقديمها في الصلة بين الإعراب والمعنى، كلام ابن فارس: "فأما الإعراب فيه تسمى المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلاً لو قال: ما أحسن زيد غير معرب لم يوقف على مراده..."[1].

للسياق علاقة قوية بالإعراب، تظهر هذه العلاقة من خلال عدة مظاهر منها اهتمام المُعْرب بتمام المعنى واكتمال السياق، وكذلك شرح المعنى بعد اختبار كل وجه من وجوه الإعراب والاستعانة بالمعنى في توجيه الإعراب، واستصحاب الحال، ويتمثل كذلك في مجموعة من الملاحظات السياقية التي يعتمد عليها النحاة في ترجيح وجه إعرابي على وجه آخر[2].

ويعد الإعراب عند علماء اللغة المحدثين نوعا من أنواع التحليل النحوي، له أثره في الدرس اللغوي إذ يعين على تحديد المعنى، والسياق من جانب آخر له دور في تحديد المعنى المعجمي وما يترتب على المعنى المعجمي من أثر واضح في توجيه الإعراب، يقول تمام حسان: "الكشف عن العلاقات السياقية، أو (التعليق كما يسميه عبد القاهر) هو الغاية من الإعراب"[3].

وقد عرض تمام حسان لنظرية القرائن في اللغة العربية، وجعلها العمدة في النظام النحوي فهو يقول: "إنَّ ما يتسم به المعنى الوظيفي للمبنى الواحد من التعدد والاحتمال يجعل الناظر في النص يسعى دائماً وراء القرائن اللفظية والمعنوية والحالية، ليرى أي المعاني المتعددة لهذا المبنى هو المقصود، ومن هنا نرى التفاضل بين المعربين للجملة الواحدة"[4].

والقرائن التي تعين في تحديد المعنى كثيرة، منها المعنوية، مثل: قرينة الإسناد والنسبة، والتبعية والمخالفة، ومنها اللفظية، مثل: الإعراب، والرتبة، والصيغة

---

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف، بيروت، ط/1، 1993م، ص 13.
(2) د.فاضل السامرائي، أسلوب الاشتغال ووظيفته في أداء المعنى، مجلة كلية الآداب العراقية، العدد 21، 1977م، ص184.
(3) د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 81.
(4) نفسه، ص 180.

والتضام،وغيرها.ويمثل السياق اللغوي أكبر هذه القرائن كلها وأساسها[1].من خلال النصوص السابقة للقدماء والمحدثين، يتبين لناتفاق علماء اللغة قديماً وحديثاً على تلاحم العلاقة بين المعنى والإعراب والسياق كمالا يخفى أن الزمن اللغوي جزء أصيل من المعنى العام.

مما يؤكد دور السياق الواضح في توجيه الدلالة الزمنية من خلال الإعراب، قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ"[2]، قال ابن حجر: "قال البزاز: ... إنَّ (مَنْ) موصولة لا شرطية، والمراد الذين صلوهما أول ما فرضت الصلاة، ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس،..ولا يخفى ما فيه من التكلف، والأَوجه أَنَّ (مَنْ) في الحديث شرطية، و قوله (دخل) جواب الشرط، وعدل عن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقول: (يدخل الجنة) إرادة للتأكيد في وقوعه بجعل ما سيقع كالواقع[3].

يتضح أن ابن حجر في شرحه للحديث السابق، يضع للسياق وقرائنه أهمية خاصة، في توجيه دلالة الصيغة، بل إنه يتخذ منه أساساً مهماً في الترجيح بين الأقوال، فهو قد أورد تخريجاً إعرابياً لأحد العلماء لكنه أبطله، لأنه لا يتناسب مع المعنى الذي تؤدي إليه قرائن السياق، ويبدو أنه يميل إلى ترجيح التخريج الإعرابي الذي يعطي دلالة أقوى على المعنى المقصود من النص وبمعنى آخر التخريج الذي يتناسب كثيراً مع قرائن السياق، ويراعي جانب المعنى ويسايره.

أكدت الأمثلة المذكورة دور السياق و الإحالة، وأثرهما في بناء النص، ويتضح هذا الدور من خلال تحليل هذه الآيات من سورة عبس، تحليلاً يكشف عن أثر السياق في بيان الدلالة الزمنية. قال تعالى: ((عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَن جَاءهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَاء ذَكَرَهُ))[4]تمثل هذه الآيات نصاً كاملاً ومترابطاً، وعند تحليله:

---

[1] د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 189.
[2] صحيح البخاري، مرجع سابق، حديث رقم 574.
[3] ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج/2، ص67.
[4] سورة عبس الآيات 1-12.

أولاً: نقف على سبب النزول، لأن لسبب النزول علاقة قوية بمعنى النص، ويعد من أعمدة السياق غير اللغوي الذي تعتمد عليه الإحالة الخارجية. رُوي في سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يتحدث مع عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، ويدعوهم إلى الإيمان ويحرص على ذلك جاءه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم، وجعل عبد الله يستقرئ رسول الله صلى الله عليه وسلم، آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين فنزلت الآيات[1].

ثانياً:علاقة النص بعنوان السورة، إذا كان للنص عنوان فإن للعنوان أهمية كبيرة في تفكيك النص وتحليله، فهو بمثابة الرأس للجسد، ويشكل المحور العام الذي تدور عليه كل أفكار النص. نلحظ في هذه الآيات الدلالة الواضحة على أهمية هذه القصة من خلال ارتباط النص بالعنوان، فالسورة الكريمة سميت (عبس) وهو فعل يحمل ضميراً يحيل على النبي الكريم، وقد حاز صاحب الضمير في الفعل (عبس) على أعلى نسبة من إحالات الضمائر في السورة كلها مما جعله الشخصية الأولى في النص القصصي.

ثالثاً: العناصر الإحالية في النص،توجد في هذا النص عناصر إحالية داخلية، في قوله تعالى: (لعله، يذكر، فتنفعه، جاءك، يسعى، هو، يخشى) كل هذه الضمائر تحيل على (الأعمى) وهذه الإحالة داخلية واضحة، تفهم من دون اللجوء إلى السياق. وهناك عناصر إحالية خارجية لا تفهم إلا بالرجوع إلى السياق، ومنها قوله: (عبس وتولى) الضمير المستتر في كلا الفعلين يحيل إحالة خارجية تفهم من السياق، وقوله: (جاءه) الضمير المتصل الغائب هنا يحيل على ضميري الشخص الغائب في الفعلين السابقين، مشكلاً بداية سلسلة من الإحالات بدأت حلقاتها بضمير الغائب، ولا زال المتلقي في انتظار، لأنه يجهل الشخص المحال عليه بهذه الضمائر، ولم يأت في سياق النص إلى الآن ما يفسرها ويزيل إبهامها، وقوله: (يدريك) الضمير المتصل

---

[1] ابن عباس، مرجع سابق، ج/9، ص687.

البارز هنا يحيل على شخص مخاطب، وهذه الإحالة تستوقف المخاطب وتلفت انتباهه مما يستدعي منه إعمال الذهن في تحديد المحال عليه، فإذا كان المتلقي يدرك أن هذه الضمائر تحيل على النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه هو المخاطب بالقرآن الكريم، فإن هذا الإدراك مأخوذ من السياق الخارجي للنص.

إذن الانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، أسهم في تفسير الإحالة وتعيين المحال عليه من خلال السياق. وهذا الالتفات في الضمائر والمغايرة في الاستخدام لا يؤثر في تماسك النص لأن المحال عليه شخص واحد، بل أسهم هذا الالتفات في تفسير عملية الإحالة وصنع حلقة إحالية تضاف إلى الحلقات السابقة مُشكّلة بداية سلسلة متماسكة لبنية إحالية نصية. فالنبي صلى الله عليه وسلم هو العنصر الإشاري الخارجي المحوري الذي استحوذ على معظم الإحالات في هذا النص، وكل تلك الضمائر كُني بها عن النبي الكريم، وأولها ضمير الغائب في قوله (عبس) الذي ورد في أول جملة في هذا النص، وهنا تبرز أهمية الجملة الأولى في النصوص، وقد أصبحت تلك الكلمة الأولى الحاملة لضمير يحيل على النبي الكريم عنواناً للنص كله، وقد توالت بعدها السلسلة الإحالية المتتابعة على صاحب هذا الضميرمما يشير إلى الانسجام والاتساق المحكم الذي أسهم به ذلك الضمير وحركته الإحالية في النص. ويقوم السياق كذلك بدور كبير في توجيه دلالة الزمن، وقد رأينا أن النحاة قسموا الفعل إلى ثلاثة أقسام هي: الماضي وهو ما دل على الزمن الماضي والمضارع وهو ما دل على زمن الحاضر أو المستقبل، وجعلوا القسم الثالث الأمر يدخل ضمن الدلالة على زمن المستقبل. وعليه فإن النحاةقسموا الأفعال تبعاً لأقسام الزمان الفلسفي، وخصوا كل زمن بصيغة معينة، هو معناها في حالة الإفراد والتركيب على السواء، كما فرَّق النحاة بين الزمن الصرفي والزمن النحوي وأكدوا أن الصيغة الصرفية وحدها لا تكشف عن الزمن النحوي، بل تؤدي القرائن المقالية والحاليةوراً كبيراً في تحديد الزمن، وتتمثل القرائن المقالية (السياق اللغوي) في ارتباط الفعل أو ما يقوم مقامه من المشتقات مثل اسم الفاعل بألفاظ معينة ارتباطاً معنوياً يعين على تحديد الزمن في النص.

ولكن من يبحث في زمن النص لابد له من ضبط العلاقة بين زمن الجملة وزمن النص وأثر السياق في تلك العلاقة، يقول الزناد: " النص كما رأينا من وجهة تركيبية عدد من الجمل يترابط بعضها ببعض، وهذا الترابط يحكمه نحو خاص هو (نحو النصوص) ولكن هذا النحو يظل مديناً للنحو الذي يحكم تولد الجملة، في كثير من المظاهر. وكذلك الزمن في النص يتقاسمه مستويان مستوى الجملة ومستوى النص فهو مفرد في الجملة محدود من حيث المدى والتعدد وهو جمع في النص لعدد من المقاطع المتصلة المتعاقبة أو المنفصلة المتباعدة، وهو في ذلك يظل هو الآخر مديناً للقواعد التي تحكم تولده أو التعبير عنه في مستوى الجملة"[1].

رسم الزناد حدود تلك العلاقة بين الجملة والنص، فالنص بناء مكون من عدد من الجمل التي تحمل معان معينة، وهي محكومة بقواعدها التركيبية، التي تسمح لها بالارتباط بغيرها داخل النص، وكذلك تحمل زمنها الذي يتلاقى ويلتحم بزمن غيرها في النص وفق مقتضيات السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي.

كما يوجد في النص تناسب بين البنية التركيبية والبنية الزمنية، لأن عدد الأفعال ذات الزمن الإشاري يوافق عدد الإحالات الزمنية على تلك الأفعال، وعلى ضوء هذا التوافق يكون توزيع العناصر الزمانية في الجملة المفردة والنص، وبوجود التناسب بين البنية التركيبية والبنية الزمنية يوجد الانسجام في النص، ويسهم السياق المصاحب لصيغ الأفعال بما يحويه من معلومات لغوية في إسناد التأويل الزمني الملائم، فالجملة اللغوية تحيل لتستوفي شروط الصحة والزمن أهم عناصر إسناد الإحالة للجملة، وعليه فالنص شبكة من العلاقات بين الجمل التي يقوم السياق فيها بدور فاعل في الترابط والتماسك.

وقد كان للسياق حضور فاعل في توجيه الزمن، يتضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية: قال تعالى:﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2]. الفعل (أتى) بصيغته يدل على الماضي، ولكن وجود القرينة اللفظية ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

---

[1] الأزهر الزناد، مرجع سابق، ص107.

[2] سورة النحل الآية 1.

يصرف دلالته إلى المستقبل، ويؤيد ذلك أن (أمر الله) في الآية كما قال المفسرون هو يوم القيامة[1].

ويؤكد هذا المعنى إذا نظرنا إلى عبارة (أمر الله) في هذه الآيات: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[2]، ومَّا ﴿كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[3]، و ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4] و﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[5].

فـ(أمر الله) في سياق آية (النحل) ليس مثل أمر الله في الآيات الأخرى، ولا يمكن تفسير (أمر الله) في الآيات السابقة كلها على أنه قيام الساعة، لأن اختيار المفردات ووضعها معاً في إطار جملة واحدة يقوم بدور كبير في تحديد دلالة السياق اللغوي الذي ينعكس بدوره على تحديد الدلالة العامة للنص، ومنها الدلالة الزمنية.

وتظهر العلاقة واضحة بين السياق والزمن في تحولات الأفعال في السياق، مثل التعبير عن الزمن الماضي بالفعل المضارع، والتعبير بالفعل المضارع عن الزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق لا يجري على نمط واحد، في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه، بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل الماضي، ثم يتحول النسق السياقي بذكر الفعل المضارع والعكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول، ودلالته التعبيرية في السياق.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط، ج/7، ص213.
(2) سورة الأحزاب الآية 37.
(3) سورة الأحزاب الآية 38.
(4) سورة الحجرات الآية 9.
(5) سورة الطلاق الآية 5.

وقد يكشف هذا التحول عن تصادم الأزمنة، ويدفع المتلقي إلى الانتباه والتفاعل مع النص ومحاولة إعادة التوافق بين صيغ الأفعال وأزمنتها في النص، وقد توقف العلماء عند هذا التحول وعدوه ضرباً من ضروب البلاغة[1]، وعند تناولنا لهذا التحول في صيغ الأفعال نتناوله من حيث دلالة الزمن النحوي الذي هو وظيفة في السياق الذي ورد فيه التحول.

تتمثل تحولات الأفعال في عدة صور، منها تحول الفعل الماضي إلى المضارع، فقد يأتي المضارع للدلالة على حدث قد مضى، مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[2] ، في الآية جاء الفعل (فتثير) على صيغة المضارع بعد الفعل (أرسل) على صيغة الماضي، وكان ينبغي أن يأتي الفعل المضارع (فتثير) على صورة الماضي لأنه عُطِف عليه، يقول السيوطي: "وما عُطف على حال مستقبل، أو ماضٍ أو عُطف عليه ذلك فهو مثله، لاشتراط اتحاد الزمن في المتعاطفين"[3].

جاء المضارع في هذه الآية بعد الماضي مشيراً إلى الزمن الماضي بدلالة السياق التي تقتضي إشارته إلى الماضي لأنه معطوف عليه، وهذا الاستعمال يكثر في الحكاية ويراد به استحضار الصورة، والفعل (أرسل) في الآية يمثل الزمن الإشاري الذي يتحكم في زمن النص بكامله ومنه: ما جاء في حديث عبد الله بن عتيك حين دخل على أبي رافع اليهودي حصنه قال: "فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم، لا أدري أَنَّى هو من البيت، فقلت: أبا رافع. فقال من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه بالسيف وأنا دهش"[4]. في هذا النص نجد أن الفعل (أضرب) جاء مضارع ولكنه يدل على الماضي بدلالة السياق الذي ورد فيه، لأن الأفعال في سياقه كلها ماضية، وكان من حقه أن يأتي هكذا: " فأهويت نحو الصوت فضربته بالسيف" ولكنه تحول من الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة.

---

(1) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق احمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط/2 1983م ص150.

(2) سورة فاطر الآية 9.

(3) جلال الدين السيوطي، همع الهوامع ج/1، ص23.

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،ص 206.

ومنه قوله تعالى مخاطباً اليهود: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ))[1]، الفعل: (تقتل) دال على الاستقبال ولكن المراد منه التعبير عن استحضار حدث مضى وكأنه مشاهد الآن، وذلك لأن التخيل في المضارع أقوى وأظهر منه في الماضي، وهذا التعبير يأتي كثيراً في القرآن، لأنه أراد أن يستحضر صور من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر. وكذلك جاء الفعل (تقتل) بعد الفعل (آتينا) الذي يشير إلى الزمن الماضي وبالتالي له أهمية خاصة في النص، لأنه يمثل زمناً رئيساً مستقلاً بذاته، ومن ثم يؤثر في الأفعال الواردة بعده في النص لأنها قد تحيل عليه. لذلك لابد من مراعاة السياق ففيه حصل تحول من الماضي (كذبتم) إلى المضارع (تقتلون) ولم يقل (قتلتم) هذا التحول يعطي دلالة زمنية إضافية إلى صيغة المضارع فيجعله يدل على الحاضر التاريخي كما اسماه بعض أهل اللغة[2].

ويبدو التحام الزمن بالسياق أكثر وضوحاً إذا أخذنا آية أخرى شبيهة بهذه الآية وهي قوله تعالى: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوْا بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُوْا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ))[3].

جاء الفعل المضارع (تقتلون)الدال على الحال مقترناً بظرف الزمان (قبل) الدال على المضي، مما يجعل دلالة المضارع تنصرف إلى الماضي، وعند النظر إلى السياق نجده قد نسب جريمة القتل إلى الأبناء في قوله(فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ)، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد، وذلك من بلاغة السياق القرآني، إذ أفاد الفعل (تقتلون) الاستمرارية للحدث، كما أفاد الحضور للمشهد في الأذهان، إشارة إلى أن نزعة القتل موجودة في الأبناء.

---

[1] سورة البقرة الآية 87.
[2] فندريس، اللغة ص 138.
[3] سورة البقرة الآية 91.

قال درَّاز: "وأضفى ظرف الزمان الماضي (قبل) على السياق دلالتين، دلالة تفيد إرجاع السياق اللغوي للفعل إلى الزمن الحقيقي للحدوث وهو الماضي، ودلالة أخرى توحي بأن قتل الأنبياء قد كان في الزمن الماضي في حق من سلف منهم، أما هذا النبي فلا يمكنون منه، فالله يعصمه من الناس، ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم ... فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله: من قبل"[1].

وإذا أخذنا بدلالة الماضي للظرف (قبل)، كانت دلالة الفعل (تقتلون) تفيد استحضار الصورة لحدث مضى في الزمان، وإذا أخذنا بما توحيه دلالة (قبل) من استحالة حصول الفعل وتحققه بالنسبة لهذا النبي، كانت دلالة الفعل (تقتلون) تفيد محاولة تجدد الفعل منهم والاستمرار في المحاولة، ولا تعارض بين الدلالتين.

وفي نص آخر قال تعالى: ((وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ))[2] ، في هذه الآية تنصرف دلالة الفعل (تقتلون) إلى استحضار الصورة لا غير، وليس فيه دلالة استمرار الحدث وتجدده، وذلك بسبب السياق إذ تنسجم دلالة السياق الزمنية في هذه الآية من خلال الإخبار عن من سبق من بني إسرائيل بضمير الغائب في قوله: (إليهم، جاءهم، أنفسهم)، وبالتالي السياق كله متوجه إلى الماضي، ولكن الفعل (تقتلون) جاء على صيغة المضارع لاستحضار الصورة فحسب، ولأن دلالة الاستمرار لا تتناسب والسياق.

قال الزمخشري: " جاء (يقتلون) على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجب منها"[3].

مما سبق يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة، لنقول أن دلالة الفعل (يقتلون) تفيد استحضار الصورة مع الاستمرار والتجدد، وذلك من سياق الخطاب وتفيد التيئيس من تحقق ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم، وتفيد استحضار

---

[1] د.محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، تحقيق محمد عبد الحميد الخانجي، دار طيبة، الرياض 1997م، ص 155.

[2] سورة المائدة الآية 70.

[3] الزمخشري، مرجع سابق، ج/1، ص633.

صورة قتل الأجداد للأنبياء استنكاراً لقبح فعلهم مع عدم الاستمرار، وذلك من خلال الإخبار بضمير الغائب. كل هذه الدلالات المختلفة والمتقاربة جاءت بسبب توجيه السياق اللغوي وتأثيره في توظيف القيمة الزمنية لصيغة الفعل للحصول على أكثر من دلالة زمنية لتلك الصيغة الواحدة.

وقد يتحول الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، ونفي المضارع بـ(ما)مثلاً يفيد تخليص المضارع للحال عند الجمهور[1]، إلا إذا وجدت قرينة تصرفه إلى غير الحال، ومن ذلك قوله تعالى: ((وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ))[2]، في هذه الآية تحول الماضي المنفي (ما استكان) إلى المضارع المنفي (ما يتضرع) ولم يقل الله تعالى (وما تضرعوا) ونفي المضارع هنا يفيد التأكيد والتجدد، لأنه نفى عنهم الاستكانة ثم التضرع، وذلك لأن من لم يستكن لا يتضرع، لأن التضرع أعلى مرتبة في الخضوع لله من الاستكانة، لذلك جاء النفي أكثر تأكيداً. وبالتالي وافق السياق مقتضى حالهم لأنهم ما استكانوا لله فمن باب أولى ألا يتضرعوا لله. ولو جاء السياق على النمط المتوقع (فما استكانوا وما تضرعوا) لكان المقصود ما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع العذاب، وإنما جاء (وما يتضرعون) لنفي حصول أدنى شيئ من التضرع أصلاً.

ومن تحول الماضي إلى المضارع قوله تعالى: ((وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))[3] ، تحول السياق من الفعل الماضي (أرسل) إلى المضارع (يأتيهم) وكان المتوقع أن يقول: ((وكم أرسلنا...وما أتاهم... إلا استهزؤوا به)) لأنه يخبر عن حدث مضى وهناك قرينة لفظية تؤكد ذلك وهي قوله: (في الأولين)، ولكن التحول إلى الفعل المضارع (يأتيهم) في هذا السياق دل على الكثرة والتكرار، والفعل الدال على ذلك (يستهزئون)مسبوقاً بـ(كان) وسبق الفعل المضارع بـ(كان)قد يدل على اعتياد الأمر في الماضي ووقوعه كثيراً، قال

---

[1] ابن هشام، مغني اللبيب ج/1،ص302.
[2] سورة المؤمنون الآية 76.
[3] سورة الزخرف الآية 6-7.

الرازي: "والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء"[1].

والفرق بين الاعتياد والاستمرار أن الاعتياد يتخلله الانقطاع، أما الاستمرار يقتضي الاتصال كما في الآية: ((وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ))[2]، تحول السياق إلى الفعل المضارع (يؤمنوا)، نجد أن الفعل (نقم) يشير إلى الماضي وإلى أن هذه النقمة مضت وانتهت ودل الفعل المضارع (يؤمنوا) على الاستمرار، في حين دل سياق الآية ((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ))[3] دل الفعل (تنقمون) على استمرار وتجدد نقمة أهل الكتاب على المؤمنين، وجاء بعده الفعل (آمنا)ماضياً ليدل على ثبات إيمان المؤمنين ورسوخه فهو حاصل متحقق في حكم الماضي والمستقبل بلالة الفعل (تنقمون).

يظهر أن السياق هو الذي يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له، فيكون كل سياق اختص بتركيب قصد إليه لمعنى.

ومن دلالات تحولات الأفعال، ما ورد في قوله تعالى: ((حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ))[4]، إذ حصل في هذا السياق تحول عن الفعل الماضي (خر) إلى الفعل المضارع (فتخطفه) أو(تهوي) الفعل (خر) يشير إلى تحقق حصول الفعل في الماضي، قال سيد قطب: "خر من السماء، وفيه دلالة على سرعة حصول الخرور والسقوط دون تماسك وانتظام، كما يوحي بها جرس اللفظة (خر) وقصرها وخفتها وتكرار صوت الراء فيها إشارة إلى تكرار السقوط والهوي والتقلب في الهواء، وما أضفاه التفخيم في الخاء والراء من تفخيم لمشهد الهوي نفسه، فالملحوظ هو سرعة

---

[1] الرازي، تفسير الرازي ج/27/619.
[2] سورة البروج الآية 8.
[3] سورة المائدة الآية 59.
[4] سورة الحج الآية 31.

الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ بـ(الفاء)، وفي المنظر بسرعة الاختفاء"[1].

أفاد التحول إلى المضارع استحضار الصورة، وإطالة زمن المشهد وزاد في الإطالة الحرف (في)، وإذا جاء في مكانه الحرف (إلى)مثلاً لاختلف المعنى، وأصبح السقوط إلى منطقة معينة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ))[2] ، لقد تحول السياق عن الفعل الماضي (أعجب) إلى الفعل المضارع (يهيج) و (يكون) ولم يأت الخطاب مطابقاً (... ثم هاج ... ثم كان)، وهذا التحول اقتضاه السياق لأنه تجاوز لحظة الإعجاب بهذا الزرع بالإخبار عنها بالماضي، وكأنها لحظة مضت دون تريث، ثم تلاها على الفور مشهد الزوال والفناء مخبراً عنه بالزمن الحاضر، حتى يظل مشهد الاندثار كأنه حاضر ماثل للعيان ولا ينافي ذلك مجيئ الحرف (ثم) فهو هنا يفيد التراخي الرتبي لا الزمني[3]. اقتضى تدرج المشهد من لحظة الفرح، إلى مرحلة أخرى شديدة على النفس وهي اصفرار الزرع، ثم إلى مرحلة ثالثة أشد وقعاً على النفس، وهي مرحلة الزوال والتحطم، ومن غير شك أن كل مرحلة تحتاج إلى مفردات مختلفة، وصيغ فعلية مختلفة تتناسب وحالة تلك المرحلة.

ومن دلالات تحول الأفعال المستفادة من السياق، التركيز على النتيجة، كما في الآية ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ))[4]، تحول الماضي (أنزل) إلى المضارع (تصبح)، وهذا التحول إلى المضارع مرده إلى أن التأمل المطلوب في آيات الله لا تتعلق بالحدث، بل بنتيجة الحدث وآثاره المترتبة على وقوعه، فجاء التحول (فتصبح) ليثبت المشهد عند نقطة

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط/22، 1994م ج/4، ص2421.
(2) سورة الحديد الآية 20.
(3) الزمخشري، مرجع سابق، ج/4، ص154.
(4) سورة الحج الآية 63.

معينة، وينبغي للمشاهد أن يقف عندها ويستحضرها أمام عينيه، وفيه دلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده واخضرار الأرض باقٍ لم يمض[1].

يرى الناظر في هذه الآية مدى انسجام السياق اللغوي ومقصد الشارع، وذلك لأن الله عندما نبَّه إلى كمال قدرته استخدم الفعل الماضي المحقق الوقوع، ثم أتبعه بالفعل المضارع المثبت الدال على استحضار المشهد.

وقد يذكر المضارع ثم يعطف عليه الماضي، والسياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة، فقد يدل التحول على سرعة تحقق الحدث، أو على الرغبة في حدوث الفعل، أو على انقطاع الفعل أو غيره من الدلالات المختلفة. من ذلك قوله تعالى: ((وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ))[2].

تحول السياق من الفعل المضارع (ينفخ) إلى الفعل الماضي (فزع)، وكان مقتضى الظاهر للسياق أن يجري على نسق واحد فيكون (فيفزع)، لأن الحدث لم يقع بعد، فالحديث عن المستقبل البعيد وهو يوم القيامة، فدل الفعل (فزع) على سرعة تحقق الحدث وهو واقع لا محالة، مثل تحقق الماضي في حدوثه، وكأنه يتحدث عن أمر قد حدث وحصل في الزمن الماضي، وفيه مزيد من تأكيد لأمر البعث والنشور، ودلالة على السرعة والدهشة والذهول بدلالة مجيئ حرف العطف (الفاء)[3]. وقال ابن الأثير: "والإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وآكد في تحقيق الفعل وإيجاده لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء التي يستعظم وجودها"[4].

نجد في هذا السياق أن الفعلين (ينفخ)، و(فزع) قد وردا للإخبار عن المستقبل، ولكن تختلف دلالتاهما، فدلالة المضارع تفيد استحضار صورة الحدث من المستقبل،

---

(1) ابن الأثير، المثل السائر ج/2، ص198.
(2) سورة النمل الآية 87.
(3) الزمخشري، مرجع سابق، ج/3، ص161.
(4) ابن الأثير، المثل السائر ج/2، ص198.

ودلالة الماضي تفيد تحقق حدوثه ووقوعه ومثله ما ورد قوله تعالى: ((يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ))[1] الحديث في الآية عن يوم القيامة وزمنه هو المستقبل، ولكن الله تعالى قال: (يقدم قومه...فأوردهم) ولم يقل (فيوردهم) أو (سيوردهم)، ومجيئ هذا التحول إلى الماضي فيه دلالة على القطع والتأكيد على وقوع الحدث وحصوله، وصُدِّر الفعل بالفاء ليدل على سرعة وقوع الحدث. وهذا النوع من التحول يخبر عن نتائج محققة لأحداث سابقة لها، تحمل طابع الدهشة والمفاجأة، مثل: ففزع من في السموات، حدث مفاجئ مترتب على النفخ في الصور وكذلك ورود فرعون وقومه النار، يعقب مشهد قدومه إلى ساحة الحشر بذلة وصغار، ويرد غالباً في مشاهد القيامة والحشر والبعث، لذا أضفى عليها الأسلوب القرآني زمن الماضي في حدوثها لتأكيد تحققها وحصولها[2].

ويرد التحول إلى الماضي لدلالة على أنه سابق للمضارع في الحصول، قال تعالى: ((إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ))[3] ، قال الزمخشري: "والماضي وإن كان يجري في جواب الشرط، مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً، من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردكم كفاراً، وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم..."[4].

بيَّن الزمخشري في هذا السياق سبب التحول إلى الماضي، من زاوية النظر إلى عنصر الزمن وذلك بأن الماضي أسبق في الوقوع من المضارع.

ويرد التحول إلى الماضي للدلالة على الاختصاص بوصف ثابت، قال تعالى: ((وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ))[5]، التمسك بالكتاب أمر مستمر في كل الأزمنة، وكذلك إقامة الصلاة مستمرة في أوقاتها ومعنى هذا أن التعبير بالمضارع قد دل على الاستمرار والتجدد، أما الصلاة فإنها لما كانت

---

[1] سورة هود الآية 98.
[2] د.مالك المطلبي، الزمن واللغة، ص 72.
[3] سورة الممتحنة الآية 2.
[4] الزمخشري، الكشاف ج/4، ص90.
[5] سورة الأعراف الآية 170.

على المؤمنين كتاباً موقوتاً، عبَّر عن إقامتها بالفعل الماضي، حتى صارت إقامتها صفة لهم[1].

ومن السياقات التي ورد فيها التحول إلى الماضي دالاً على الرغبة في تحقق الفعل، قوله تعالى ((يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ))[2].

لقد حصل التحول عن المضارع (ينفقون) إلى الماضي (أنفقتم)، ولو جرى السياق على مقتضى الظاهر لكان: (يسألونك ماذا ينفقون قل ما تنفقون ...) لأن الجواب جاء بأسلوب الشرط وأسلوب الشرط يقتضي الاستقبال، ولكن القصد من مجيئ الشرط ما ض، وإن كان معناه الاستقبال هو إنزال غير المتيقن منزلة المتيقن، وغير الواقع منزلة الواقع[3]. قال ابن جني "وكذلك قولهم: إن قمت قمت، فيأتي بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع، وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع واستقر، لا أنه متوقع مترقب"[4]. ومما سبق ذكره يتضح سر التحول إلى الماضي، في الشرط في قوله تعالى: (ما أنفقتم)وإن كان مستقبلاً في معناه، وذلك لإظهار الرغبة في حصوله وحثهم على فعله، فكأنه حاصل منهم متقرر.

وإذا كان التحول إلى الماضي يدل على الرغبة في حدوث الفعل، فإنه في سياق آخر قد يدل على عدم الرغبة في الفعل والانصراف عنه، وهذا يؤكد أن السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة، ومنه قوله تعالى: ((وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ))[5] سبقت الإشارة إلى أن فعل الشرط إذا جاء ماضياً، وحقه أن يأتي مضارعاً كما هو الأصل اللغوي، فإنه يدل على تحقق الحدث وحصوله، وقد يرد ماضياً لأسباب أخرى كالتفاؤل والرغبة في حصوله، أو للدلالة على حصول الحدث مرة واحدة، في حين أن المضارع قد يفيد تكرار الحدث وتجدده[6].

---

(1) ابن الأثير، المثل السائر ج/1، ص184.
(2) سورة البقرة الآية 215.
(3) محمد بن علي، حاشية الصبان ج/4، ص16.
(4) ابن جني، الخصائص ج/3، ص105.
(5) سورة لقمان الآية 12.
(6) د. فاضل السامرائي، معاني النحو ج/4، ص58.

وكل الدلالات السابقة قد يقبلها الفعل، ولكن السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة والفعل المضارع (يشكر) في الآية دل على التجدد والاستمرار في الشكر، ومحاولة الوصول فيه إلى أعلى مرتبة، ثم تحول إلى التعبير عن الكفر، بذكر الفعل الماضي (كفر) تغييباً لحدث الكفر وعدم التوقف عنده، ورغبة في الانصراف عنه.

قال الرازي: "وفي هذه الآية قال في الشكر: (ومن يشكر) بصيغة المستقبل، وفي الكفران (ومن كفر)، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل بمعنى واحد، كقول القائل: من دخل داري فهو حر، ومن يدخل داري فهو حر، فنقول فيه إشارة إلى معنى، وإرشاد إلى أمر، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت... والكفر ينبغي أن ينقطع..."[1].

وقد يأتي التحول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر في سياق واحد، كما في قوله: ((قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ))[2].

حصل في هذا السياق تحول عن الفعل الماضي (أمر) إلى الأمر (أقيموا)، وفعل الماضي (أمر) يدل على تحقق ذلك الأمر وحصوله وتمامه، فهو أمر صادر عن الله تعالى، ولكنه سلب منه الزمن، فهو يدل على مطلق الأمر في الماضي، والحاضر، والمستقبل، والتحول إلى فعل الأمر (أقيموا) ليدل على طلب الفعل على سبيل الوجوب في الحاضر والمستقبل، إذن لما كان أمر الله واقع لا محالة عبَّر عنه بالفعل الماضي المطلق، ولما كان الأمر بإقامة الصلاة موجهاً للعباد جاء على صيغة فعل الأمر ليدل على الوجوب، وزمنه يشمل الحاضر والمستقبل.

ويأتي التحول إلى فعل الأمر للدلالة على سرعة تحقق الحدث، مثل قوله تعالى: ((وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ))[3] ، نجد السياق كله يدل على أن الأحداث الواردة فيه قد حصلت في الزمن الماضي، بقرائن لفظية: (لقد علمتم

---

[1] الرازي، تفسير الرازي ج/25، ص146..
[2] سورة الأعراف الآية 29.
[3] سورة البقرة الآية 65- 66.

اعتدوا، فقلنا، فجعلناها)، فالزمن المسيطر على السياق هو زمن الماضي، ولكن السياق تحول إلى الأمر (كونوا قردة) لأن في الأمر (كونوا)شداً للانتباه بالتحول الحاصل في السياق، وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله.

قال أبو حيان: " (قلنا لهم كونوا) أمر من الكون، وليس بأمر حقيقة، لأن صيرورتهم إلى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم، لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم قردة، بل المراد منه سرعة الكون على هذا الوصف..."[1].

وقد يرد التحول إلى الأمر للدلالة على كيفية وقوع الحدث، كما في قوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوْا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ))[2].

يخبر السياق عن حدث مضى، وكان يقتضي أن يكون "فأماتهم الله ثم أحياهم"، ولكنه تحول عن الماضي إلى الأمر "موتوا"، للدلالة على أن الحدث قد وقع بسرعة وقوة شملت جميع المخاطبين فلم يتخلف عنه أحد، وأن الموت قد تلبسهم جميعاً في لحظة واحدة، ولو قال: "فأماتهم" لما كان في الماضي دلالة على ذلك، ولكان المعنى أنهم قد ماتوا فحسب، يقول الزمخشري: "فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، فإن قلت: ما معنى قوله: فقال لهم موتوا قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوا امتثالاً من غير إباء ولا توقف"[3].

ثم مثّل الفعل الماضي "فأحياهم"تحولاً عن الأمر إلى الماضي، لدلالة توحي بأن القدرة الإلهية هي التي أحيت كما أماتت، إذ ليس بمقدور الأموات أن يكونوا أهلاً للخطاب وتوجيه الأمر إليهم فيما لو قال: ثم (احيوا) وفيه إشارة إلى مطل الزمن مع التراخي الذي يشي به الحرف (ثم)مع فعل الإحياء، حتى يشاهد بعضهم بعضاً لحظة الإحياء فيكون ذلك أشد وقعاً وأثراً على النفس.

---

[1] أبو حيان، البحر المحيط، ج/1، 246.
[2] سورة البقرة الآية 243.
[3] الزمخشري، الكشاف ج/1، ص771.

وقد يكون التحول عن المضارع إلى الأمر، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَال وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]، أو عن الأمر إلى المضارع، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ أَقِيمُوْا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

نجد أن السياق له دور بارز ومهم في تحديد الدلالة المناسبة لهذا التحول، ومن خلال تحليل سياقات تحولات الأفعال المتعددة في النص، نخلص إلى أن كل تحول في المبنى يصاحبه تحول في المعنى قطعاً، وأن الأفعال في السياق تكتسب دلالتها الزمنية من السياق الواردة فيه، لا من بنيتها الصرفية فحسب، ولكننا لا نجهل البنية الصرفية للصيغة لأن زمنها يمثل الزمن الإشاري الأولي الذي قد يحال عليه، كما أن دراسة أثر السياق في تحديد دلالة الزمن تتطلب اتباع عدة وسائل لجبر المخالفة بين زمن الصيغة والزمن النحوي، أهمها نسبة الزمن إلى الصيغة، ثم مراعاة السياق الذي وردت فيه الصيغة المعنية، بغرض توجيه زمن الصيغة وفق الدلالة العامة للسياق، كأن يكون السياق سياق شكر، أو تحذير، أو أمر، أو نهي، أو استفهام أوغيره من الأساليب المختلفة، مع الأخذ بكل القرائن المقالية وتأثيرها، وأخيراً مراعاة استحضار عناصر سياق الحال، وخاصة المتكلم والمخاطب، عند توجيه دلالة الزمن.

---

[1] سورة البقرة الآية 155.
[2] سورة البقرة الآية 71- 72.

المبحث الأول

الزمن الصرفي في الحديث النبوي

سيتبع الباحث منهجاً في التطبيق يقوم على الآتي:

1- استخدام الرموز اللغوية المتعارف عليها بين العلماء والباحثين المحدثين وهي:

أ- الرموز التالية : ج= الجملة، ر م= ركن المسند، رم إ= ركن المسند إليه، س= اسم، ف= فعل فا= فاعل، م= مبتدأ، خ= خبر، ن= نص، ز م أ = زمن معطى أولي، ز إش = زمن إشاري، ز إح = زمن إحالي.

2- اختيار الأحاديث المعنية بالتطبيق، ثم إطلاق كلمة النص على الحديث،فالنص (1)مثلاً يعني الحديث (1)، وهكذا.

3- تقسيم الحديث الواحد إلى عدد من الجمل، والإشارة إليها بالجملة (1)، والجملة (2)... في النص (1) أو النص(2).....

3- شرح طبيعة المنهج المتبع في التحليل والذي يتسق وهدف الباحث في الكشف عن الزمن اللغوي وكيفية التعبير عنه في الجملة، وأثره في المعنى، وهذا كله يتعلق بالجملة وتركيبها، لذلك لابد من اتباع منهج علمي في تحليل الجملة وكيفية تركيبها ابتداءً من الجملة البسيطة وانتهاءً بالنص الشامل لأكثر من جملة واحدة.

وقد كثرت النظريات التي حللت الجملة إلى مكوناتها الأولية ومن أشهر هذه النظريات النظرية التوليدية التحويلية التي هدفت إلى تفسير الظاهرة اللغوية، وكذلك هي قريبة في أساسياتها التي قامت عليها من النحو العربي، خاصة بعد التعديلات التي أُدخلت عليها، مما جعلها قادرة على كشف مكونات وتركيب الجملة العربية البسيطة، وقد وجدت النظرية الاهتمام والإشادة من كثير من العلماء العرب، يقول الراجحي: "...لكن هؤلاء جميعاً لا يستطيعون أن يتغافلوا عن منهج تشومسكي، بل إن كل مدرسة تحدد منهجها وأصولها بالقياس إلى منهجه وأصوله"[1]

[1] د.عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص110.

إن المبادئ التي نادى بها التحويليون لا تختلف إجمالاً مع ما جاء به نحويو العربية فالنحو العربي يلتقي مع النظرية التوليدية التحويلية في جوانب كثيرة [1]. ومن أهم تلك الجوانب:

1/ صدور كل منهما عن أساس عقلي فتشومسكي يؤكد أن اللغة قدرة وملكة فطرية ووحدة من وحدات العقل[2]. وفي النحو العربي قواعد كثيرة يبدو فيها أثر العقل واضحاً مثل تقسيم القاعدة النحوية إلى أصلية وفرعية، والتمسك بالعلل والقياس وهو جملة من القواعد الذهنية التي تؤدي إلى الاستنباط[3]، والقياس يعني جملة الأصول (القواعد الأصلية) التي وضعها النحويون لتضبط منهجهم وهي من وضع عقولهم وهناك قواعد تحكم النحوي قائمة على العقل: "الأصل في العمل الأفعال" و"الأصل في الاسماء ألا تعمل" و"الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال" و"القليل لا يعتد به" وغيرها من القواعد، كما وردت عبارة "وهو القياس" في كتاب سيبويه في أكثر من موضع[4].

2/ قضية الأصالة والفرعية ويقصد بالأصل عند النحويين الحكم الموافق للعقل وهو ما يقابل القاعدة الفرعية، فكل شيء يخالفه إما فرعاً أو شاذا وإن لم يعطوه هذا الحكم ردوه إلى الأصل[5] ويطلق الأصل أيضاً على القواعد التي وضعتها عقول النحويين لتمكنهم من الاستنباط النحوي كقولهم: "الحمل إنما يكون على الأصول لا الفروع"[6] وغيرها كثير، هذه الجوانبنلمس فيها أثر العقل بادياً، وعند التحويليين الأصل هو التركيب الباطن، والفرع هو التركيب السطحي[7].

3/ نظرية العامل التي تعد حجر الزاوية في النحو العربي[8]، ويرى تشومسكي أن نظرية العامل والربط السياقي تمثل ذروة ما توصلت إليه النظرية من اكتمال فالنظرية التحويلية تقرر أن النحو ينبغي أن يربط بين البنية السطحية والبنية العميقة

---

(1) أحمد المهدي المنصوري، النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها في النحو العربي، جامعة حلب، سوريا، ص328.
(2) د.عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص115.
(3) د. محمد خير الحلواني، أصول النحوالعربي، مطبعة الشرق، حلب، ط/1، 1979م، ص35.
(4) سيبويه، مرجع سابق، ج1/ ص75.
(5) علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤن الثقافية العامة، بغداد، 1986م، ص43.
(6) السيوطي، الهمع، ج1/ ص169.
(7) ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط/1، 1992م، ص45.
(8) أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي، دار المعرفة، الإسكندرية، 1992م، ص91.

هذا لا يمكن أن يغفل أمر نظرية العامل لأن دراسة البنية العميقة تقتضي فهم العلاقات على المستوى التركيبي والوقوف على التأثير والتأثر لتلك العلاقات، يرى الراجحي: "التحليل النحوي عند التحويليين يكاد يتجه إلى تصنيف العناصر النظمية وفقا لوقوعها تحت تأثير عوامل معينة ينبغي على الدارس أن يعرفها ابتداءً وتكاد المصطلحات التي يستعملها التحويليون لا تختلف عن كلام العرب القدماء"[1]. ما ذكرناه يقود إلى أن (نظرية العامل) ألقت بظلالها في التحليل النحوي عند العربية والتحويليين معاً.

4/ خاصية التحويل عند تشومسكي تتشابه في كثير من جوانبها مع ما نجده في النحو العربي من قواعد الحذف، والتعويض، والزيادة، والإضافة، والتوسع، وإعادة الترتيب، وكلها ظواهر تحويلية[2]، اهتمت بالجانب الإبداعي في اللغة وإظهار المعنى.

5/ قدم تشومسكي أكثر من طريقة في التحليل، مما يدل على تماسك النظرية وقبولها للنقد والتعديل قربها من النحو العربي في كثير من قواعدها.

والنص اللغوي يتألف من مجموعة من الجمل المترابطة، وهذا التأليف الجملي يفرض أن نتناول الجملة بشيء من الإيجاز لنقف على هذا العنصر الأساس في بناء النص، فالجملة هي النموذج الأمثل للتعبير، الذي يحمل المعنى ويؤدي القصد، ويقوم الدرس اللغوي كله عليها من حيث تأليفها ونظامها، وما تؤديه من معانٍ متعددة.

ووجدت اهتماماً كبيراً من القدماء والمحدثين، ففي القديم عرفوا الجملة تعريفات كثيرة كلها اتفقت على أنها التركيب المفيد المستقل بنفسه، كما هو عند المبرد[3] وذات التعريفات انعكست في الدرس اللغوي المعاصر، مع مراعاة ظروف التطور حيث إنها: "مركب لغوي دال مكون في اللسان العربي من عنصرين رئيسيين هما: المسند، والمسند إليه، اللذان يظهران في نماذج الكلام المشخص بصورة متعددة متنوعة بالغة الغنى، تتضمنها بنى تركيبية أساسية كل منها يشبه النواة"[4]. وعليه

---

[1] د.عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص148.
[2] المرجع السابق، 149.
[3] المبرد، المقتضب ج/1، ص8.
[4] د.محمد حماسة عبد اللطيف، الجملة في الشعر العربي، دار الفكر، بيروت، ط/2، 1979م، ص218.

أخذت الجملةأبعاداً مختلفة في الدرس الحديث، إذ اعتبرت الوحدة اللغوية الأساسية التي لها مطلق الأهمية في التعبير والإفصاح في أي لغة من اللغات. وفي محاولة تأسيسية لنحو ما فوق الجملة "نحو النص" عدت الجملة بنية صغرى تتحرك نحو مثيلاتها لبناء "البنية الكبرى" التي هي النص الشامل.

هذه الرؤية القديمة والحديثة للجملة تبين أهمية دراستها والوقوف على أنواعها وعلاقاتها مع غيرها من الجمل في النصوص، وتعبيرها عن المعنى بكل أشكاله وأبعاده، والجملة وفق المنظور الوظيفي تتألف من شقين هما: المسند إليه، والمسند وعليه يمكن أن نحلل الجملة من خلال النقاط الآتية:

أ- المسند.

ب- المسند إليه.

ج- أنماط الإلحاق المختلفة (الفضلة).

نخلص إلى أن الجملة مصطلح يدل على وجود علاقة إسنادية بين اسمين، أو اسم وفعل والإسناد هو نسبة إحدى الكلمتين إلى الأخرى، وتبعاً لهذين الشقين (المسند إليه والمسند) تم تقسيم الجملة إلى نوعين، هما: الجملة الاسمية، والجملة الفعلية، وهذا التقسيم الثنائي يعد أول خطوة من خطوات التحليل التي دأب عليها النحاة. وهذا التقسيم إلى (جملة اسمية و جملة فعلية)عده المخزومي تقسيماً صحيحاً أقره الواقع اللغوي، وقال: "لأن الجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند والمسند إليه بلا دلالة على تجديد أو استمرار... أما الجملة الفعلية فموضوعة لبيان علاقة الإسناد مع دلالة زمنية على حدث في الماضي أو الحاضر أو المستقبل..."[1]. من خلال هذا العرض يمكن أن نستنتج أن الجملة العربية تسلك خطين:

الأول: مبتدأ (مسند إليه) + خبر (مسند) + متعلق ظرفي بالجملة الاسمية = جملة اسمية.

الثاني: فعل (مسند) + فاعل أو ماينوب عنه (مسند إليه) + مفعول به مباشر + مفعول ظرفي = جملة فعلية. إن هذا التقسيم الثنائي الذي اعتمده النحاة يتكون من:

---

[1] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص40.

1- المسند إليه ويشمل (المبتدأ، الفاعل، نائب الفاعل، أو ما تحول اسماً لناسخ فعلي أو حرفي).

2- المسند ويشمل (الخبر، الفعل).

3- الإسناد وهو عنصر معنوي، جاء في شرح الكافية: " وذلك لأن أحد أجزاء الكلام هو الحكم أي الإسناد الذي هو رابطة ولابد له من طرفين، مسند ومسند إليه، ..."[1] إذن الإسناد هو الجامع بين طرفي الجملة، ليتم العقد ويصح التركيب، وليتحقق شرط مبنى الجملة، أي تتضمن إسناداً يربط بين عناصرها، وعليه فإن الجملة هي قاعدة الكلام، يضبطها قانون متعارف عليه تنتظم بموجبه، وإذا اختل هذا النظام لا يؤدي الكلام غرضه في التواصل والتفاهم.

وقد تعددت الدراسات حول الجملة، كما تعدد تحليليها كل بحسب المنهج الذي يرتضيه ولكن الهدف من التحليل ظل واحداً، وهو الوصول إلى كنه المعنى والتعامل مع الكلمات في التركيب على أنها المباني التي تحمل المعاني، فيدرك المتكلم غرضه من تركيبه، ويعرف السامع حدود مقصود المتكلم ومراده.

وتحمل الجملة دلالات مختلفة من بينها الدلالة الزمنية، وهي في المستوى الصرفي مرتبطة بصيغة الفعل، ومعنى هذا الارتباط أن الزمن وظيفة الصيغة الصرفية، وليس جزءاً من الصيغة الصرفية، والفعل من حيث المبنى الصرفي ماض ومضارع وأمر، وهذه الأقسام تختلف من حيث المبنى، وتختلف من حيث المعنى الصرفي الزمني أيضاً، ويمكن أن نوضح علاقة الفعل بالزمن من الناحية الصرفية من خلال الشكل الآتي:

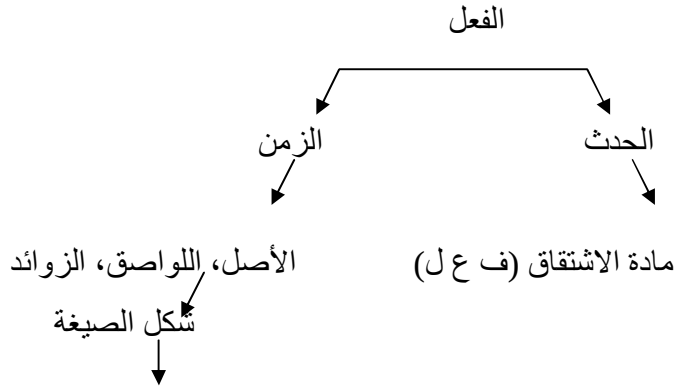

[1] رضي الدين الاستراباذي، شرح الكافية، ج/1، ص8.

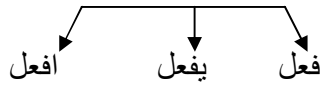

يمثل هذا الشكل مخططاً صرفياً للفعل وعلاقته بالزمن، فالفعل يدل على اقتران حدث وزمن والحدث مشتق من الأصل الثلاثي (ف ع ل) الذي يمثل مادة الاشتقاق وهذا الحدث من سماته التجدد والإشارة إلى مسند إليه، إذن الزمن ليس من مكونات الفعل الأصلية، ولكن لما كان الحدث مرتبطاً في وقوعه بزمن ما أُلحق الزمن بالفعل وأصبح كالجزء منه، فالزمن كما في الشكل مستمد من الارتباط بين شكل الصيغة الفعلية ووقوع الحدث ،على اختلاف شكل الصيغة.

يتضح أن الزمن الصرفي يتحصل من مجموع الصيغ (فعل، يفعل، افعل) وتفريعات هذه الصيغ مثل صيغة الماضي التي تتفرع إلى (فَعَل، فَعِل، فَعُل، تفاعل فُوعل)وغيرها من الأشكال التي تتحد في كونها صيغاً للماضي، وتختلف كل واحدة عن الأخرى بما تحمله من دلالة خاصة بها، وعليه يمكن رسم مشجر زمن الصيغ الفعلية في الحقل الصرفي كالآتي:

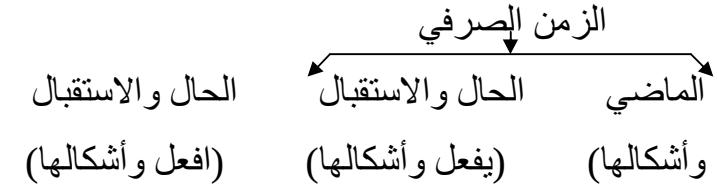

يوضح الشكل أن الزمن الصرفي إما ماضياً، أو مضارعاً، أو أمراً، فالماضي مع كل تفريعاته حدث في زمن مضى وانتهى، والمضارع كذلك مع كل أشكاله يحدث في الحال أو الاستقبال ومثله القسم الثالث الأمر.

أولاً صيغة الماضي وزمنها:

يقصد بالصيغة الشكل التصريفي للفعل، فإذا أخذنا الصيغة (فَعَل) على أنها الأصل في الماضي فإن هذه الصيغة تتصرف إلى صيغ أخرى من حيث التجرد والزيادة ولهذه الصيغ الفرعية علاقة بزمن الحدث، ولها علاقة بالدلالة التي ترشحها الصيغة الأصلية البسيطة قبل دخولها في السياق اللغوي. لقد تناول سيبويه الفعل وتقسيمه وتحدث عن صيغة فعل وربط بينها والزمن الماضي فقال: "فإذا قال: ذهب، فهو دليل

على أن الحدث فيما مضى من الزمان"[1]. ولكن المتأمل لكلام سيبويه يجده قسم الفعل إلى دلالات زمنية، فالفعل عنده دال على الماضي أو على المستقبل. وتابع سيبويه معظم القدماء فالمبرد يرى أن (فَعَل) لما مضى من الدهر، و(يَفعَل) يكون لِما أنت فيه، ولِما لم يقع من الدهر[2]، وأما الزجاجي فنص على تقسيم ثلاثي للفعل ماضٍ ومستقبل، وفعل في الحال يسمى الدائم[3].

مما سبق يمكن القول أن النحاة القدامى أجمعوا على أن الفعل في العربية، قادراعلى أن يفصح عن الزمن بأقسامه الثلاث، وإن كانت مباحثهم تشير إلى خروج الفعل إلى اعتبارات زمنبية أخرى.أما إذا انتقلنا إلى المحدثين فنجد معظمهم اتفق على التقسيم الثلاثي للفعل، وعلى الدلالة الصرفية للفعل، ولكنهم اهتموا بالكشف عن الزمن من خلال السياق، فالسامرائي يقر بأن في العربية صيغا قادرة على بيان أزمنة الفعل المتعددة[4]، والمخزومي يؤكد أن النحاة القدامى كانوا يدركون ما للفعل من دلالة على الزمان، ويدركون كذلك الفرق بين (فعل) و (قد فعل) و (كان فعل)[5]، أما تمام حسان فكان يرى أن الزمن يأتي على المستوى الصرفي من شكل الصيغة وعلى المستوى النحوي من السياق[6].

إذن يمكن القول أن المحدثين لم ينكروا الزمن الصرفي لأن الصيغة مرتبطة به وتدل عليه ولكنهم ركزوا على تناول الزمن الصرفي من خلال السياق وملابساته التي تؤثر كثيراً في توجيه دلالة الفعل الزمنية.

أما عن دلالة الماضي الزمنية، فالماضي ما جاء على صيغة (فَعَلَ)دالاً على اقتران حدث بزمان قبل زمانك[7]. فهو يدل على وقوع الحدث في الزمن الماضي في معظم حالاته فزمنه الصرفي هو الماضي، ولكنه قد ينصرف إلى دلالات أخرى إذا اقترن ببعض القرائن وهذه القرائن تشير إلى دلالات إضافية مكملة لدلالة الصيغة الأصلية، ولا تلغي الدلالة الأصلية للصيغة المعنية، وللوقوف على دلالة صيغة

---

(1) سيبويه، الكتاب، ج1، ص35.
(2) أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، عالم الكتب، بيروت، ج4، ص335.
(3) أبو القاسم الزجاجي، الجمل في النحو، ص7.
(4) د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص23.
(5) د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص 146.
(6) د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص104.
(7) ابن يعيش، شرح المفصل، ج7، ص4.

الماضـي الزمنيـة يمكـن النظـر إلـى تلـك الدلالـة مـن خـلال قسـمي صـيغة الماضـي فالماضي إما مجرد أو مزيد.

ا- الماضي المجرد:

يأتي الماضي المجرد في أربعة صور هي: فَعَلَ، فَعِلَ، فَعُلَ، فَعْلَلَ، يمثلها الشكل الآتي:

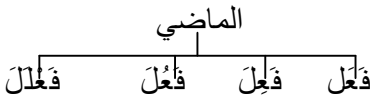

وقد فصَّل الصرفيون معاني هذه الصيغ تفصيلاً دقيقاً، نذكر بعض المعاني بشيء من الإيجاز مع التركيز على أثر هذه المعاني في زمن الصيغة.

1- **فَعَلَ**: يأتي هذا البناء لمعان عدة مثل غلبة المقابل، وإصابة أصل الشيء، أو إنالته أو عمل به أو أخذ منه[1]. فهذا البناء يعبر عن الحدث الذي تم وانتهى قبل وقت الحديث عنه، وإن كان أثره لما يزل قائماً، وعلى ذلك فإن الصيغة تشير إلى تمام الحدث، أما زمنها فإنه خارج السياق من الناحية الصرفية يرتبط بالماضي أو يقف إزاءه، أما جهة الحدث فإنها مطلقة غير محددة إن لم تتدخل عوامل أخرى تصرف دلالة الزمن عن ذلك المعنى أو تحدد بُعد الحدث من المتكلم، وهذه القرائن قد تكون لفظية، أو معجمية، أو حالية وذلك متعلق بالسياق واللفظ.

أولاً صيغة (فَعَل) ومن أشهر معانيها:

أ- الإشارة إلى حدث كان قد تم في زمن مضى لا يمكن ضبطه وتعيينه، مثلاً: "كَتَب محمد الدرس" هذه الجملة يمكن تحليلها إلى مكوناتها من خلال هذا المشجر:

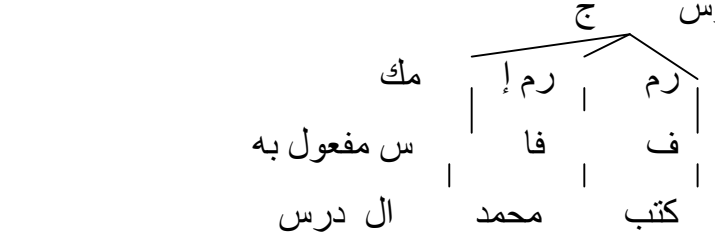

[1] أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، ص39، ابن عقيل، ص195، وابن يعيش، ج/7، ص102، ود. عبدة الراجحي، التطبيق النحوي، ص27.

تتكون هذه الجملة من الفعل وهو المسند، وفاعله وهو المسند إليه، والمفعول به وهو المكمل الفضلة، والفعل الماضي (كتب) يصح وقوعه من الفاعل (محمد) حقيقة ويمكن كذلك تحقيق المفعولية مع المفعول به (الدرس)، وبهذا الترتيب والتناغم بين عناصر الجملة، تكون الجملة سليمة بناءً ومعنى، ويشير فيها الفعل الماضي (كَتَبَ) إلى زمن مضى وانتهى وهو الزمن الصرفي لهذه الصيغة (فعل). فلا يوجد في الجملة ما يُعيِّن زمناً آخر أو يوجه الصيغة إلى جهة ما. وهذا هو الشكل الأساس للجملة العربية في تركيبها وبنائها بعد توسعها بدخول المفعول به.

وقد وردت صيغة (فَعَل) دالة على الماضيالمطلق في الحديث النبوي كثيراً ولكن قبل ذكر النصوص وتحليلها لابد أن نشير إلى أن الصيغ المختارة للتطبيق ليست منزوعة من هذه النصوص نزعاً كاملاً، ولكنها استخرجت بغرض الإشارة إلى الزمن الصرفي، وبالتالي فإن المعنى لن يكتمل إلا بعد تناول هذه الصيغ داخل النص الذي وردت فيه، وفي سياقها بشقيه اللغوي وغير اللغوي. وبالجملة فإن العلاقة بين الصيغة وزمنها تظهر عند تسييقها، لأن السياق يبرز طاقاتها الزمنية المتنوعة، كما يبرز جهة الحدث أيضاً، وعليه فإن الكشف عن الزمن الصرفي يعد خطوة أولى تجاه الوقوف على الزمن النحوي ودوره في بناء النصوص. ويمكن أن نوضح التكوين العام للنص بهذا الشكل:

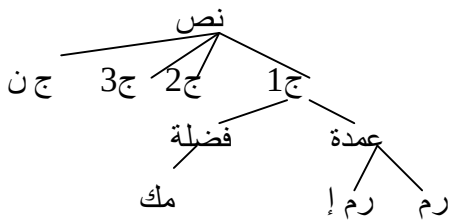

يتألف النص من عدة جمل، من الجملة (1) إلى الجملة (ن)، وكل جملة في النص تتكون من ركنين أساسيين (العمدة)، والمكملات الأخرى (الفضلة) التي يطلق عليها القيود وتشمل المفعولات والحال والتمييز وغيرها.

وإذا رجعنا إلى النص "... المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلِمونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ والمُهَاجِر مَنْ **هَجَر** مَا **نَهَى** اللهُ عَنْهُ" [1] يمكن تقسيم هذا النص إلى جملتين "المهاجرمن **هجر** ما **نهى** الله عنه" (ج1)، و"المسلم من **سَلِمَ** المسلمون من لسانه ويده" (ج2). فالجملة (1) جملة اسمية و يمكن أن نحللها إلى مكوناتها كالآتي: مبتدأ + خبر. والخبر نفسه جملة فعلية مكونة من فعل وفاعل الضمير المستتر، كما في المشجر أدناه: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

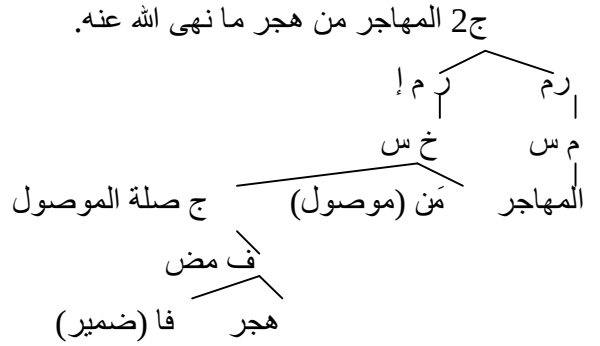

جاء الفعل (هَجَرَ) على زنة (فَعَلَ) دال على تمام الحدث ففي قوله صلى الله عليه وسلم: (المهاجر من هجر ...) إشارة إلى الزمن الماضي المطلق، وهذه هي الدلالة الصرفية الأساسية لصيغة (فَعَلَ)والتي وجدت اتفاقاً تاماً من القدماء والمحدثين، ورد في حاشية الصبان قوله:" إن هذه الصيغة تعبر عن الماضي الذي يحتمل القرب أو البعد"[2]، وقال السامرائي: "صيغة (فَعَلَ) تدل على حدث كان قد تم في زمن ماض لا نستطيع ضبطه وتعيينه"[3]. ومثل الفعل (هَجَرَ) الأفعال (نَهَى، وَجَد، آمَن...) التي وردت في النصوص الآتية: "ثلاث مَّن كُن فِيه **وَجَد** حلاوة الإيمَان:أَن يَكُون الله ورَسُوله أَحَبَّ إليه مما سِواهُما..." (باب حلاوة الإيمان، ح16،ص7) و -"ثلاثة لهُم أجْران: رجل من أهل الكتاب، **آمن** بنبيه **وآمن** بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعبد المملوك إذا **أدى** حق الله وحق مواليه..."(باب تعليم الرجل أمته، ح97، ص29).

---

[1] صحيح البخاري، مرجع سابق، ح10، ص6.
[2] الصبان، حاشية الصبان، ج/1، ص59.
[3] د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص53.

على الترتيب كلها تشير إلى الماضي المطلق، وأكد ذلك ابن حجر حين أشار في شرح الحديث: (وَجَدَ حلاوة الإيمان) إلى أن الفعل (وَجَدَ) تام متحقق الوقوع[1].

وفي النص: "إنما **جُعل** الإمام ليؤتم به، فإذا **كبَّر** فكبِّروا، وإذا **ركع** فاركعوا وإذا **سجد** فاسجدوا، وإن **صلى** قائما فصلوا قياما"(باب الصلاة في السطوح، ح371 ص95). وردت أكثر من جملة مشتملة على صيغة (فَعَل) في أسلوب الشرط وهذا الأسلوب كثير الورود في الحديث النبوي، وأسلوب الشرط لا يخرج الفعل من كونه ماضياً تاماً متحقق الوقوع، ولكن قد يوجهه إلى المستقبل، لأن معنى الشرط أن يقع الشيء لوقوع غيره[2].

من الجمل الواردة في النص السابق: إذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى قائما فصلوا قياماً. فهي كلها جمل شرطية مصدرة بالأداة (إذا)، وصيغة (فعل) فيها تدل على الماضي المطلق وإن كان متحقق الوقوع في زمن ما، والصلاة أمر مستمر لا ينقطع وبالتالي المراد التركيز على وقوع الحدث وليس على زمن وقوعه.

وقد ذهب بعض النحاة إلى أن الشرط يفيد الاستقبال وإن كان فعله ماضيا[3]، وقال بعضهم: وإذا أردت المضي جعلت الشرط (كان)[4]، ولكن الشرط قد يدل على الماضي من غير(كان) وجاء في شرح الكافية:"وقد يستعمل الماضي في الشرط متحقق الوقوع، وإنْ كان بغير لفظ (كان) لكنه قليل بالنسبة إلى (كان) كقولك: أنت وإنْ أعطيت مالاً بخيلاً..."[5].

ب- أن يأتي بناء (فَعَلَ) للدلالة على أن الحدث وقع في زمن ماض نتيجة لأحداث أخرى، ففي النصين: " مَن**لقِي** الله لا يُشرك به شيئاً **دخَل** الجنَّة"(باب من خص بالعلم قوماً دون قوم،ح136، ص29). و "بايِعُوني عَلَى ألاّ تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقُوا ولا تزْنوا ولا تأتُوا بِبهْتان بين أيدِيكُم وأرْجلكم ولا تَعْصوا في مَعْروف، فمَن وَفى مِنْكم فأجْره على اللهِ، ومن **أصابَ** من ذلك شيئاً فعُوقِب في الدّنيا فهُو كفَّارة له

---

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار مصر للطباعة، ط/1، 2001م، ج/1، ص49.
(2) أبو العباس المبرد، المقتضب، ج/2، ص46.
(3) الصبان ، حاشية الصبان، ج/4، ص16.
(4) رضي الدين الاستراباذي، شرح الكافية، ج/2، ص293.
(5) نفسه ج/2، ص239.

ومن أصابَ مِن ذَلك شيئاً ثمَّ **سترَه** فهو إلى الله إنْ **شَاء عَفا**، وإنْ**شَاء عاقَبَه** (باب علامة الإيمان حب الأنصار، ح18، ص7).

الشاهد: (دَخَلَ، سَتَرَه)، فالفعل هنا ورد في جملة تامة مكونة من فعل وفاعل ومفعول به ويدل على الماضي المطلق، ولكنه مرتبط بما قبله من الأفعال من حيث وقوعه فالجملة:من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، يتحقق مدلولها يوم القيامة، ولكن لما كان حدث الإيمان وعدم الشرك بالله وقع في الدنيا، والجزاء لا شك فيه عُبِر عنه بصيغة الماضي الدالة على تمام وقوع الحدث وإن كان هذا التمام سيكون في يوم القيامة. ومثل (دخل) الفعل (ستر) مرتبط بما قبله من أحداث وقعت في الماضي، ثم يأتي ستر الله الذي لا شك فيه بعد وقوع تلك الأحداث مرتبطاً بها في زمنها.

ج- يرد بناء (فَعَلَ)كثيراً في سرد أحداث ماضية، في أسلوب القصص التي حدثت في الماضي ومثل هذا كثير في الحديث النبوي، منه: :"بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، **دخل** رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم **عقله** ثم قال: أيكم محمد؟ والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ..." (باب ما جاء في العلم،ح63، ص20). الشاهد الفعلان: (دَخَلَ، عَقَلَ) يدلان على وقوع الفعل في الزمن الماضي التام وهما واردان في أسلوب قصصي يسرد أحداثاً وقعت في الماضي في زمن ما، فالعلاقة بين الرجل الداخل إلى المسجد والفعل (دخل) دلت على زمن مطلق مرتبط بالفاعل، ومع أن هذا الزمن قد يمكن تحديده فالرجل دخل المسجد على جمله ثم أناخه وعقله، إلا أن الفعل (دخل)لا يعطينا زمناً محدداً، ومثله: (عقله) إلا إذا ورد في النص ما يحدد الزمن تحديداً أدق.

د- يرد بناء (فَعَلَ) ويشير إلى أن الفعل تم وأنجز واستمر على هذه الحال إلى زمن التكلم، ومثاله: "إنَّ هذا أمر كَتَبَه الله" يدل الفعل الماضي كَتَبَه على الزمن الماضي وأثره ما زال مستمراً إلى زمن التكلم، وهذا ينطبق على كل ماض مسند إلى الله تعالى فزمنه مستمر بلا قيد.

هـ - كما يأتي (فَعَل) ليدل على أن الفعل حدث وهو متكرر الحدوث، كما في: "يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس **خلقك** الله بيده، وأسجد لك ملائكته..."(باب وعلّم آدم، ح206،ص65).و "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: **آمنا** بالله وبما أنزل إلينا" (باب قولوا: آمنا بالله، ح421،ص234). و"**ذاق** الإيمان مَن **رضِي**بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً" (باب من رضي بالله رباً ح34،ص76).

الأفعال: (خَلَق، آمَنَ، ذَاق) تدل على حدوث الفعل وأنه متكرر الحدوث. فالخلق مستمر ومتكرر وكذلك الإيمان يزيد وينقص، وتذوق الإيمانأيضاً متكرر.

2- (فَعِل): ذكر النحاة لهذه الصيغة معان كثيرة، قال ابن هشام: " وتكثر فيه العلل كسقِم والحزن كحزن، وضدها كفرح وجذِل، والألوان والعيوب..."[1] وجاء في شذا العرف: " ويأتي من هذا الباب الأفعال الدالة على الفرح وتوابعه، والامتلاء والخلو والألوان والعيوب، والخلق الظاهرة التي تذكر لتحلية الإنسان ... ، كفرح وطرب وبطِر وأشِر، وغضِب وحزن، شبِع وسكِر وكعطِش وظمِئ، وصدِي وهيِم، وكحمِر وسود، وكعور وعمِش وجهر، وكغيِد وهيِف ولمِي"[2]

ومثاله: "المسلم من سلِمَ المسلمون من لسانه ويده"، و "مَن لَقِيَ الله..." و"ذاق الإيمان مَن رَضِي بالله رباً" الأفعال: (سلِمَ، لَقِيَ، رَضِي) جاءت على صيغة (فعِل) وهذه الصيغة على ما فيها من الاستقرار النسبي للحدث أو امتداد أثره إلى وقت الكلام أو ما بعد وقت الكلام، إلا أن البناء يشير إلى التمام والانقطاع، أما الزمن فإنه يشير إلى الماضي، مثل صيغة (فَعَلَ) تماماً.

3- فَعُلَ: جاء في شرح الكافية "وتستخدم هذه الصيغة مع أفعال الطبائع والخصال التي تتميز بشيء من الاستقرار عن بناء (فَعِلَ) مثل:ظَرُفَ، وشَرُفَ، ويدل على الماضي المطلق والحدث التام ..."[3].

---

[1] أحمد الحملاوي، شذا العرف، ص23.
[2] المرجع السابق، ص25.
[3] الاستراباذي، شرح الكافية، ج/1، ص70.

ومنه: "إذا أسلم العبد وحَسُنُ إسلامه" جاء في شرح شذور الذهب أن صيغة (فَعُل) لا تأتي إلا لازمة وتدل على الثبوت لأنها كالوصف القائم على فاعله، وفي هذه الصيغة ما يوحي بشيء من الدلالة على تكرار الحدث وهي قريبة من المبالغة، فإذا أردنا أن نبالغ في بناء (فَعَل) فإننا ننقل بناء (فَعَل) إلى (فَعُل)[1]. إذن هذه الصيغة لا تختلف عن صيغة (فَعَل) في زمنها إذ تدل على الماضي.

نخلص إلى أن صيغة (فَعَل) هي الأصل لكل الصيغ الثلاثية الأخرى، (فَعِل) و (فَعُل) و(فُعِل) بالبناء للمجهول، وكل هذه التفريعات تشير إلى قسم زمني محدد وهو الماضي، وهذه الإشارة صرفية، ولكنها تظل المرجع الأول في تحديد الدلالة الزمنية لأي نص تدخل فيه، وذلك لأننا عند الكشف عن زمن النص نقف أولاً على دلالة الصيغ الأصلية على الأقسام الزمنية، ثم ننظر في السياق للبحث عما قد يوجه الدلالة الأصلية للصيغة، إلى أي جهة زمنية إضافية، أو يغير القسم الزمني للصيغة من الماضي مثلاً إلى المضارع، وعليه فالزمن الصرفي زمن سياقي لا يصح تجاهله عند التحليل كما في النصوص المذكورة فصيغة (فَعَل) ظلت محتفظة بزمنها الصرفي حتى في أسلوب الشرط الدال على تعليق الأحداث.

4-فَعْلَل: وهذه الصيغة للماضي الرباعي المجرد، وهي من حيث الدلالة فإنها تدل على معان كثيرة منها: المشابهة والتحول واستخدام الآلة والاختصار وغيرها[2]. أما من حيث الجهة الزمنية فإنه يدل على الماضي التام المطلق، وتحديد الجهة تحديداً أدق يحتاج إلى قرائن سياقية.

ولهذه الصيغة (فَعْلل) ملحقات كثيرة، منها فوعل، وفعنل، وفيعل وغيرها، وتختلف هذه الملحقات عن الصيغة الأصل (فَعْلل) في المعنى، ولكنها لا تختلف عنها في دلالتها الزمنية.

ب- **الماضي المزيد:**

تدخل حروف الزيادة على الصيغتين المجردتين (فَعَل) و(فَعْلل) لأغراض كثيرة، نتناول بعضاً منها:

---

[1] جمال الدين عبد الله بن هشام، شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، القاهرة، 1990م، ص109.

[2] د.محمد عبد الرحمن الريحاني، اتجاهات التحليل الزمني في الدراسات اللغوية، ص23.

1- **(فَعَّل)** بتضعيف العين، ولها معان كثيرة منها التعدية، والإزالة والسلب، وتكثير حدوث الفعل، والصيرورة، والنسبة إلى أصل الفعل وغيرها[1]. ومما ورد في الحديث: "إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا **كبَّر** فكبِّروا، وإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا، وإن صلى قائما فصلوا قياما"(باب الصلاة في السطوح، ح371، ص95). و "إذا **أتى** أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره، شرقوا أو غربوا"(باب لا تستقبل القبلة ببول،ح144،ص41). جاء هذا التضعيف في قوله (كبَّر) لغرض تقوية الفعل وتكثيره وتكراره، ومعناه يتضح أكثر وفق الاستخدام، أما في قوله (شرِّق) فالمعنى هو اتخاذ الاتجاه، وليس للتضعيف تأثير على زمن الفعل فالصيغة لا زالت تدل على الماضي التام المطلق.

2- **فَاعَل**: ويغلب استخدام هذه الصيغة في معنى المشاركة، والمغالبة والموالاة والتكثير وغيرها[2]. وهذه الصيغة يلاحظ عليها أنها إذا دلت على الموالاة والمتابعة فإنها تشعر باستمرار الحدث كقولك: تابعت المسرحية حتى آخرها، وزمنها يحدده تحديداً أوضح السياق والقرائن، أما إذا دلت على التكثير مثلاً كقولك: ضاعف الله أجر المجاهد في سبيله، فإن الحدث يكون تاماً وزمن الصيغة هو الماضي ولكن لابد من مراعاة السياق.

3- **أفعَل**: وتأتي زيادة الهمزة لأغراض كثيرة منها التعدية، والدخول في المكان أو الزمان والسلب، والمعاني ذكرها الصرفيون في كتبهم. ومنه: " **أسْجَد** لك ملائكته" و"سبحان الله ماذا **أنزل** الليلة من الفتن" ومثله كثير في الحديث النبوي الشريف.

إن زمن هذه الصيغة (أفعَل)بعيداً عن السياق هو الماضي، مع مراعاة أن العناية الكبيرة في هذه الأمثلة منصبة على حالة الحدث ومعناه، لأن تحديد الزمن يتطلب الأخذ بعلاقات السياق وملابساته، وعليه فإن هذه الصيغة إن دلت على التعدية فالحدث قد وقع واكتمل كما في " وأسجد لك ملائكته" فالسجود حدث وقع واكتمل في الزمن الماضي، وكذلك ما دل على السلب أو على كثرة الوقوع.

---

[1] انظر ابن جني، الخصائص، ج/2، ص 115، وسيبويه، الكتاب ج/4، ص 58، وأحمد الحملاوي، شذا العرف، ص41.
[2] د.محمد حماسة عبد اللطيف وآخرون، النحو الأساسي، دار الفكر العربي، القاهرة،1997م، ص146.

وللماضي الثلاثي المزيد صيغ أخرى، منها: تفَعَّل، وتفَاعَل، وانْفَعَل، واسْتَفَعَل وافْعَلّ وافْعِلَّ وغيرها، وكلها لا تؤثر في شكل الجملة اسمية أو فعلية، وتظل الجملة مع هذه التنوعات محتفظة بركنيها الأساسيين المسند والمسند إليه ثم المكملات وكذلك هذه التنوعات في صيغة (فَعَل) لا تغير زمن الصيغة من الماضي إلى أي قسم زمني آخر كما لا تؤثر في الجهة، إلا عن طريق السياق.

ولمزيد الرباعي كذلك صيغ مشهورة منهاتَفَعْلَلَ، وافْعَنْلَل، وافْعَلَّل، وتدل الصيغة الأولى والثانية على المطاوعة، كقولك: دحرجته فتدحرج، وزمن الصيغة الدالة على المطاوعة هو الماضي، أما الصيغة الثالثة فتدل على المبالغة مثل: اطمأن، وكذلك زمنها هو الماضي. والملاخظ أن هذه المعاني كالمبالغة والمطاوعة وغيرها، معاني نسبيه اجتهادية توصل إليها الصرفيون عبر الملاحظة والاستعمال الغالب، وبالتالي هي ليست قياسية أو ثابتة، لأن الوقوف على معنى الصيغة لا يكتمل إلا من خلال السياق الذي ترد فيه[1].

وتأتي صيغة الماضي أو المضارع مسبوقة بالفعل (كان) أو (بقد) أو بـ(ما) أو (السين) أو (سوف) أو غيرها مما يتركب مع هذه الصيغ من الأفعال الناقصة أو الحروف، وتكون معها ما عرف بالمركبات الزمنية لأ نها تؤثر في زمن الصيغة الصرفية.ومن المركبات الزمنية المهمة التي ترد كثيراً في اللغة، المركب (كان فَعَل)، و(قد فَعَل) و(لقد فَعَل)، و(مافَعَل).

أ- المركب كان فَعَل:

تحدث النحاة عن (كان)كثيراً، منهم ابن يعيش قائلاً: "وأما كونها أفعالاً فلتصرفها بالماضي، والمضارع، والأمر، والنهي، والفاعل. نحو قولك: كان، يكون كن، لا تكن، وهو كائن، وأما كونها ناقصة، فإن الفعل الحقيقي يدل على معنى وزمان ... إلا أنها لما دخلت على المبتدأ والخبر أفادت الزمان في الخبر وصار الخبر كالعوض من الحدث..."[2].

---

[1] د.عبدة الراجحي، التطبيق النحوي، ص43.
[2] ابن يعيش شرح المفصل ج/7، ص89.

تناول ابن يعيش عدة قضايا متعلقة بـ(كان) وأخواتها، من بينها الإشارة إلى علاقتها بالزمن في قوله: (أفادت الزمان في الخبر)، وقد ورد لبعض النحاة قدامى ومحدثين آراء في (كان) وأخواتها مختلفة عن رأي ابن يعيش، إذ لم يخل مؤلف نحوي من هذا الباب (كان وأخواتها) والذي يجمع عليه النحاة هو الدلالة الزمنية لـ(كان)، فهي إن دلت على زمن فإنها تدل على الزمن الماضي. وعليه عندما تتركب (كان) مع صيغة فعل، فإن هذا التركيب يشير إلى الماضي البعيد. كما في: "إذا أسلم العبد وحسن إسلامه، يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها*وكان بعد ذلك القصاص والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها" (باب حسن إسلام المرء، ح41، ص13). فقوله: صلى الله عليه وسلم: (كان زلفها) أي ارتكبها في الماضي قبل أن يسلم لأن الحديث يبين أن الله سيغفر لمن أسلم وحسُن إسلامه الذنوب التي ارتكبها في الماضي.

وهذا النص يمكن أن نقسمه إلى مجموعة من الجمل وهي: إذا أسلم العبد ج1، وحسن إسلامه ج2، يكفر الله عنه كل سيئة ج3، كان زلفها ج4. وهذه الجمل لابد أن تكون مترابطة ومتماسكة فالجملة الأولىمرتبطة بالثانية لفظاً ومعنى بواسطة حرف العطف (الواو) وكذلك الجملتان مرتبطتان بالجملة الثالثة لأنها الجواب والجزاء، والرابعة مرتبطة بالثالثة إذ بينت الزمن الذي ارتكبت فيه السيئة وهو الماضي قبل الإسلام، وهكذا تماسك النص معنى وبناءً. ويمكن أن نمثل ذلك البناء النصي كالآتي:

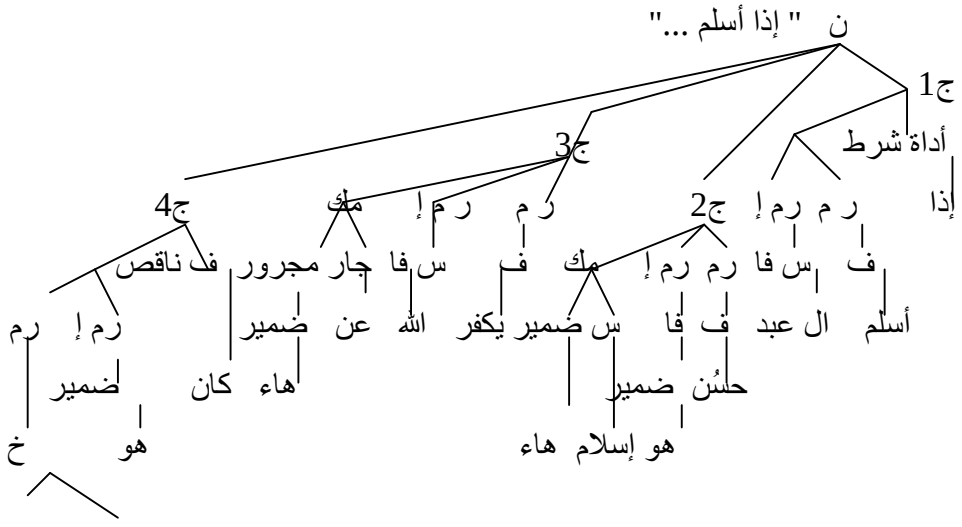

* زلف بمعنى قرَّب، والمراد ارتكبها، أو جمعها.

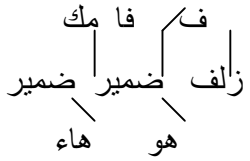

يضم الشكل أعلاه عدداً من الجمل ولكن هذه الجمل على كثرتها مرتبطة ومتماسكة في بناءٍ واحد لا خلل فيه، وهذا الارتباط لا شك أنه يتم بعدة وسائل، فقد يكون عن طريق الأداة مثل حرف العطف، كما هو بين الجملتين 1و2، وقد يكون الربط مباشراً بغير أداة كما هو بين الجملتيين 2 و3فالارتباط بينهما ارتباطاً بيانياً لأن الجملة الثالثة - جواب الشرط – فيها بيان وشرح مرتبط بالجملتين السابقتين.

ثم جاءت ج4 مكملة لمعنى النص ومنسجمة مع الجمل السابقة ومرتبطة بها في المعنى وفي الزمن الذي يعد وسيلة من وسائل التماسك بين الجمل في النص، فلو قال الرسول صلى الله عليه وسلم في النص السابق: (إذا أسلم العبد وحسُن إسلامه كفَّر الله ...) ولم يقل (يكفر) لاختلف المعنى قليلاً أو كثيراً، لأن تكفير الذنب معلق يقع بعد الإسلام وإحسانه، وبالتالي فإن التعبير عنه بصيغة يفعل الدالة على المضارع أنسب، كما أن الأمر المتعلق بالله تعالى لا شك فيه فإذا وقع الشرط سيقع الجواب لا محالة.

أما المركب (قد فعل)، فهو عند سيبويه لا يشير إلى جهة زمنية، فهو يرى أن قولك: قد ذهب بمعنى قولك: قد كان منه ذهاب [1]، ولكن من القدماء من جعل لهذا المركب دلالة زمنية قال ابن الخباز:"إذا دخل (قد) على الماضي أثر فيه معنيين: تقريبه من الحال وجعله خبراً منتظراً"[2]. أي أن المركب (قد فعل) يدل على الماضي القريب من الحاضر. وفي الإنصاف كذلك المركب (قد فعل) يدل على الماضي القريب، قال ابن الأنباري: " ومن أجل ذلك جوزوا اقتران (الآن) أو (الساعة) به فيقال: قد قام الآن أو الساعة"[3].

---

[1] سيبويه، الكتاب ج/1، ص24.

[2] حسن بن قاسم المرادي،الجني الداني في حروف المعاني، تحقيق طه محسن، مؤسسة دار الكتاب للطباعة، الموصل، 1976م ص 271.

[3] ابن الأنباري، الانصاف ج/1، ص254.

ومن المعاصرين من تابع سيبويه ولم يلصق بالمركب (قد فعل) دلالة زمنية، كما في قول حامد عبد القادر:" إن (قد فعل) تدل على الماضي المؤكد"[1]. ومنهم من ألصق بـ(قد فعل) دلالة زمنية مثل مهدي المخزومي الذي جعل المركب يدل على الماضي القريب من الحال[2]، أما إبراهيم السامرائي فجعل دلالة (قد فعل) للماضي القريب[3]، ويراه تمام حسان دالاً على الماضي المنتهي بالحاضر[4]. يتضح مما سبق أن معظم الدلالات التي وردت للمركب (قد فعل) تشير إلى الزمن الماضي.

جاء في الأحديث: -" **قد عرفت** الذي رأيت من صنيعكم، فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة" (باب صلاة الليل، ح798 ص169). و" **لقد رأيت الآن**، منذ صليت لكم الصلاة، الجنة والنار، ممثلتين في قبلة هذا الجدار، **فلم أر** كاليوم في الخير والشر" (باب رفع البصر في الصلاة،ح716، ص73). و"إن الناس **قد صلوا** ورقدوا، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة" (باب يستقبل الإمام الناس،ح811، ص195). و"ما من شيء لم أكن أريته إلا **قد رأيته** في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، وإنه **قد أوحي** إلي..."(باب من قال في الخطبة، ح880، ص211) و"إن تطعنوا في إمارته، **فقد طعنتم** في إمارة أبيه من قبله..." (باب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ح4004، ص545).

الشاهد: (قد عرف، لقد رأي، قد صلَّى، قد أوحي، قد جاء، قد طعن)، في هذه الشواهد نجد أن الحرف (قد) دخل على صيغة (فعَل) و(فعَّل) و(أفْعَل) وعلى الصيغ التي ترجع إلى الأصل (فعَل)، والمركب (قد فعل) يدل على الماضي المطلق المؤكد الوقوع، ولكن (قد) لا تشير إلى جهة معينة، إلا إذا وجد في السياق ما يدل على الجهة الزمنية. ويمكن أن نمثل ذلك كالآتي:

قد عرفت:

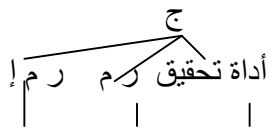

---

[1] مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 10، ص68.
[2] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص150.
[3] د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص37.
[4] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ملحق الكتاب، جدول رقم2، ص273.

قد ف س فا
عرف ت (ضمير المتكلم)

دخول (قد) على صيغة (فعَل) لم يغير تركيب الجملة، كما لم يوجه أو يغير زمنها، ولكنه يقوي ويؤكد وقوع الحدث، أما الدقة الزمنية فمردها إلى السياق.

أما قوله" (لقد رأيت ...) فدخول اللام على (قد) لزيادة تأكيد وقوع الفعل في الماضي، ولا تؤثر في الزمن، وإلى ذلك أشار سيبويه وعدَّ (اللام) للقسم[1]، ووافقه معظم النحاة، وعليه فإن المركب (لقد فعل) لا يختلف في دلالته الزمنية عن المركب (قد فعل).

أما المركب (ما فعل) فإنه يتكون من (ما) النافية وصيغة (فعل)، قال سيبويه:" إذا قلت (فعل) فإن نفيه (لم يفعل)، وإذا قلت (لقد فعل) فإن نفيه (مافعل)، لأنه كأنه قال: والله لقد فعل فقال والله ما فعل"[2]، كلام سيبويه يوضح أن نفي (فعل) يتم بقولك: (لم يفعل) وقولك: (ما فعل)، أي أن (ما فعل) لنفي الماضي المطلق، كما نلحظ من كلامه أن النفي بـ(ما) آكد من النفي بـ(لم) لأن النفي بـ(ما) يكون للقسم على حد عبارة سيبويه. وقال ابن يعيش:" فتقول لم يقم زيد أمس كما تقول ما قام زيد أمس"[3] وهذا معناه أن هناك توافقاً زمنياً بين (لم يفعل وما فعل).

أما المحدثون ففرقوا بين النفي بـ(ما) والنفي بـ(لم) من جهة نوع النفي وزمن النفي، قال إبراهيم أنيس: "إن استقراء الأساليب العربية .. يرجح ما نذهب من أن النفي بـ(لم) آكد من النفي بأداة بسيطة مثل (ما)[4].

والعقاد عنده أن (لم) تنفي الحدوث، ونفي الحدث لا يكون إلا لزمن ماضٍ، و(ما) تنفي الانبغاء، والانبغاء يعني أننا لا ننفي الحدث بل أن الحدث لاينبغي أن يكون أصلاً [5]. تؤكد الأقوال السابقة أن دلالة (مافعل) الزمنية تنصرف إلى الماضي.

ورد في الحديث: " "**ما رأيت** ناقصات عقل ودين أذهب لِلبِّ الرجل الحازم من إحداكن" (باب هل تصلي المرأة، ح304، ص76).

---

[1] سيبويه، الكتاب ج/3، ص117.
[2] نفسه ج/3، ص17.
[3] ابن يعيش، شرح المفصل ج/2، ص111.
[4] د. إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص156.
[5] مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 10، ص69.

"... فقال الخضر: يا موسى **ما نقص** من علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور في البحر".الشاهد قوله: (ما رأيت، ما نقص) ويمكن توضيح ذلك كالآتي:

ما رأيت:

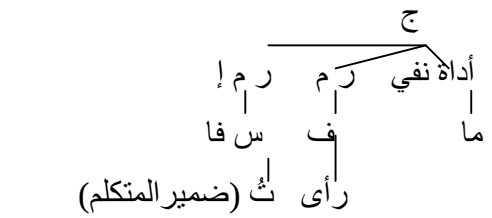

دخول (ما) النافية على صيغة (فعل) تفيد نفي الحدث نفياً قاطعاً في الزمن الماضي، ولا تؤثر (ما) في زمن الصيغة بتوجيهه أو تغييره إلى قسم زمني آخر، كما لاتؤثر في بناء الجملة.

إذن (كان، قد، لقد، ما) هي أشهر القيود الزمنية التي تتركب مع صيغة (فعل) والأمثلة المذكورة وضحت أن هذه القيود الزمنية لا تغير القسم الزمني لصيغة (فعل)، أي أن هذه الصيغة تظل محتفظة بزمنها الصرفي الدال على الماضي، ولكنها توجه زمن الصيغة إلى القرب، أو البعد، وحتى هذا التوجيه أحياناً يحتاج إلى قرائن أخرى تستفاد من السياق.

ثانياً صيغة المضارع وزمنها:

المضارع هو الذي يأتي على وزن (يفعل)، الدال على وقوع الحدث في الحال أو الاستقبال،على اختلاف بين النحاة القدامى، فمنهم مَن يجعله للحال، ومنهم من يجعله للاستقبال وقد جاء في شرح المفصل: "ويشترك فيه الحاضر والمستقبل، واللام في قولك:إنّ زيداً ليفعل مخلصة للحال كالسين، أو سوف للاستقبال"[1]، أما السيوطي فنجده يقول: "المضارع يميزه افتتاحه بأحد الحروف الأربعة: الهمزة، والنون والتاء، والياء، وهو صالح للحال والاستقبال خلافاً لمن خصه بأحدهما"[2].

ولقد لخص السيوطي آراء النحاة القدامى، بقوله: "في زمان المضارع خمسة أقوال: الأول: إنه لا يكون إلا للحال، ... قال: لأن المستقبل غير محقق الوجود فإذا

---

[1] ابن يعيش، شرح المفصل، ج/6، ص8.
[2] السيوطي، الهمع ج/1، ص16.

قلت:زيد يقوم غداً فمعناه ينوي أن يقوم غداً. الثاني: إنه لا يكون إلا للمستقبل، وعليه الزجاج، وأنكر أن يكون للحال صيغة لقصره، لأنك بقدر ما تنطق بحرف من حروف الفعل صار ماضياً وأُجيب بأن مرادهم بالحال الماضي غير المنقطع، لا الآن الفاصل بين الماضي والمستقبل. الثالث: وهو رأي الجمهور وسيبويه: إنه صالح لهما حقيقة، فيكون مشتركاً بينهما،... الرابع: أنه حقيقة في الحال مجاز في المستقبل وعليه الفارسي..، الخامس: إنه حقيقة في المستقبل مجاز في الحال..."[1].

يميل الباحث إلى أن المضارع زمنه مشترك بين الحال والاستقبال، إلا إذا وجد ما يخلصه لأحدهما. أما المحدثون فإنهم يميلون إلى استنباط دلالة المضارع من خلال السياق، لذلك ذكروا

له دلالات كثيرة، كما هو عند تمام حسان: أن المضارع يدل على أزمنة كثيرة، ذكر منها: الحال

العادي والحال التجددي، والحال الاستمراري، والاستقبال البسيط [2].وخلُصَ عبد القادر حامد بعد أن درس معاني المضارع في القرآن الكريم، إلى أن دلالة المضارع في القرآن الكريم، تشمل على وجه التقريب كل ما يمكن تصوره من الأزمنة، وذكر من هذه الأزمنة: الماضي، والحاضر والمستقبل القريب، أو البعيد، أو المستمر[3]. ما ذكره تمام حسان وعبد القادر حامد يمثل آراء معظم المحدثين، ولا تختلف هذه الآراء عن أقوال القدماء كثيراً كلها تحصر زمن المضارع في الحال أو الاستقبال، بغض النظر عن جهته أو دلالته على الماضي بتأثير السياق. ومن تلك الدلالات:

أ- أن تدل صيغة (يفعل) على الحال، ويترجح فيه الحالإذا كان مجرداً، قال السيوطي: "لأنه لمَّا كان لكل من الماضي والمستقبل صيغة تخصه، ولم يكن للحال صيغة تخصه جعلت دلالته على الحال راجحة عند تجرده من القرائن..."[4].

---

[1] السيوطي، الهمع، ص17.
[2] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص245.
[3] عبد القادر حامد، مجلة مجمع اللغة العربية، مقال: معاني المضارع، العدد 13، ص157.
[4] السيوطي، مرجع سابق، ج/1، ص19.

الفعل المضارع زمنه مشترك بين الحال والاستقبال، لذلك لابد من وجود ما يميز بين دلالته على الحال، أو الاستقبال. وقد اتفق معظم النحاة أن صيغة يفعل المجردة من القرائن تدل في الغالب على الحال.

جاء في الحديث:"**يوشك** أن يكون خير مال المسلم، غنم **يتبع** بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن"(باب حلاوة الإيمان، ح19، ص7) الشاهد الأفعال: (يوشك، يتبع) كلها أفعال مضارعة جاءت عل صيغة (يفعل) وهي مجردة من القرائن الزمنية، وتدل على الحال أو الاستقبال، فاتباع الغنم، أوالفرار بالدين، كل هذه الأحداث يمكن أن تقع في الحال وفي الاستقبال.

ب- يأتي بناء (يفعل) ليدل على أن الحدث من الحقائق الثابتة، ومنه الحديث: "... وإنما أنا قاسم والله **يعطي**، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" (باب من يرد الله به خيرا ح/71، ص22). الشاهد الفعل (يعطي) يدل عل أن عطاء الله من الحقائق الثابتة، فالمراد النص على هذه الحقيقة.

ج- وتدل صيغة (يُفعَل) على كثرة وقوع الحدث دون التقيد بزمن، ومنه الحديث: " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: **تطعم** الطعام، **وتقرأ** السلام، على من عرفت ومن لم تعرف" (باب إطعام الطعام ح12، ص6). الشاهد قوله: (تطعم، تقرأ) صيغة يفعل دالة على تكرارالحدث من غير أن تتقيد بزمن معين.

د- وتدل صيغة (يفعل) على أن الحدث مسند إلى الله تعالى، كما في الحديث: " ... إنما **يرحم** الله من عباده الرحماء" (باب من لا يرحم ح1284، ص567)، الشاهد الفعل (يرحم) الرحمة مسندة إلى الله، وعُبر عنها بصيغة (يفعل) الدالة على الحال والاستقبال، لأن رحمة الله مستمرة لا تنقطع.

تبيَّن الأمثلة المذكورة أن صيغة (يفعل) مجردة تدل على الحال أو الاستقبال، وهذه الدلالة دلالة صرفية مستفادة من الصيغة، ولا تتقيد بجهة معينة، أما الدلالات التي ذكرها النحاة مثل: دلالة (يفعل) على كثرة وقوع الحدث، أو على الحقيقة الثابتة، أو غيرها، فمردها إلى السياق الذي ترد فيه الصيغة.

وقد أشار النحاة إلى تعدد زمن صيغة (يفعل)، وذلك عندما تتركب هذه الصيغة مع بعض القيود الزمنية، ومن أهم تلك المركبات:

كان يفعل: دخول (كان) يغير القسم الزمني لصيغة (يفعل) من الحال أو الاستقبال إلى الماضي والماضي الناتج من هذا التركيب اسماه تمام حسان الماضي المتجدد[1] وأطلق عليه المخزومي الماضي المستمر[2].

مثاله: - "يا عبد الله لا تكن مثل فلان، **كان يقوم** الليل، فترك قيام الليل" (باب ما يكره من ترك قيام الليل ح1101، ص874). و"... يحشر الناس يوم القيامة فيقول: من **كان يعبد**شيئاً فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبق القمر..." (باب فضل السجود)،ح888 ص213). و"أحب الصلاة إلى الله صلاة داؤد عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داؤد، **وكان ينام** نصف الليل ويقوم ثلثه..."(باب من نام عند السحر، ح1079، ص266). و"لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا رجل **كان يصوم** صومه، فليصم ذلك اليوم" (باب لا يتقدمن رمضان، ح1825 ص658). الشاهد قوله: (كان يقوم، كان يعبد، كان ينام، كان يصوم)، ويمثل ذلك الشكل أدناه:

كان يقوم الليل:

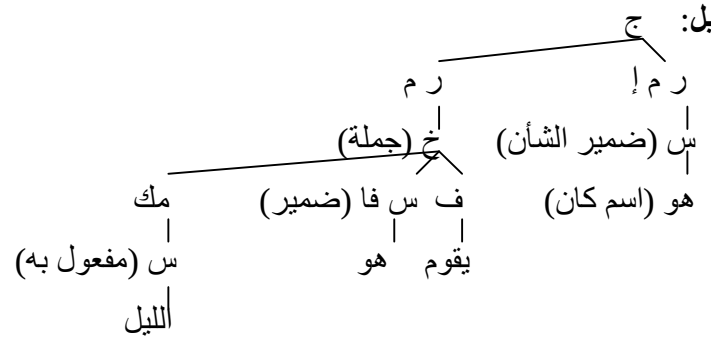

يتضح أن المركب (كان يفعل) يشير إلى الزمن الماضي المستمر، خاصة فيما كان عادة مثل المداومة على القيام، والصوم، والصلاة. فالصيغة تحولت من الحاضر إلى الماضي، وبناء الجملة لم يتأثر كثيراً فالمسند هو اسم كان والمسند إليه هو خبرها مفرداً أو جملة فعلية أو اسمية كما هو في المشجر أعلاه.ومما يتركب مع صيغة

---

[1] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص245.

[2] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص158.

(يفعل) الحرف (لم)، وهو حرفي نفي يدخل على المضارع ويقلب زمنه إلى الماضي [1]. ومنه : 32- "لا صلاة لمن **لم يقرأ** بفاتحة الكتاب" (باب وجوب القراءة للإمام والماموم ح123 ص175). و"مثل ما بعثني به الله من الهدى، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء فأنبتت الكلأ، ... وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأ ذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من **لم يرفع** بذلك رأسا، **ولم يقبل** هدى الله الذي أرسلت به" (باب فضل من علم وعلم، ح79، ص 25). و "...ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله **ولم يرجع** بشيء" (باب فضل العمل، ح926، ص222".

الشاهد قوله: (لم يقرأ، لم يرفع، لم يقبل، لم يرجع)، المركب (لم يفعل) يشير إلى الزمن الماضي وقد يكون هذا الماضي منقطعاً، أو مستمراً، وانقطاعه أو استمراره يستفاد من السياق.

ويتركب مع صيغة (يفعل) الحرف (لن)، وهذا الحرف يدخل على المضارع ويخلصه للاستقبال[2]، ومنه: - "إنك **لن تنفق** نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في امرأتك" (باب ما جاء في الأعمال بالنية، ح39، ص17). و"فاعمل من وراء البحار، فإن الله **لن يترك** من عملك شيئاً" (باب زكاة الإبل،ح1384، ص1499). و'إن في الجنة باباً يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة... فإذا دخلو أغلق **فلن يدخل** من أحد" (باب الريان للصائمين، ح1797، ص698). الشاهد قوله: (لن تنفق، لن يترك، لن يدخل)، صيغة (يفعل) تشير إلى الحال أو الاستقبال ولكن زمن هذا المركب هو المستقبل ودخول (لن) عليها يخلص الصيغة للاستقبال، والسياق يؤكد ذلك.

وكذلك يتركب مع (يفعل) الحرف (لا)، وهو نفي يدخل على المضارع، ويري النحاة أن هذا الحرف يخلص المضارع للاستقبال. ومنه: - "إن من الشجر شجرة **لا يسقط** ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي" (باب قول المحدث، ح 61

---

[1] سيبويه،مرجع سابق ج/1، ص460.
[2] نفسه ج/1، ص460.

ص19). و"**لا يؤمن** أحدكم حتى يحب لأحيه ما يحب لنفسه" (باب من الإيمان أن يحب، ح13، ص6) و"**لا تقرأه** حتى تبلغ مكان كذا وكذا" (باب ما يذكر في المناولة ح63، ص20) و"إن الله **لا يقبض**العلم، ينتزعه انتزاعاً من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء..." (باب كيف يقبض العلم، ح100، ص30).

الشاهد قوله: (لا يسقط، لا يؤمن، لاتقرأ، لايقبض) الاستعمال اللغوي يؤكد أن (لا) النافية من أكثر الحروف التي تدخل على المضارع، كما يؤكد أن هذا الحرف لا يغير القسم الزمني لصيغة (يفعل)، ولا يقيد المضارع بجهة معينة، فقد يدل (لا يفعل) على الحال أو الاستقبال، وفق السياق.

ومن المركبات (كاد يفعل)، لم يشر القدماء إلى الدلالة الزمنية لـ(كاد)، ولكنهم تحدثوا أكثر عن إعرابها هي وأخواتها من أفعال المقاربة، وأشار تمام حسان إلى زمن هذا المركب، وأطلق عليه الماضي المقاربي[1]، وهذه التسمية غير دقيقة في النص على زمن المركب (كاد يفعل) وعليه فإنه لا يختلف عن قول القدماء بأن كاد تأتي للمقاربة[2].

ومنه: "غفر لامرأة مومسة مرت بكلب... قال: **يكاد يقتله** العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك"(باب إذا وقع الذباب، ح3143 ص1117). الشاهد قوله: (كاد يقتله) يدل على قرب وقوع الحدث في الزمن الماضي المطلق المركب (كاد يفعل) يأخذ دلالته من جانبين، الأول الفعل (كاد) الذي يدل على الماضي المطلق، والثاني المعنى المعجمي لـ(كاد) الذي يشير إلى قرب الحدث من الوقوع، يقول الجرجاني:" إن كاد تأتي لاستغلال شدة قرب الفعل من الوقوع وعدم الوقوع أبداً"[3].

ومن الحروف التي تدخل على صيغة (يفعل) وتؤثر في زمنها (السين)، يرى سيبويه أن السين وسوف مركبين مع المضارع، يدلان على المستقبل، من غير أن يشير إلى فروق دلالية في جهة المستقبل[4]، ومن النحاة من وافقه على رأيه، ففي

---

[1] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ملحق الكتاب، جدول رقم2، ص262.
[2] ابن يعيش، شرح المفصل، ج/7، ص119.
[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص183.
[4] سيبويه، الكتاب، ج/4، ص297.

الإنصاف: "أن السين وسوف حرفا تنفيس ومعناه تأخير الفعل، إلى الزمان المستقبل وعدم التضييق في الحال"[1].

ورأى فريق آخر أن الزمن مع السين أضيق منه مع سوف، وذلك لكثرة حروف سوف والتي تفيد المبالغة في المعنى، وذهب فريق ثالث إلى أن السين وسوف حرف واحد، وأن سوف تتحول بالاستعمال إلى السين. وقد تجلى هذا الخلاف في كتاب الإنصاف تحت عنوان (السين مقتطعة من سوف أم أصل برأسها)، فالكوفيون يرون أن السين مقتطعة من سوف، والبصريون يرون خلاف ذلك[2]،وبعد أن نظروا في النصوص لم يزيدوا على القول بأن التراخي في سوف أشد منه في السين.

أما المعاصرون فلم يطيلوا فحص النصوص التي وردت فيها السين وسوف، لذلك جاءت أقوالهم قريبة من أقوال القدماء، قال المخزومي" كالسين وسوف في تخليص يفعل للمستقبل[3]. كأنه يقول بتعاقبهما، وتمام حسان تابع البصريين فجعل السين للمستقبل القريب، وسوف للمستقبل البعيد[4].

ومما ورد في الحديث: - "إنك **ستأتي** قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله..."(باب أخذ الصدقة من الأغنياء، ح1425،ص520). و"يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة **فسيبرئك** الله..." (باب تعديل النساء ح2158، ص989). الشاهد قوله: (ستأتي، سيبرئك)، دخول (السين) على صيغة (يفعل) لا يغير الزمن الصرفي للصيغة، ولكنه يوجه الصيغة إلى المستقبل القريب أو البعيد وفق القرائن الواردة في السياق، ولدخول السين على صيغة (يفعل) فائدة معنوية أخرى وهي تأكيد وقوع الحدث وهذا هو الذي جعل النحاة يولون بأنها تخلص المضارع للمستقبل القريب.

إذن صيغة (يفعل) تظل محتفظة بزمنها الصرفي، وهو الحال أو الاستقبال، عندما تتركب مع بعض القيود الزمنية، مثل: (لا) النافية، وحرف (السين)، وتتحول إلى

---

[1] ابن الأنباري، الإنصاف، ج/2، ص647.
[2] ابن الأنباري، الإنصاف، ج/2، ص647.
[3] د.مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص159.
[4] د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ملحق الكتاب، جدول رقم2، ص263.

الماضي عندما تتركب مع قيود زمنية أخرى، مثل:(كان) أو (لم). ومع كل هذا لابد من مراعاة السياق، فقد تكون هناك قرائن أخرى تؤثر في استنباط الدلالة الزمنية.

ثالثاً صيغة الأمر وزمنها:

اختلف النحاة في الدلالة الزمنية لفعل الأمر، وأشار سيبويه إلى زمن صيغة (افعل) حين قال: "وأما بناء ما لم يقع قولك آمراً: اذهب..."[1]، كأنه يرى أن زمن صيغة الأمر هو المستقبل. وقد تابع سيبويه معظم النحاة، منهم السيوطي، والمبرد، وغيرهما. وذهب فريق إلى أن زمن الأمر هو الحال، ومنهم السكاكي[2].

أما المحدثون فاختلفوا اختلاف القدامى ذاته، فمنهم من تابع سيبويه، قال العقاد: " وصيغة الأمر تدل على فعل مطلوب في المستقبل، يقترن بالزمن عند حصوله: أمرته ففعل"[3] ومنهم من رأى أن صيغة الأمر للطلب دون التقيد بزمن[4]. أميل إلى أن الأمر بصيغة (أفعل) زمنه مشترك بين الحال، والاستقبال ما لم يوجد في السياق ما يوجهه إلى أحدهما.

وقد وردت صيغة الأمر (افعل)في الحديث النبوي كثيراً، ومنه: "**ارجعوا** إلى أهليكم فعلموهم" (باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم، ح86، ص26) و"عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إنيأسمع منك حديثاً كثيراُ أنساه، قال: (**أبسط** رداءك). فبسطته، قال: فغرف بيديه، ثم قال: (ضمه) فضمتته فما نسيت شيئاً بعده" (باب حفظ العلم، ح119، ص34). الشاهد قوله: ارجعوا، أبسط، اجعلوا)، دلالة صيغة الأمر في الأحاديث السابقة تؤكد ما نميل إليه، وهو الحال أو الاستقبال، ففي الحديث: (ارجعوا ...) دلالة الأمر أقرب إلى الاستقبال لأن هذا الرجوع إلى الأهل لا يحدث حالاً، وإنما يحتاج إلى زمن أطول، في حين أن دلالة الأمر في حديث أبي هريرة أقرب إلى الحال، بدلالة السياق.

الدلالات التي تم رصدها للصيغ (فَعَلَ، يَفْعَلُ، اُفْعُل)، وما يتركب معها من قيود زمنية تكشف بوضوح عن أن الزمن الذي تدل عليه هذه الصيغ هو الزمن الصرفي

---

[1] سيبويه، الكتاب ج/1، ص12.
[2] السكاكي، مفتاح العلوم، ص320.
[3] العقاد، مقالة الزمن في اللغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 14،ص40.
[4] د.إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، ص22.

الذي يأتي من الصيغة وهي خارج السياق، وأن هذا الزمن قد يصحب الصيغة وهي داخل السياق، وقد يتغير إلى قسم زمني آخر بتأثير من القرائن المختلفة، وعليه فإن الزمن الصرفي ليس مستقلاً عن السياق، وهو مجرد تسمية قصد منها التمييز بين زمن الصيغة وزمن السياق ولكنه يبقى النقطة الأولى والمهمة في تحديد الدلالة الزمنية للنصوص المختلفة.

المبحث الثاني

الزمن النحوي في الحديث

الكشف عن الزمن النحوي يعني الربط بين زمن الجملة، وزمن النص، ومن ثم التوصل إلى القواعد التي تحكم بناء النص زمنياً، والتعريف الذي نراه للزمن النحوي، هو أنه وظيفة في السياق، يؤديها الفعل وكل القرائن التي تعين على توجيه الدلالة الزمنية. وعند تحليل الزمن في النصوص ينبغي مراعاة النقاط التالية:

أولاً: ضبط موقع الحدث على محور الزمن، وضبط المدى الزمني الذي يشغله الحدث أو الأحداث[1]، والمقصود بهذين الضبطين هو تحديد القسم الزمني للحدث وجهته. ويتم تحديد القسم الزمني للحدث داخل النص من خلال علاقته التتابعية بالأحداث الأخرى في النص، وذلك كأن يكون الحدث مرتبطا بحدث آخر سابق عليه أو لاحق له، أو متزامن معه وبالتالي يتأثر زمن الحدث بهذه العلاقة وأبعادها، وهذه العلاقة في النص تحكمها الإحالة. أما تحديد جهة الحدث فيتم عن طريق الوسائل التي تفصِّل نقاط الزمن المختلفة، مثل الظروف وبعض الأدوات، ولابد من ربط مفهوم الجهة الزمنية بمسألة الترتيب الزمني في أزمنة الأفعال.

ثانياً: التمييز بين الأفعال التي تشير إلى القسم الزمني بنفسها، دون أن تتأثر بغيرها وهذا الزمن اصطلح عليه بالزمن الإشاري[2]والأفعال التي لاتعين قسماً زمنياً بنفسها بل تتبع غيرها في الزمن، وهذا الزمن اصطلح عليه بالزمن الإحالي[3]. هذا يعني أن نفرق في النص بين الزمن الإشاري، والزمن الإحالي.

ثالثاً: الوقوف على العلاقة بين زمن الحدث والزمن المرجعي، وتتضح هذه العلاقة من خلال الجملة:خرج محمد أمس صباحاً، الصيغة (خرج) أفادت الماضي ويفهم منه أن حدوثه كان قبل لحظة التلفظ، ثم يحددلفظ أمس زمن الخروج تحديداً عاما ويعقبه تحديد أدق في لفظ (صباحاً). في هذه الجلة يمثل لفظ (أمس) الزمن المرجعي

---

(1) د.الأزهر الزناد، نسيج النص، ص173.
(2) نفسه، ص75.
(3) نفسه، ص77.

وهو النقطة التي تم عندها الخروج وصيغة الماضي (خرج) تمثل زمن الحدث، والزمن المرجعي وزمن الحدث كلاها سابقان لزمن التلفظ.

وإذا غاب الانسجام بين النقاط الزمانية خرجت الجملة عن النمط المنطقي، مثل: سيسافر محمد أمس، فزمن الحدث مستقبل، والزمن المرجعي ماض، والأهم هو الانسجام بين زمن الحدث والزمن المرجعي، لأن زمن التلفظ عامل ثانوي في تحقيق الانسجام.

رابعاً: مراعاة المركبات التي تتكون من صيغ الأفعال وما يتصل بها من حروف مثل (قد) و(السين) و(سوف) وغيرها، ومن أفعال ناقصة، وظروف، وهي تؤدي معنى الترتيب الزمني بين الأفعال، ومصب كل هذا هو البنية الزمنية في النص.

ولابد من معرفة أن العلاقات بين الكلمات في الجمل والنصوص تأخذ معناها من سياق الكلام فالعلاقات تقوم على الروابط التي تحكم الصلة بين الكلمات والجمل في النصوص وتجعل من اللغة وسيلة مفهومة بين مستعمليها، وبدون وجود هذه الروابط تنعدم العلاقات وتصبح النصوص كلمات مبعثرة بلا معنى.

وعند تحليل النص يجب أن نضع في اعتبارنا أن النص ليس مجرد جانب من جوانب الواقع اللغوي، بل هو جزء فعلي من الواقع، ولذلك لا يتوقف عند كلمات النص وتحليلها في مستويات الدرس اللغوي صوتاً وصرفاً ونحواً ودلالةً فقط، ولكن لابد من النظر إلى ما وراء النص من جميع العوامل المعرفية والنفسية والاجتماعية والعمليات العقلية[1] ولذلك عندما نحاول أن نمثل بناء النص وتركيبه برسم مشجر ما فإننا لا نستطيع أن نمثل كل الجوانب الموجودة في النص وخاصة بنيته العميقة.

ويمكن أن نأخذ هذا النص مثالاً للتطبيق: "أرسل أخي إليَّ الكتاب عشية يوم الأحد وكان اشتراه قبل ذلك بيوم، ولم يجد الوقت للذهاب إلى المحطة، ووصلني ذلك الكتاب اليوم، وكنت أتوقع وصوله، لأنني كنت قد هاتفته منذ يومين، فاعلمني بذلك".

في هذا النص يمثل الفعل (أرسل)الفعل الرئيس في النص، ويعين زمناً إشارياً مستقلاً بذاته وهو الماضي السابق لزمن التلفظ، وعليه فإن زمن الإرسال يتحكم في

---

[1] د.أحمد عفيفي، نحو النص اتحاه جديد في الدرس النحوي، ص17.

زمن النص بكامله، أما زمن جملة (وكان اشتراه) فإنه يحيل على الفعل (أرسل)، مع مراعاة التركيب (كان اشتراه) والظرف قبل، وكذلك الفعل (لم يجد)، أما جملة (ووصلني)زمنها إشارياً صرح به صاحب النص، وهو أيضاً مرتبط بزمن التلفظ ويؤثر في أزمنة بقية الجمل في النص لأنها تحيل عليه[1].

نخلص إلى أن تحليل زمن النص يكون كالآتي: معرفة الجملة الرئيسة (الأولى) في النص وتحديد القسم الزمني الذي تشير إليه الصيغ الفعلية في تلك الجملة وعلاقتها بغيرها من الجمل في النص، لمعرفة التأثير والتأثر بين الجمل، ومراعاة المركبات الزمنية،وأخيراً الوقوف على وحدة وانسجام النص زمنياً.

ولكي نحلل أي نص من النصوص لابد من مراعاة أن تحليل النص يختلف عن تحليل الجملة ويتم عبر ثلاث مستويات:

أولاً: التحليل البنيوي الذي يبدأ بالجسم الأكبر ثم ينتهي إلى الأصغر، ويتطلب تحديد العناصر اللفظية للتركيب اللغوي، وتمييز الصيغ الفعلية، وهذه الخطوة تمثل المستوى الأول وفيه يتم التركيزعلى البنية الشكلية للنص، ويمكن تمثيل هذه البنية في مشجر يوضح أجزاء الجملة ولكنه لا يمثل المعنى بوضوح.

ثانياً: معرفة العلاقات بين الجمل عن طريق وسائل الترابط بين أجزاء النص، من خلال العلاقات الدلالية والإحالة وغيرها، ويركز هذا المستوى على البنية الدلالية للنص، وهذه البنية يصعب تمثيلها رسماً في مشجر ما، لأنها تحتوي على البنية العميقة للنص.

ثالثاً: دراسة النص دراسة وصفية من أجل الحكم على النص بأنه مقبول تداولياً وهذه الدراسة لا تتوقف عند البنية الشكلية والدلالية للنص، وإنما تتجاوزها إلى مستوى الخطاب العام للنص وما يحكمه من قيود ومعايير، ويركز هذا المستوى على جانب الاستعمال والحدث الكلامي وعلاقته بالسياق، والجدير بالذكر أن هذه المستويات الثلاثة متداخلة وتعبر مجتمعة عن مدى ترابط النص وتماسكه. سنتناول

---

[1] د.الأزهر الزناد، نسيج النص، ص177.

عدداً من النصوص للتطبيق، وسنركز على إظهار البنية الزمنية للنص وعلاقتها بالمعنى:

1- حدثني محمد بن غرير الزهري قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: حدثني أبي عن صالح قال: عن ابن شهاب حدث: أن عبيد الله بن عبد الله أخبره، عن ابن عباس: أنه تمارى هو والقيس بن حر بن حصن في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى، الذي سأل موسى السبيل إلى لقياه هل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بينما موسى في ملأ من بني اسرائيل، جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا فأوحى الله إلى موسى: بلى: عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، وكان يتبع أثر الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة؟ فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره قال: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا خضرا، فكان من شأنهما الذي قص الله عز وجل في كتابه".

هذا النص نص قصصي ومعلوم أن السرد القصصي يظهر اختلافاً بين زمن الحادثة الواقعة وبين ترتيبها الزمني في السرد، فالترتيب لا يطابق الواقع التاريخي لذلك فإن التغير الزمني في أحداث القصة يولد عدداً كبيراً من النصوص السردية ويرسم صوراً مختلفة يجب مراعاتها عند التحليل.

يمكن تقسيم هذا النص إلى قسمين، كل قسم يضم عدداً من الجمل المترابطة، فالقسم الأول هو قسم الأسانيد، وتمثله الجمل: حدثني ، حدثنا وحدَّث، وأخبر، ويبدأ بمحمد بن غرير وينتهي بابن عباس، وهذا القسم سابق للقسم الأول وأفعاله كلها ماضية مشتملة على ضمير للمتكلم واقعاً مفعولاً به يعود للراوي المعني، فهي جمل تامة تتكون من نواة إسنادية (مسند ومسند إليه) ومكملات.

أما القسم الثاني فهو الخبر الذي نقله أولئك الرواة، وهو جملة الأحداث التي تكون عالم الخبر الداخلي، وهي وقائع مستقلة بنفسها ولكن التركيب النحوي يأبى ذلك

ويجعلها مرتبطة بالقسم الأول فالخبر كله واقعاً مفعولاً به للفظ القول، كما أن أول جملة في الخبر: "أنه تمارى..." فالضمير يحيل إلى ابن عباس ومن ثم يربط بين القسمين، قسم الأسانيد وقسم الأخبار. وعليه ينقسم النص كله إلى خمس جمل:

ج1 حدثني محمد بن غرير.

ج2 قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم.

ج3 قال: حدثني أبي عن صالح عن ابن شهاب... عن ابن عباس.

ج4 أنه تمارى هو ... في صاحب موسى.

ج5 قال بن عباس: هو خضر...في كتابه.

وتحمل الجملة 5 القصة الرئيسة قصة (موسى عليه السلام والخضر)، ويمكن تقسيم القصة إلى نصوص فرعية بسيطة محتوية على عدد من الجمل البسيطة كالآتي:

نص1: ج1قال: ابن عباس هو خضر وتتركب من الفعل الماضي قال + الفاعل ابن عباس+ المفعول به (هو خضر) وج2 فمر بهما... كعب، وج3 فدعاه ابن عباس.

نص2: ج1 فقال: إني تماريت ... في صاحب موسى، وج2 الذي سأل ... لقياه، وج3 هل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟

نص3: ج1 قال: نعم، وج2 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نص4: ج1يقول بينما موسى... إسرائيل، وج2 جاءه ...فقال.

نص 5: ج1هل تعلم أحداً أعلم منك؟

نص6: ج1 فقال موسى: لا، ج2 فأوحى الله ... خضر، ج3 فسأل موسى ... إليه، ج4 فجعل ... آية.

نص7: ج1 وقيل له: إذا...فارجع، فإنك ستلقاه، ج2 وكان يتبع أثر... في البحر.

نص8: ج1 فقال لموسى فتاه، ج2 أرأيت إذ ... الصخرة؟، ج3 فإني نسيت الحوت، ج4 وما أنسانيه... اذكره.

نص9: ج1 قال: ذلك... نبغي، ج2 فارتدا... قصصا، ج3 فوجدا خضرا، ج4 فكان من ... في كتابه.

جاء التقسيم بناءً على أسلوب النص الحواري، فكل حوار من أحد المتحاورين يمثل نصاً يضم جملة أو أكثر، ويمثل هذا المشجر بنية النص التركيبية:

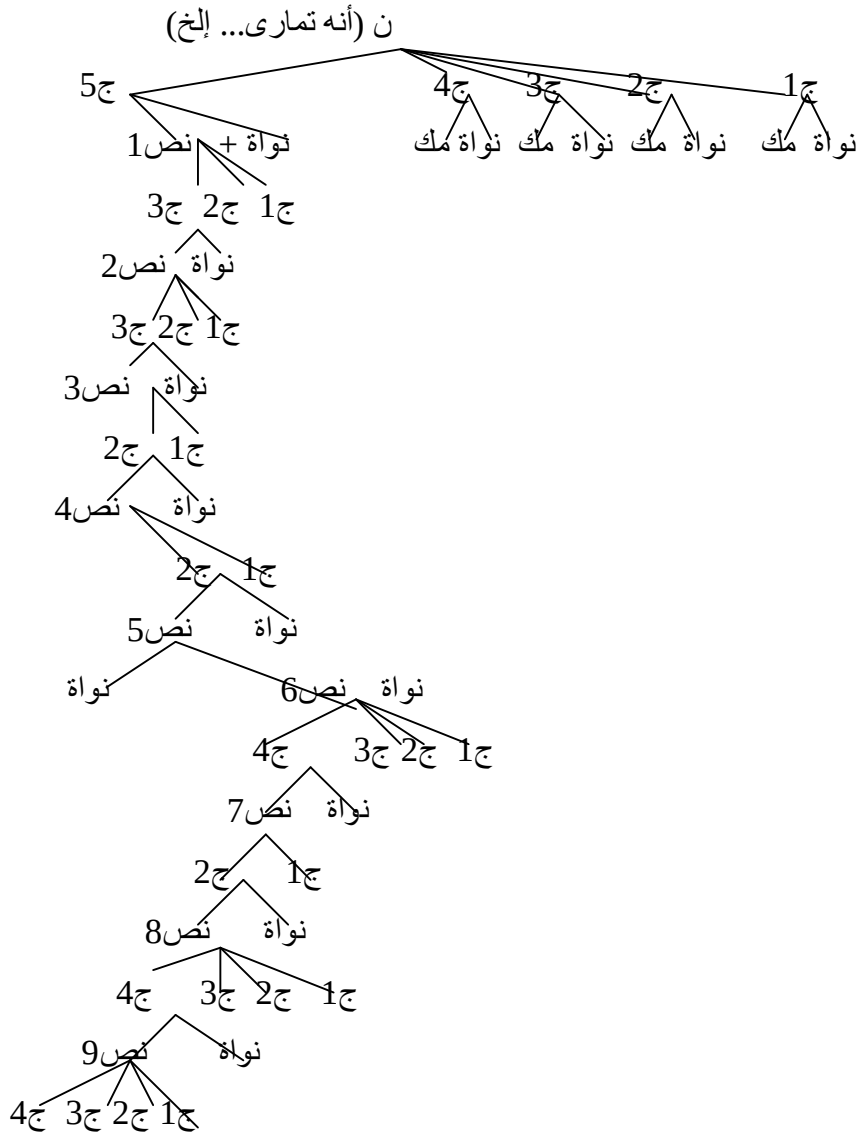

توضح هذه البنية التركيبية أن هذا النص يضم أكثر من جملة، وكل جملة فيه تتكون من ركني الإسناد المسند والمسند إليه وأشرنا إليهما بالنواة، بالإضافة إلى المكملات المختلفة. و أحداثه كلها وقعت في الماضي، فالماضي يمثل الزمن المعطى الأولي في النص، لذلك جاءت الجملة الأولى في النص قوله: جاءه رجل، الفعل (جاءه) يدل على الماضي التام، ويعين زمناً إشارياً مرتبطاً بالزمن المعطى الأولي، وهذا الزمن هو الماضي الذي يتحكم في النص بكامله وقول الرجل: هل تعلم؟ جاء الفعل (تعلم)

مضارعاً، ولكنه هنا لا يدل على المستقبل، بدلالة السياق العام للنص وقوله: فأوحى الله، الفعل (أوحى)أيضاً يدل على الماضي التام لارتباطه بالفعل الرئيس (جاء) وكذلك الفعل (سأل، وجعل).

أما قوله: إذا فقدت الحوت فارجع، فهو أسلوب شرط أحداثه معلقة بالمستقبل ولذلك جاء فعل الأمر (ارجع)دالاً على المستقبل، لأن الرجوع لا يتم إلا بعد فقد الحوت، وقوله:ستلقاه، جاء المضارع مسبوقاً بالسين دالاً على المستقبل القريب.

والمركب (كان يتبع) يدل كذلك على الماضي المستمر من خلال السياق، لأن أثر الحوث في البحركما ورد في تفسير هذا الحديث، كان واضحاً لموسى وهو يتبعه إلى أن فقده فرجع ولقي الخضر[1]. وردت في هذا النص صيغ فعلية مختلفة، ولكن لا يوجد خلل في بناء النص الزمني فهناك توافقاً تاماً بين الصيغ والدلالة الزمنية، مما أدى إلى تماسك النص وانسجامه.

وتبدو العلاقات بين الجمل في هذا النص قوية من خلال أدوات الربط المباشرة وغير المباشرة، ففي قول ابن عباس: هو خضر، مرتبط بالجملة بعدها وهي: "فمر بهما" لأن الضمير هما يحيل على ابن عباس وصاحبه الحر بن قيس، وهكذا تسير هذه الجمل في تتابع خطي متماسك عبر الإحالة وأدوات الربط الأخرى مثل حروف العطف وغيرها، كذلك يشكل التتابع الزمني بين هذه الجمل أداة ربط قوية في هذا النص فالصيغ الفعلية على اختلافها - ما بين ماض ومضارع وأمر- كلها أشارت إلى الزمن الماضي بفضل السياق والقرائن المختلفة، وهذا ما سنتحدث عنه بتوسع أكثر في النصوص التالية، وذلك لأن تحليل البنية السطحية لا يقدم كشفاً كاملاً عن البناء الزمني للنصوص، فزمن الأفعال يشوبه تعقيد كبير من حيث خصائصه الدلالية الإحالية، فزمن الفعل يعبر عن محتوى زمني من سبق أو تواقت أو ولاء، بالنظر إلى لحظة التلفظ ،ويعبر عن محتوى جهي من لحظية وامتداد وتمام وعدم تمام، ويعبر عن محتوى وجهي يكشف عن منظور ذاتي للمتكلم من احتمال وتسويف وافتراض

---

[1] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج/1، ص123.

وشرط وغيره، وعلى المعالجة النسقية أن تحلل هذا التعقيد لتصل إلى النسق الزمني المتكامل للنصوص. وعليه يمكن عرض البنية الزمنية للنص السابق كالآتي:

أ- الزمن المعطى الأولي وهو الزمن السابق لزمن التلفظ وتندرج فيه كل الأزمنة في النص، وهو في هذا النص الزمن الماضي.

ب- الأزمنة الداخلية في عالم الخطاب وتدل عليها صيغ الأفعال التامة والناقصة وظروف الزمن، وبعض المركبات، ولكن الأفعال تبقى الأساس الأول في تعيين الزمن، وتنقسم في النص إلى قسمين أفعال رئيسة وضرورية تعبر عن الأحداث في الخطاب من حيث مدلولها المعجمي ولا يمكن أن يستغنى عنها المتكلم، وتعبر عن الأزمنة المقترنة بأحداثها من حيث مدلولها الصيغي وعليه فإن عالم الخطاب ينبني على هذا التناغم والانسجام بين الأفعال ومعانيها وأزمنتها، والزمن الذي تعينه القسم الأول من الأفعال هو الزمن الإشاري. وأفعال أخرى ثانوية تساعد الأفعال الرئيسة في تجسيد الأحداث، ولكنها يمكن الاستغناء عنها وهي مرتبطة في زمنها بالنوع الأول لذلك فإن زمنها يعد زمنا إحالياً. ويمثل هذا المشجر تلك البنية الزمنية لنص (موسى والخضر)، وتم تقسيمه إلى مجموعتين قسم الأسانيد مجموعة أولى (م 1) و قسم الأخبار مجموعة ثانية (م2):

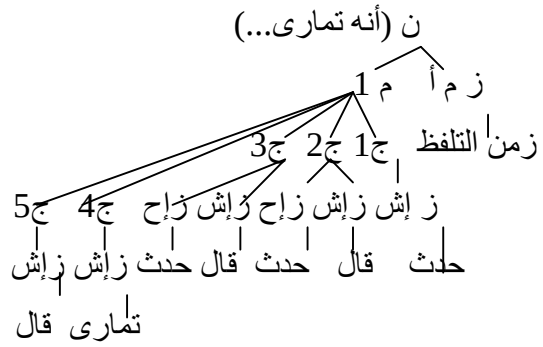

في هذا النص الفعل الماضي (حدَّث)فعل رئيس زمنه إشارياً، لأنه مرتبط مباشرة بالزمن المعطى الأولي في النص، وجملته جملة تامة مستقلة عن غيرها، وحصل به التعبير عن مقطع ما من النص، وكذلك أضاف معلومة أخبارية جديدة ومهمة فالمتكلم أخبرنا بهذا الفعل عن حدث معين، وفي الوقت نفسه نقل إلينا زمن وقوع هذا الحدث. ومثل الفعل (قال ج2) أما الفعل (حدث ج2) فإنه لا يتعلق مباشرة بالزمن الأولي،

وإنما هو متعلق بالفعل (قال)فزمنه زمنا إحالياً مطابقاً لزمن الفعل الرئيس الذي أحال عليه.

وفي ج4 الفعل المضارع (تمارى) فعل رئيس يحدد زمناً إشارياً، وكذلك الفعل (قال ج5) زمنه إشاري، وهذه الجملة تحمل البنية العميقة للنص وتتكون من عدة جمل تمثل القسم الثاني من النص ويمكن تمثيله كالآتي:

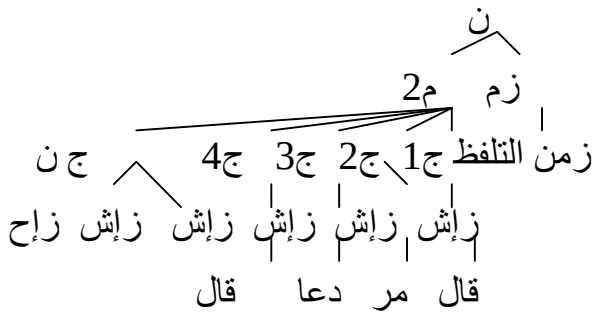

وهكذا تتشكل بنية النص الزمنية مكونة من صيغ الأفعال والظروف والمركبات وقرائن السياق هذه البنية الزمنية تعد قسيم الدلالة المعجمية لتلك الأفعال مضافاً إليها قصد المتكلم، وملابسات السياق المقامي فالمتكلم قد يستخدم الفعل المضارع ولكنه لا يريد الزمن المتعين من الصيغة (يفعل) بل يريد إظهار الصورة وتجسيدها، وقد يستخدم صيغة (فعل) وهو يرمي إلى المستقل وتارة ثالثة يأتي بالصيغة المعنية وهي مفرغة عن الزمن، وكل هذا لايتمكن منه المتكلم إلا بمراعاة السياق بشقيه اللغوي والمقامي،فيخرج لنا نصاً متماسكاً تآخذت أجزاؤه وتوفرت فيه شروط النص الجيد وأصبح صالحاً للتداول.

وتقوم الإحالة بدور كبير إذ هي الرابط القوي بين الجمل في النص، فعلى سبيل المثال في جملة "فدعاه ابن عباس"يمثل الضمير الهاء رابطاً نحوياً لأنه يشير إلى عنصر مهم في النص وهو أبي بن كعب، ومن ناحية أخرى فالضمير يعد رابطاً زمنياً له قيمة الفعل فهو مرتبطا بالزمن المعطى الأولي لذلك نراه حاملاً للزمن الإشاري.

2-كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن